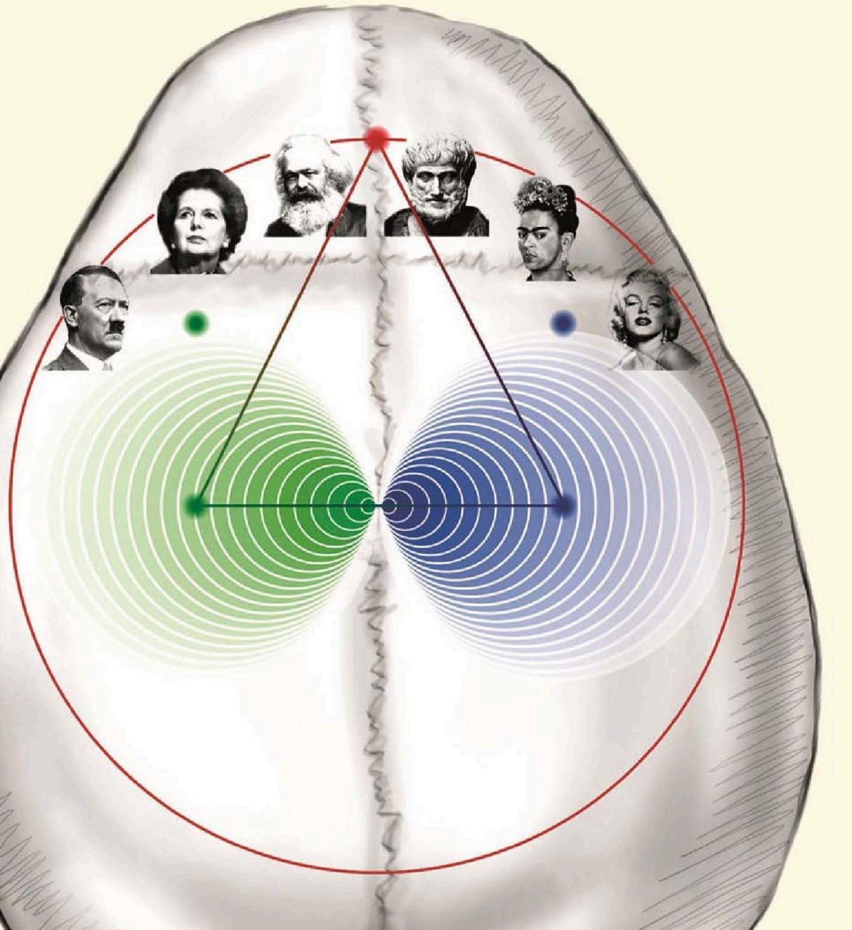
العقل

سفر في عالم مجرّد



ماهر أبو شقرا

الفارابي

العقل

سفرٌ في عالم مجرّد

ماهر أبو شقرا

العقل

سفرٌ في عالم مجرّد

دار الفارابي

الكتاب: العقل، سفرٌ في عالم مجرّد

المؤلف: ماهر أبو شقرا

لوحة الغلاف: نجاد عبدالصمد

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت - لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: شباط 2013

ISBN: 978-9953-71-965-8

الإهداء

إلى تجربتي أهدي هذا الكتاب؛ فلجميع عناصرها دور في تكوين هذا الأثر.

إلى مايا، التي غمرتني بحبّها ودعمها واهتمامها، وأنعمت بكل ما يلزم حتى انجاز هذا الكتاب، واحتملت ما قد لا يحتمله إنسان...

إلى أبي، الذي أمطرت عليه الحياة شقاءها، فرده رصاصاً في وجه القدر. فأمسى له مقام السماء للأرض بالنسبة إليّ، مثالاً وقدوة، تصغر الشدائد أمامي كلّما مرّ ذكره في ذهني، وكلما أبصرت وجهه فأرى القوة وأشعر بها تدب في داخلي...

إلى أمّي التي عطّرت بحبها مسار حياتي، وغمرت بدفئها أجفاني، وكفنت بحنانها الآلام والمحن... وأمّي صديقتي الأولى، أبصر وجهها فأشعر بالارتياح، وأسمع صوتها فيهدأ نبضي ويستقيم...

إلى شقيقتيّ، فرح ويارا، اللتين تعلمت من خلالهما كيف أن في الحياة من لا تقوى على ابتعاده طويلاً. وأختاي مزيج نوعيّ من الحنان والذكاء المتقد المنكّه بقلق ظريف واكتراث عميق بكل تفاصيل الأقربين...

ماهر أبو شقرا

جزيل الشكر إلى والدتي، غادة أبوشقرا على مساعدتها الكبيرة في تأمين العديد من الكتب والمراجع؛ وإلى مساعدتها وزوجتي مايا في العمل على البيبليوغرافيا.

جزيل الشكر إلى:

الدكتور سناء أبوشقرا

الدكتورة وفاء أبوشقرا

الأستاذ منصور أبوشقرا

الأستاذ ألكسندر عمّار

وذلك لقراءتهم المسودة وللملاحظات القيّمة التي قدّموها.

جزيل الشكر إلى الرفيق والصديق الأستاذ باسم شيت والصديق الأستاذ نجاد عبدالصّمد على مساعدتهما في تأمين مراجع مهمّة استعنت بها في إنجاز هذا العمل.

جزيل الشّكر إلى جميع الذين شاركوا معي في الدراسات التي قمت بها، وجميع الذين أجريت معهم المقابلات المباشرة وغير المباشرة.

وأخيراً، جزيل الشكر إلى أسرة دار الفارابي، وأخص بالذكر:

ـ الأستاذ جوزيف بوعقل، شكراً على كل شيء.

ـ الدكتور حسن خليل على دعمه ومساعدته.

مقدمة الكتاب

كنت أخوض نقاشاً مع أحد معارفي حول موضوعة العقل، وذلك بعد انتهائي من العمل على المسودة الأولى لهذا الكتاب. وهو شخص يحبّ أن يطلق عليه لقب «مفكّر»، وأذكر هذا اللقب هنا تلبية لرغبته... لقد كان النقاش شيّقاً جدّاً، تداولنا فيه العديد من المفاهيم والأفكار، على الرغم من أن كلّاً منّا كان يتكلّم من منظور مختلف. لكن لعلّ أهمّ ما تلقّيت خلال هذا النقاش كان فكرةً يمكن أن ألخّصها بالتالي: «لا يمكن نقد فيلسوف، فهذا عالم... من نحن حتّى ننتقد الفيلسوف هذا أو ذاك؟». أقول «أهمّ» كون هذا التعليق جاء في سياق إحدى الإشكاليات الأساسيّة التي أحاول طرحها من خلال هذا الكتاب... لقد استحضرَت هذه الملحوظة كلّ تهم الهرطقة التي كانت تطلق في القرون الوسطى ضدّ كل من خرج عن المنظومة الفكرية المهيمنة.

إنّ العقـل البشـري الجماعـي لـم يتطـوّر مهمـا تطـوّر أو تغيّـر شـكل المعرفـة، ومهمـا تغيّـر مـن يقبـض علـى مفاصـل تلـك المعرفـة ومـن يتكلّـم بصفتـه «قيّمـاً» عليهـا. وتهـم الهرطقـة وشـتّى أنـواع «التكفيـر» وإطـلاق الحـرم علـى مسـاءلة كلّ مـا هـو «مقـدّس» لاتـزال هـيَ هـيَ. والمنطـق الـذي

كان سائداً أيام كان الإكليروس يقبضون على «الحقيقة» وعلى الحقّ بادعاء امتلاك المعرفة لايزال هو نفسه وإن تغيّرت ملامحه...

وما ينطبق على الفلسفة ضمن هذا الإطار ينطبق على سائر المجالات العلمية والطبّ والفيزياء وما إلى هنالك من مجالات. فعلى الرّغم من فشل الطب العلاجي في شفاء معظم إن لم نقل سائر الأمراض المستعصية، فإن مجرّد مساءلة المنهج المعتمد في الطب تعدّ ضرباً من الهرطقة أو عملاً شاذاً عن القاعدة. والأمر ينسحب على جميع فروع العلوم. إنّ المنهج الذهني السائد منهج ينطلق من أعلى إلى أسفل، ومن حيث يقبع المفكّرون والفلاسفة والعلماء بأفكارهم ونظرياتهم وهالتهم الأكاديمية لتعمّم على سائر البشر، على العقل الجماعي البشري... وبالتالي فإنّ مطلق نزوع في المنهجية نحو الاتجاه من أسفل إلى أعلى يجابه بالتكفير وتطلق عليه سائر الاتهامات التي تنضوي تحت مظلّة الهرطقة.

*

لقد كانت «الحقيقة» ولاتزال حلماً يدغدع عقول المفكّرين والفلاسفة والعلماء. وفي خضمّ سيرورة البحث عن «الحقيقة» شهد المنهج المعرفي، الذي كما سنرى يرتكز دائماً على التفاصيل، الكثير من التفرّع وزادت تقسيماته على حساب المنظور الوحدوي للوجود ولفهم الواقع. وهذه إشكاليّة أساسية من الإشكاليات التي نحاول طرحها من خلال هذا الكتاب... فالواقع هائل التفاصيل، ولا سبيل

لحصر أو لفهم تعقيداته من خلال اتّباع منهج يرتكز على التفاصيل، من خلال منهج ذهنيّ خطّي ضئيل كما سنرى. إذن، فإن النقد الموجّه لأي فكر من خلال هذا الكتاب لا يتّبع المنهج المعرفي الذي يطرحه ذاك الفكر أو الذي يندرج ضمن إطاره، إنّما النقد يأتي في سياق «مساءلة» المنهج الذهني الذي يعتمده ذاك الفكر. بمعنى آخر، فإننا عندما ننتقد فكراً معيّناً في هذا الكتاب، فإنّنا لا ننتقد هذا الفكر من خلال الآليات المعرفية نفسها التي يرتكز عليها هذا الفكر، إنّما من خلال نقد هذه الآليات. وكما سنرى، فإنه على أقلّ تقدير، فإن الغالبيّة الكاسحة من الفلسفات إنّما ترتكز على منهج ذهني واحد، منهج يرتكز على التفاصيل في وجود لا سبيل لحصر تفاصيله...

تلك «الإنجازات» التي قدّمتها سائر الفلسفات والعلوم ولاتزال تقدّمها، هل قرّبتنا من معرفة الحقيقة أكثر؟ أم أن الإنسان حين كان متماهياً مع الوجود متناغماً معه كان أقرب إلى «الحقيقة» ممّا نحن عليه اليوم؟ بشكل آخر، هل أنّ المنهج الذهني المعرفي السائد الذي يرتكز على التفاصيل قد جرّ العقل البشري الجماعي في سيرورة بنّاءة للاقتراب من الحقيقة؟ أم أنه جرّه في سيرورة هدّامة جعلت المعرفة تغرق في التفاصيل، وبالتالي أبعد العقل البشري الجماعي عن «الحقيقة» أكثر فأكثر؟

*

ولعلّ فهم «العقل» يشكّل المدخل الأساس لفهم الواقع. ومجرّد طرح موضوعة العقل يفسح في المجال أمام العديد من الأسئلة حول ماهيّة العقل وشكله ووضعه وتاريخه وحاضره ومستقبله. إنّ هذه الأسئلة تشكّل أساس الموضوع الذي نتناوله في هذا الكتاب. قد تأتي ضمن الموضوعات التي تندرج ضمن إشكالية «العقل-الجسد» التي تتمحور حولها فلسفة العقل، لكن مع محاولة مقاربتها من خلال منهج ذهني مغاير...

وبالتالي فإنّ هذا الكتاب هو رحلة معرفيّة من أجل فهم العقل من حيث وضعه في المستوى الإفرادي، كما في المستوى الجماعي... رحلة معرفيّة في عالم مجرّد، مجرّد تماماً...

ووضع العقل يندرج ضمن إطاره العقل الإفـرادي وكذلك العقل الكلّي ووضعه في الوجود، ذاك الوجود الواحد بتفاصيله الهائلة التي تترابط بعضها ببعض ضمن اعتمادية متبادلة... وبالتالي فإنّ نشوء العقل وارتقاءه ومصيره تشكّل مفاصل أساسيًّة في هذا الكتاب.

وها هنا، تطرح موضوعة تطوّر العقل نفسها. هل بالفعل تطوّر العقل البشري إيجابياً؟ وكلّ هذا التقدّم التكنولوجي الذي نراه هل هو تعبيرٌ عن تطوّر إيجابيّ «حقيقي» للعقل؟ وهل يمكن أن يكون مقياساً لتحسّنه؟ أم أنّه يعبّر عن سيرورة تراجعيّة له؟

*

لا يختلف اثنان على وجود قدرات كامنة في العقل البشري، قدرات تظهر أحياناً لدى أشخاص معيّنين في حلات نادرة جدّاً. كنت أشاهد ذات يوم تقريراً تلفزيونيًّا عن رجل ألماني يتمتّع بقدرة هائلة على القيام بأعقد العمليات الحسابية في برهة من الزمن. قدرة مذهلة بالفعل، وظاهرة تشي بأنّ العقل البشري قادر على القيام بأشياء كثيرة، أشياء قد نقدر على تخيّلها أو أشياء قد نعجز حتّى عن تصوّرها الآن... لكن بالطبع، وانسجاماً مع النزعة الفردانيّة المسيطرة اليوم والتي تندرج ضمن المنظومة الفكرية السائدة، فإن هذا التقرير التلفزيونيّ كان يركّز على «القدرة الفردية» الهائلة لدى هذا الإنسان بالتحديد، وليس على قدرات العقل البشري الكامنة بشكل عام...

إنّ اختراع الحاسبة الإلكترونيّة ليس بالطبع لتلبية متطلّبات أمثال هذا الرجل الألماني، بل لتلبية متطلّبات من هم أقلّ قدرة منه على القيام بعمليات حسابية، أقلّ قدرةً بكثير. وإذا أخذنا في الاعتبار أن العلاقة الجدلية التي تربط مختلف العقول الإفرادية البشرية هي التي تحكم سيرورة تطوّر العقل البشري الكلّي وظهور وارتقاء طاقاته وقدراته الكامنة، فإنّ الاختراعات التكنولوجيّة إنّما تعترض هذه السّيرورة. بمعنى آخر، عوض أن تتطوّر العقول الأقلّ قدرة لتكتسب تلك القدرات التي درجنا على تسميتها «إستثنائية»، فإن العكس هو الذي يحدث... تعمد سائر العقول على الاستعاضة عن العقل بشتى الوسائل التكنولوجية المتاحة ليدخل «العقل» في سيرورة تراجعية، في واقع تفرضه وتكوّنه العقول الأقلّ قدرة، واقع يعكس متطلّباتها ويعبّر

في الوقت نفسه عن النمط الاقتصادي الذي يهدف إلى الربحية على حساب تطوّر العقل وارتقائه...

غير أنّ أزمة العقل التي حاولنا التعبير عنها من خلال المثال الذي جاء ذكره للتوّ هي جزء من سيرورة العقل ومن تطوّره، والتطوّر بعكس ما اعتدنا أن نفهمه، يمكن أن يكون تقدّمياً أو تراجعياً، سلبياً أم إيجابيّاً، غير أنّه في النهاية تطوّر في سيرورة العقل وسيبقى جزءاً من تاريخه دائماً وأبداً مهما تطوّر عنه. وهذا الفهم للتطوّر هو بدوره إحدى الإشكاليات التي نحاول طرحها من خلال هذا الكتاب. وبالتالي، فإن هذا الكتاب ليس أبداً دعوة للتخلّف عن المنجزات العلمية، ويجب ألا يفهم كذلك، إنّما الهدف منه يشتمل أيضاً على البحث في سبل التطوّر عن الأزمة التي يعيشها العقل اليوم...

******

I ـ ما قبل العقل

1. البداية
2. السّببيّة
3. القطبيّة
4. الزمن
5. التناقض

البداية

تقف مذهولاً أمام عظمة الكون، ثم ما تلبث أن ترتعش أمام عمق أسراره، فتسلّم أمره للمجهول وتعود إلى شؤونك اليومية حيث تفقه ما يجري من حولك. فالكون لايزال سراً منذ أبصرت البشرية نور الحياة. لاتزال البشرية منذ الأزل تتفحصّ الكون، تتأمل في عظمته، تترقب الأفلاك والنجوم، وتصوغ الآداب والنظريات حول التكوين وسرّه. ومن هذا الجهل ظهرت الفلسفات والديانات، منها ما تداعى أو تلاشى أثره ومنها ما بقي حتى يومنا هذا، والكون صامد أمامنا وحولنا وفينا، صامت أبداً..

***

دأبت معظم الفلسفات التي ظهرت على مر العصور على تأمل الحياة واستخلاص الاستنتاجات، فإذا بالحياة تنتج ما لا يحصى من النظريات حول التكوين والحياة والإنسان. فكانت هذه النظريات بمعظمها نتاج الحياة نفسها التي سعت تلك الفلسفات إلى سبر أغوارها وفك طلاسمها، فتراها أتت مغموسة بنقيع المجتمعات التي ظهرت فيها، منكّهة بروحها وتفاصيلها، محدّدة بإطار ما يدركه العقل الإنساني الذي أنتجها كما أتاحت له الحياة التي يعيشها أن يرى

ويستنتج. والأمر نفسه ينطبق حتى على الفلسفات الجدليّة الكلاسيكية التي جانبت الحسم في نقطة البداية، بداية الوجود، فعزت الأمر إمّا لخالق مفترض، وإما لمصادفة لحظيّة. والواقع هو أنها انغمست في تحليل الحياة نفسها على حساب التأمل في العوامل المجرّدة، تلك التي لا يدركها إلا الوعي المجرّد، عبر ارتقاء الوعي إلى ما فوق عمل العقل في الحياة والمجتمع، الموضوع الذي سنغوص في تفصيله في فصل لاحق من هذا الكتاب.

بعض الفلسفات في شرق آسيا كالبوذيّة مثلاً، استندت إلى تجريد الوعي في مقاربتها للوجود(*)، غير أنها انسلخت عن المجتمع عبر ممارسات يغلب عليها التنسك عوض العمل على تطوير المجتمع، لتتطبّع بالتالي بمفاهيم الحياة البشرية وفق الطريقة التي دأب البشر على فهمها وعيشها ليتجلّى ذلك بمستويين. الأوّل في تغليب السعادة والسّلام الذاتيّ على حساب المجتمع، والثاني في غوصها في الصراع غير الجذري الذي انطبع به المجتمع الإنساني منذ بدايته الأولى من موقعها كديانات تختلف وتتناقض مع ديانات أخرى.

أما الفلسفات اللاإلحادية السماوية، فقد جرّدت مفهوم التكوين لديها من العوامل الموضوعية المجردة بذاتها، لتسنده إلى خالق مفترض وفق منطق «السببيّة»، وبما يتماشى مع محدودية العقل البشري بحسب ما يراه في حياته اليومية ووفق ما يتلاءم مع رؤيته وتصوراته.

(*) الوعي السامي أو المعرفة العليا أو الحقيقية (Prajñā) في البوذية.

ببساطة، لكل شيء سبب.

لقد دعمت معظم الفلسفات اللاحقة، حتى الإلحادية منها، هذه المقاربة للتكوين – أي السببيّة – فغرقت في البحث في المسببات. واستندت الفلسفات الدينية السماويّة إلى فرضية أن الخالق هو أساس لكل وجود وسبب كل جماد و ارتعاشة في الكون. غير أن هذا المنطق لا يلبث أن ينفي نفسه بنفسه عندما يصطدم بآخر حلقة من سلسلة الخلق المفترضة، الخالق. فإن كان لكل وجود خالق، فمن خلق الله؟

******

السببيّة

إنّ الواقع أكثر تعقيداً بكثير ممّا نعتقد. هو مليء بالتفاصيل التي لا نهاية لها ولا سبيل لحصرها، وهي في ترابط وتكامل واعتمادية شاملة فيما بينها بشكلٍ يجعل القدرة على الإلمام بها مسألة مستحيلة. إنّ محاولة تفسير وفهم مظاهر هذا الواقع، أي المعرفة، هي ممارسة دأبنا عليها مذ وجدنا في هذا العالم. وعلى الرغم من أنّ الواقع هائل التفاصيل التي لا سبيل لحصرها، غير أنّنا اعتمدنا منهجاً معرفياً يرتكز في مقاربته على التفاصيل، المنهج السّببيّ. وهو منهج، كما سنرى لاحقاً، ذاتيّ غير موضوعي، يركّز على بعض التفاصيل التي تناسب المنطلقات الفكرية للشخص الذي يمارس المعرفة، فيما يهمل الكمّ الهائل من التفاصيل الموجودة، بالأحرى الكمّ اللامتناهي من التفاصيل المتوافرة في الوجود. بمعنى آخر، مطلق شخص يعتمد منهجاً سببيًّا في المعرفة سيرتكز على ما يعرفه من تفاصيل قليلة، وأسوأ، ما يتناسب مع منطلقاته الفكرية الذاتية، وسط واقع هائل التفاصيل...

لعلّ هذا الكتاب هو محاولة لاستكمال منهج فكريّ موجود

أصلاً، منهج لا يرتكز على ما نعرفه من تفاصيل ووقائع، بل يلحظ ويدير الجزء الهائل الذي لا نعرفه من الوجود، منهج فكريّ مجرّد...

***

السّببيّة والتكوين... الخلق

أذكر مثالاً يحلو للّاإلحاديين ذكره وتكراره وفي نيّتهم إثبات أن لكل شيء سبباً وبالتالي الوجود.

كنت شاباً صغيراً، غارقاً في خضم تساؤلاتي حول الوجود والدنيا، وإذا بجدلية الإيمان والإلحاد تأخذ حيزاً مهماً من تفكيري ومن نقاشاتي، شأني شأن معظم الشباب في مثل سني. أذكر أنه جاءني أحد الرجال بقصّة سمعتها لاحقاً مرات عديدة وبنسخ معدّلة من أشخاص آخرين، وتحكي عن حوار بين حكيم وفتى لا يؤمن بالخالق. وإذا بالفتى يسأل الحكيم عمّن بنى البيت العتيق الذي يسكنه الحكيم العجوز. فيجيب الحكيم بأن البيت بني لوحده. وعندما تهكّم الفتى إزاء إجابة العجوز، أجاب الأخير بسؤال: «كيف تصدّق أن الكون بني لوحده من دون خالق، ولا تصدّق قصتي عن الكوخ الذي أسكنه والذي بني لوحده؟».

هذا هو المنطق السببيّ؛ البيت إذن بناه إنسان بالتأكيد.

غير أن هذا المنطق يغفل أن هناك عوامل أخرى تدخل في عملية البناء كالحاجة والضرورة والدافع، هذا فضلاً عن المواد، ولهذه أيضاً

مسببٌ، ومكونـات ضمنهـا مكونـات ضمنهـا مكونـات... السـببيّة لا تفضـي إلـى مـكان إلا إلـى سلسـلة لا متناهيـة ولا طائـل منهـا أبـداً...

والارتكاز على السببية في تصوّر عملية تكوين الوجود يتلاءم تماماً مع ما يراه ويدركه ويعيشه الفكر الإنساني في حياته اليومية، كأن ينطبع في ذهنه ما يراه من الأشياء وما يجول في فكره كانعكاس لما يراه تحديداً، دون إدراك وتبصر في العوامل المجرّدة التي تنطلق منها عملية التكوين - وذلك كما أسلفنا، وكما سنرى في فصول لاحقة، لا يدركه إلا الوعي المجرد. وبالتالي فإن فكرة التكوين بالخلق التي ترتكز على المنهج السببي، تتناسب وما يراه الإنسان كلّ يوم... فالإنسان يرى اليد التي صنعت كرسيّاً، ويتناسى مجمل العوامل الموضوعية من مادة وتصميم وتوازنات وزمن، والتي لولاها ما صنع هذا الكرسي... وكذلك الأمر بالنسبة إلى عملية التكوين الذي يعزيه إلى خالق مفترض مغفلاً مجمل العوامل الموضوعية الأخرى من مادة وتوازنات وزمن...

فالسببيّة ترتكز على ركيزتين أساسيتين، أولاهما أن لكل شيء سبباً. أما ثانيتهما فهي فصل مكونات الوجود بين سبب ونتيجة، خالق ومخلوق. فعلاً، لقد دمغت السببيّة معظم مظاهر الحياة، وسيطر منطقها على الفكر الإنساني الجماعي بشكل كامل.

*

لقـد كان الإنسـان يعيـش فـي الطبيعـة، يتعايـش معهـا فتتطـوّر قدراتـه ومؤهلاتـه ليتكـوّن أمامـه نمـط عيـش مختلـف بتحدّيـات جديـدة غريبـة عنـه

وما كان قد تصوّرها من قبل. تحدّيات حتّمت عليه مزيداً من التطوير في القدرات والمؤهلات، وهكذا دواليك... كان الإنسان يعيش بتناغم مع الطبيعة، مع قسوتها وطغيانها وكلّ ما فيها. كان يعيش معها بتلقائية مطلقة. لم يكن يفكّر في «أسباب» ظواهرها، كانت كلّها مشاعاً له بلا أية تعقيدات.

غير أنّ نمط الحياة تغيّر، وزاد تعقيده، وكثرت تفاصيله. والذي كان بديهياً تلقائياً أمسى معقّداً ينقصه الوضوح. ودخلت مفاهيم جديدة إلى حياة الإنسان كالملكيّة والسّلطة وكلّ ما يترتّب عليها من تفاصيل وتفاصيل التفاصيل. ومن رحم عجز الإنسان على الإلمام بالتفاصيل والتعقيدات الطارئة والمتزايدة على حياته ومجتمعه، ظهر المنهج السّببي. منهجٌ ظاهره يهدف إلى تحليل الحياة بغية فهمها، غير أن واقعه هو التالي: التركيز على تفاصيل قليلة واضحة وإهمال الغالبية الكاسحة من العوامل اللامتناهية المؤثرة.

والأنماط الاقتصادية المرتكزة على الاستغلال، والتي عرفها ولايزال يعيشها المجتمع البشري، ولد من رحمها المنهج السّببي ليهيمن سلطاناً على المنظومات الفكرية السّائدة، تلك المنظومات التي تعزّز بدورها بالمقابل هذه المنهجية وتسهم في ترسيخها كالأديان مثلاً، وخصوصاً «السماويّة» منها.

إنّ أثر المنهج السّببي على المجتمع الإنساني هائل جدّاً... لقد بُدّد الكثير من الثروات على البحث في مسببات الأمور، مسبّبات

لاتنتهي ولا مجال لتعدادها، فيما العالم بمعظمه يرزح تحت وطأة الفقر والمجاعة والذلّ.

***

السّببيّة ذاتيّة غير موضوعية

إنّ المنهج السّببي منهج ذاتي تماماً غير موضوعي، ومنهج خطّي بسيط سهل الاستيعاب، ولعلّ هذا أحد أوضح العوامل الذّهنية التي أسهمت ولاتزال تسهم في طغيانه على عقولنا.

إنّ «سبب» ظاهرة معيّنة مسألة ذاتية لأقصى الحدود، وتختلف من شخص إلى شخص ممّا يجعل البحث في مسبّبات الأشياء مضيعة للوقت ولا يفضي إلى مكان أبداً. إنّ المنهجية السّببيّة في مقاربة الأحداث وظواهر الحياة مقاربة غير موضوعية ولا تأخذ الطابع الجدلي والعلاقة المترابطة الاعتمادية بين جميع عناصر الوجود. تأخذ في الاعتبار المسائل الواضحة، وتهمل الكمّ الساحق من العوامل الأخرى غير الظاهرة. هي بنت الفكر، تنتمي إليه، وليس الوعي الموضوعي المجرّد، وسنبحث في ذلك في فصل لاحق في هذا الكتاب.

والمنهج السّببيّ دائماً ما يتبع مساراً خطّياً بسيطاً للزمن، كرونولوجيا. في الواقع، إنّ المسار الخطّي للزمن هو تعبير بسيط عن مروره، إنّما لا يعبّر عن حقيقته أبداً. ثمّ إنّ مرور الزمن بدوره هو جزء من العوامل المؤثّرة في حدث معيّن، ونحن دائماً ما نهمل ذلك لأنه

مســألة بديهيــة فــي نظرنــا. فالمقاربــة الخطّيــة للزمــن تجعــل مــن الســابق مرحلــة مضــت، وليــس جــزءاً مــن الحاضــر.

- الزّمن في الواقع كرويّ كرويّ...

*

كنت في نقاش مع أحد أصدقائي. كان يحاول أن يثبت لي صحّة المنهج السّببيّ وبساطته... دفع كوباً من يده إلى الأرض وانكسر. كان يفكرّ في أنّ «السبب» في كسر الكوب هو قوة يده التي دفعته إلى الأرض؛ وكنت أفكّر أيّاً من «الأسباب» أعتمد؟ هل يده التي دفعت الكوب؟ أم أن سعيه لدعم السّببية هو الذي كسره؟ أم أنّ حدثاً معيّناً بل عدداً لامتناهياً من الأحداث التي نجهلها في طفولته أسهمت في تكوين شخصيته على هذا النحو العصبيّ الذي جعله يثبت نقطته بهذه الطريقة؟ أم واقع أنّه ولد في لبنان وحصل لي شرف لقائه مثلاً؟ أو 11 أيلول 2001 التي ذهبت معها فرصة عمل كان قد تقدّم بطلب للحصول عليها ليذهب إلى الولايات المتّحدة الأميركية نهائياً فلا يحصل لي شرف لقائه، أم ، أم، أم... في الواقع إنّ كل نبض في الكون يؤثّر في كلّ نبض آخر، مرتبط به متفاعل معه.

***

غرق في التفاصيل

إنّ المنهــج السّــببي، كمــا أســلفنا، منهــج يرتكــز علــى التفاصيــل، بالأحــرى علــى القليــل مــن التفاصيــل، علــى حســاب المنظــور الجدلــي

الوحـدوي للوجـود. يرتكـز علـى القليـل مـن التفاصيـل ضمـن وجـود لا نهايـة لتفاصيلـه، ولا سـبيل لتعدادهـا. وإذ نحـن متدرّبـون علـى اعتمـاد هـذا المنهـج، فإنّنـا نعتمـده فـي كلّ شـيء، حتّـى فـي توقعاتنـا للمسـتقبل الإيجابيـة منهـا والسـلبية، فـي مخاوفنـا وفـي أحزاننـا. إنّ التفاصيـل كثيـرة، كثيـرة جـداً لدرجـة أنّنـا دائمـاً، أقـول دائمـاً، مـا سـنجد فيهـا مـا يغـذّي توقعاتنـا ويؤكّـد مخاوفنـا ويعـزّز أحزاننـا، والأمـر ينطبـق تمامـاً حتّـى علـى اضطرابـات العقـل وأثـر المنهـج السّـببي فـي تعزيزهـا.

***

سيناريوهات لامتناهية

إنطلاقاً من أن السّببيّة منهج ذاتي تماماً غير موضوعيّ، فمن الطبيعي أنّه عندما نستخدم المنهج السّببي، ونحن دائماً ما نفعل ذلك في مقاربتنا للأمور، فإنّ السّببية ستتيح لنا دائماً كمّاً هائلاً لامتناهياً من التفسيرات لظاهرة معيّنة، كمّاً هائلاً من السيناريوهات، والأهمّ أنها جميعها تنطبق. غير أنّنا غالباً ما نعتمد أحدها وغالباً ما نتعصّب للتفسير أو للسيناريو الذي اخترناه. إنّ جميع التفسيرات تنطبق لأنها تنطلق من منهج سببيّ ذاتي وتتبع مساراً خطّياً بسيطاً يفتقر إلى الشمول والاعتمادية المتبادلة لجميع عناصر الوجود. إنّ جميع هذه التفسيرات والسيناريوهات التي نختارها بخيار ذاتي انطلاقاً من ذاتنا، ومن منظورنا الخاص ونعتمدها بإخلاص ونتعصّب لها إنّما تجمعها صفة مشتركة: بعدها عن الحقيقة، بالتالي بعدها عن الواقع الموضوعي

ضمن الوجود الموحّد الذي يعبّر عن تلك العلاقة الاعتمادية والترابط بين سائر مكوّناته وعناصره...

السّببية ستتيح لنا دائماً كمّاً هائلاً لامتناهياً من التفسيرات لظاهرة معيّنة، كمّاً هائلاً من السيناريوهات، واعتماد أيّ منها دائماً ما يوحي لنا بأننا نعرف، بأنّنا متمكّنون من الحقيقة مالكون لها. فكلّما قلّ اطّلاع شخص ما زاد منسوب تعصّبه وشعوره بأنّه «يعرف». والعكس صحيح، فإنّه كلّما اطّلع الشخص أكثر وزادت معرفته، زاد تواضعه. في الواقع إنّ سعة الاطّلاع تظهر لنا كم أنّنا لا نعرف، وكلّما عرفنا أكثر، زاد تواضعنا أمام الواقع. غير أنّ المنهج السّببي الذّاتي، العاجز تماماً من أن يلحظ الطابع الشمولي المترابط والجدليّ للوجود، وبالتالي الطابع الشّمولي للمعرفة والفهم المتمخّضين عنه، إنّما يجعلنا نبحث في تدعيم نظرتنا أكثر ومحاولة تأكيدها، بما معناه عدم مضاعفة معرفتنا وشموليّة اطلاعنا... مع الأسف، نحن متدرّبون كثيراً على المنهج السّببي لآلاف السّنين، وكل المنظومة الفكريّة السائدة إنما المنهج السّببي أساس لها...

قد يبدو الأمر مسألة عادية طبيعية وغير ذات شأن، وقد يبدو للوهلة الأولى أن أثر المقاربة السّببية الذاتية صغير وغير واضح بمكان... لكن فلنتمعّن بأمثلة معيّنة ستظهر لنا كم أنّ ابتعاد معرفتنا عن الواقع الموضوعي المجرّد من خلال المنهج السّببي سيرتّب آثاراً كبيرة، أحياناً مدمّرة وكثيراً ما تكون غير متوقّعة. كيف أنّ الذّاتية

واعتماد التعصّب لفكرة معيّنة وتفسير معيّن إزاء استحالة الإلمام بالكمّ الهائل من التفاصيل يجعل منّا عرضة للكوارث. وهذا ليس دعوة لزيادة الاطّلاع والسّعة المعرفية، بل لتغيير المنهج المعرفي المتّبع، المنهج السّببي. ففي ظلّ السّببية، التي ترتكز على التفاصيل، يصبح الوصول إلى تفسير وفهم صحيح مستحيلاً طالما أنّه من المستحيل الإلمام بجميع التفاصيل الموجودة. إذن المطلوب هو منهج معرفي يتناسب مع طبيعة الوجود، منهج وفهم جدلي يلحظ الطابع الوحدوي للوجود والاعتمادية التي تسود عناصره جميعها.

*

أحد معارفي شخصٌ من أولئك الذين يفسّرون سائر مظاهر الحياة تفسيراً ذاتياً سببياً. تجده دائم التحليل في الأسباب، يغوص فيها حتّى النخاع في سعيه لتفسير ظاهرة معيّنة. وهو بذلك إنّما يسعى فقط لتأكيد فهم معدّ سلفاً في فكره، يتعصّب له ويسعى لتأكيده من خلال السّببيّة والمنهج المعرفي الخطّي. وتجد ذلك ينطبق على سائر الأمور المرتبطة بحياته من العمل، إلى الاجتماعيات، وصولاً إلى الأمور المتعلّقة بالصحّة...

من البديهي مثلاً أنّ هذا الشّخص، فلنسمّه هنا «عارف»، يكره القراءة التي من الأرجح أنّها ستفتح آفاقاً هو في لاوعيه يخاف منها كونها قد تهزّ قناعاته الراسخة، فضلاً عن أنّها ستظهر له كم من الأمور والتفاصيل هناك، تفاصيل لا يعرفها، والأسوأ، أن لا سبيل للإلمام بها أبداً...

عارف دأب على المنهج السّببي، يفسّر كلّ ما يواجهه انطلاقاً من قناعاته الراسخة. بطبيعة الحال، وبالنظر إلى الوفرة الهائلة من التفاصيل، فإنّ كلّ تفصيل أو مظهر من مظاهر الحياة كان يؤكّد له قناعاته يوماً بعد يوم. (يا للعجب!!!) وكلّما زاد تفصيلٌ قل تواضعه، واتجهت نبرته وأسلوب حديثه باتجاه الحسم الفكري التام، أسلوب يجعل المستمع يشعر بأنّ كلّ ما يقوله حقيقة، اليقين عينه...

كان عارف يبتعد عن الواقع الموضوعي يوماً بعد يوم. كان الواقع الفكري الذي يعيشه على المستوى اليومي أساساً لمظاهر حياته كافة، ليشمل بذلك أسلوب الحياة والغذاء ومقاربته للصحّة الشخصية والأمراض وما إلى هنالك. ويوماً بعد يوم تضاعفت «الفجوة بين ما يعرفه، وما يظنّ أنه يعرفه»، و«من هذه الفجوة تولّدت»(*) الكارثة... أصيب بمرض نادر جدّاً...

إنّك لتجد العديد من الأمثلة التي تشبه بطل أقصوصتنا عارف؛ أشخاص وعائلات تتراكم لديها المصائب الاستثنائية جدّاً، وذلك إنّما هو نتاج هذا التعصّب الفكري، الحسم الفكري المرتكز على فهم خطّي سببيّ بسيط. والأسوأ هو أنّ هذه الكوارث الاستثنائية في غالب

(*) نسيم نيكولاس طالب في كتابه «البجعة السّوداء» أن يضع هذه الفكرة، ولكن في سياق مختلف، تحت مسمّى «الغطرسة المعرفيّة» (Epistemic Arrogance)، بحيث أن البجعة السّوداء، أو الحالة التي تعتبر بعيدة الاحتمال، إنّما تتكوّن في تلك الفجوة المعرفيّة بين ما نظن أننا نعرفه وما نعرفه في الواقع.

الأحيـان لا تحفّـز ضحاياهـا علـى انتهـاج منهـج ذهنـي مختلـف، منهـج جدلـي ومتواضـع، إنّمـا تولـد مقاربـة غريبـة جـداً مـن قبـل الشـخص نفسـه والمجتمـع المحيـط علـى السـواء. إنّ هـذه الأحـداث الاسـتثنائية كثيـراً مـا تعـزّز القناعـات الراسـخة نفسـها وتدعّمهـا، تولّـد أحكامـاً مقلوبـة مـن مثـل: «مـا زالـوا أقويـاء رغـم كلّ مـا حصـل معهـم!» أو مثـل: «إنّ التجـارب والكـوارث صقلتهـم وزادت مـن قوّتهـم وصلابتهـم!» غيـر أن الواقـع هـو أنّـه لـم يتغيّـر شـيء... المنهـج الفكـري هـو هـو، والقناعـات هـي هـي، والكـوارث المتلاحقـة هـي هـي... وفـي أحيـان كثيـرة تكـون فكـرة أنّ اللـه يختبرهـم هـي أفضـل عـزاء ممكـن يلجـأون إليـه...

لكن في جميع الأحوال، لا يجوز أن نعمّم العكس. بمعنى أنّ الأحداث الاستثنائية من الممكن أن تحصل أيضاً مع الأشخاص اللاعصبويين تجاه أفكارهم وقناعاتهم، وأولئك الذين لا يتبّعون منهجاً ذهنياً خطّياً سببياً جامداً، وإن كان بنسبٍ أقلّ...

*

نحن بلاوعينا ننشدّ تلقائياً إلى تأكيد قناعاتنا الرّاسخة والتعصّب لها، وبالتالي فإن جميع منطلقاتنا الفكرية ليست وليدة المجرّد والموضوعي ولا وليدة التوق إلى المعرفة، بل نتاج قناعات راسخة لدينا أصلاً نسعى إلى تأكيدها. كما سنرى لاحقاً في بحثنا في الفكر والوعي، فإنّ سلطة فكرنا على ذاته معدومة تماماً بينما العكس هو الصّحيح بالنسبة إلى الوعي الموضوعي المجرّد. نتعصّب لقناعاتنا

ودائماً ما نسعى فقط إلى تأكيدها بحيث إننا نسعى إلى أن نسمع ما نريد أن نسمعه، ما نحن مقتنعون به أصلاً. والإنسان المتعصّب لفكره، سواء سياسيّاً أو نفسيّاً أو اجتماعيّاً أو ثقافيّاً، إنما هو متعصّب لمنظومة فكرية مبنيّة على مجموعة ضيّقة من التفاصيل، بحيث أنّها كلّما ضاقت، زاد شعوره بالأمان إزاءها بفعل قدرته على الإلمام بها والتمكّن منها، وازدادت بالتالي شراسته وعصبيته في الدفاع عن قناعاته ومنطلقاته بالاستناد إلى هذه المنظومة الفكرية. يشعر بأن اهتزاز أي ركن من أركانها سيدمّرها تماماً، فيسعى دوماً إلى تأكيدها، وهو دائماً ما سيجد السّبيل إلى ذلك بفعل توافر كمّ هائل من التفاصيل في الوجود، دائماً ما سيقدر على تأكيد قناعاته.

إنّ التطوّر المعرفي إنّما يتطلّب منّا فكراً منفتحاً مرناً، يأخذ في الاعتبار دوماً احتمال أن تكون بعض قناعاتنا، وأحياناً الكثير منها، أو حتى جميعها، قناعات خاطئة. إنّ مدى المرونة والانفتاح على جميع الاحتمالات والقدرة والجهوزية لاحتواء أشكال النقض كافة للقناعات والمنطلقات الفكرية التي لدينا هي معيار إمكانيتنا على التطوّر...

*

إذ أكتب هـذه السطور، يبلغ الاحتقان السياسي أوجـه في لبنان. إنّـك لترى ملامح هذا الاحتقان في وجـوه سائر جهابذة السياسة اللبنانية وأصـواتـهـم وخطاباتهم وتصريحاتهم، وذلـك فـي جميع وسـائـل الإعـلام المحلّية المرئية والمسموعة والمكتوبة. كـلّ هـذا إنّما يجعل الاطـلاع

على جميع وسائل الإعلام هذه مضيعة تامة للوقت والطاقة، وتشويشاً وتلويثاً للذهن وللمعرفة. وإذ تنقّل بين محطّات التلفزة المحلّية، كثيراً ما تجد ضيفين في حلقة حوارية سياسية يقومان بمناظرة يستعرضان فيها الحجج. وإذا كنت محايداً، فإنّ ما سيلفتك حتماً هو حجم الإقناع الذي تتّسم به طروحات كلّ من الطرفين. بالطبع إذا لم تكن محايداً تماماً، فإنّ فرصة أن تلاحظ هذا الأمر ضئيلة جداً. فإذا كنت منحازاً لأي من الطرفين، فإنّ فكرك سيعمد إلى تأكيد قناعاتك الراسخة أصلاً، فتتبنّى تلقائياً وبعصبوية شديدة الطرح الذي يناسب قناعاتك ومنطلقاتك الفكرية والسياسية. إذن، فإن مطلق مشاهد محايد لمناظرة سياسية تلفزيونية، خصوصاً إذا كان المتناظران على مستوى عال ومتكافئ، ستبدو له الطروحات الفكرية لكلا الطرفين منطقية تماماً.

في الواقع، إنّ المنهجية التي ينطلق منها الطّرحان المتناقضان، أي المنهجية السّببية الذاتية التي ترتكز على التفاصيل، ستجعل أمام كلّ من الطرفين وفرة عظيمةً في التفاصيل. وفرةً ستتيح لكلّ من الطرفين وانطلاقاً من قناعاته الراسخة أصلاً، القدرة على الإتيان بالحجج التي ستؤكّد وتدعّم كلامه وطروحاته، وستتيح له إمكانية سرديّة بالحجج والتحليلات المطلوبة التي دائماً ما ستنجح في أن تنطبق، والأسوأ أنها ستبدو منطقية تماماً خصوصاً للمشاهدين الذين يتشارك معهم المنطلقات الفكرية والعصبوية السياسية نفسها. والمشاهد المنحاز، وكذلك انطلاقاً من قناعاته وفي خضم سعيه الفكري إلى تأكيدها،

سيزداد تعصّباً لقناعاته. فالاحتقان الذي يظهّره النقاش المتلفز إنّما ينسحب أيضاً على الجماهير التي تسعى أطراف النقاش إلى تجييشها. نقاش لا طائل منه، ولن ينتهي باقتناع أحد الطرفين برأي الآخر، إنّما سيبقى الاحتقان هو هو بل سيزيد إلى حدّ قد يصبح معه التوتّر وحتى العنف مسألة حتميّة لا مفرّ منها...

في الظاهر، هناك طرحان متناقضان مدعّمان بالحجج المطلوبة التي دائماً ما ستبدو محقّة تماماً. ومتانة كلّ من الطرحين لا ترتكز على اشتمال الطّرح على أكبر كمّ ممكن من التفاصيل والتعقيدات بشكل يجعله يقترب من الكمّ الهائل من التفاصيل والتعقيدات الموجودة في الواقع والتي لا سبيل لا لحصرها ولا للاقتراب منها. إنّما متانة الطرح ومدى رسوخه في العقل الجماعي الذي ينطلق منه ويدّعي تمثيله هذا الطرح إنّما تكمن في مدى ذاتيّته واشتماله على أقل كمّ ممكن من التفاصيل الخطّية المتسلسلة والمتراصة التي تخلق قالباً فكرياً سياسياً متيناً، تفاصيل قليلة كلّها تنبع من منطلقات سياسية فكرية معيّنة.

ذاك في الظاهر، أمّا في الواقع الموضوعي، فإنّ كلا الطرحين المتخاصمين إنّما يعبّران عن مصالح فئة مسيطرة، فئة تستعمل هذا الاستقطاب العصبويّ للتعمية على الاستغلال الذي تمارسه، ولحماية مصالحها ونفوذها ومكتسباتها.

*

وعلى ذكر هذا الموضوع، فإنّ الأحزاب، جميع الأحزاب

والعصبويات، إنّما تبنى على هذه التفاصيل الخطّية الذاتية. وكلّما ضاقت التفاصيل وتمتنت في قالب ضيّق متراصٍّ قليل التفاصيل، زاد منسوب العصبوية والتنظيم لدى الحزب، وزادت قدرته على التجييش، وحتى على الوصول إلى السّلطة بشكلٍ موقّت.

بالمقابل، فإنّ قدرة هذا الحزب على إحداث تغيير حقيقي في الواقع الموضوعي السائد دائماً ما ستكون معدومة مع عدم قدرة العقيدة المبنية على جانب ذاتي ضئيل بتفاصيل قليلة ينقصها الشّمول والموضوعية على الإلمام بواقع لا نهاية لتفاصيله ولا سبيل لحصرها. ولعلّ السّرعة والقوّة الهائلة التي وصل بها النازيون إلى السّلطة في ألمانيا، وكذلك السّرعة التي سقطت فيها النازية هي أفضل مثال يمكن أن يعطى في هذا الإطار. حتى أن هتلر قد شدّد في كتابه الشهير «كفاحي» على ضرورة أن يصطبغ الخطاب السياسي للحركة السياسية الناجحة بطابع عاطفي وأفكار مباشرة بسيطة وتفاصيل قليلة ممنهجة وموجّهة. أن يكون خطاباً يدغدغ مشاعر عامة الناس وليس موجّهاً للسياسيين والصحافيين والأساتذة والمفكّرين.

إنّ الواقع أعقد بكثير مما نعتقد، أعقد وأكبر من أن تشتمل عليه عقيدة أو فكر مبني على شذرات من عالم كبير لا نهاية لتفاصيله.

***

أمراض... ولا علاج

لا عجب في أنّ جميع الأمراض المستعصية التي نعرفها اليوم

لاتـزال بـلا عـلاج. فمنطـق السـببيّة حتّـم ضـرورة البحـث عـن المسـببات لشـتى الأمـراض المسـتعصية، والـذي يفضـي بالتالـي إلـى دوامـة وحلقـة مفرغـة لا طائـل منهـا، ولا خـروج منهـا عبـر المنطـق نفسـه. فالمنطـق السّـببي الخطّـي جعـل يغـوص فـي التفاصيـل وتفاصيـل التفاصيـل التـي لا تنتهـي أبـداً علـى حسـاب المنظـور الموضوعـي العـام الجدلـي ضمـن وحـدة الوجـود بجميـع عناصـره. وهـا نحـن اليـوم علـى بعـد أكثـر مـن عقـد علـى اكتشـاف الخريطـة الجينيـة، نـرى بعـض العلمـاء يقولـون بـأن توقّـع الأمـراض مـن خـلال الجينـات لـم يحـدث قفـزة نوعيّـة مقارنـة بأسـاليب التوقّـع التـي كانـت تسـتخدم فـي السـابق كتاريـخ العائلـة المرضـي، وأسـلوب الحيـاة، والعوامـل الأخـرى، موضـوع نشـر فـي عـددٍ مـن الصحـف والمجـلات العالميـة العامـة والمختصّـة...

إن السببيّة، حتى ولو أوجدت علاجات، فهي تعزز تناقض المرض مع الجسد، وتؤسس لأشكال أخرى من المرض نفسه أكثر مناعة ضدّ العلاجات، أو لأمراض جديدة أقوى، وتستمرّ الدوامة التي لا تخدم أللهمّ إلا أصحاب الشركات المنتجة للعقَارات والأدويـة. إنّ جلّ ما تفعله الصناعة الدوائية العلاجية والمرتكزة على السببيّة بشكل أساسي هو تدريب الأمراض والبكتيريات والخلايا الخبيثة وتعليمها بحيث لن يعود جهاز مناعتنا يقوى عليها في المستقبل. ثم إن الأدويـة المستعملة في العلاجات، وخصوصاً بما يخص الأمـراض المزمنة وما عصى منها على الشفاء، تجدها تتناقض في تكوينها مع وحدة مكونات

الوجود وتكاملها والعلاقة الجدلية فيما بينها. فجميع الأدوية تتكون من خلاصات اجتزئت من كلّ متكامل في الوجود، فلا عجب أن دورها وفعاليتها العلاجية على المدى الطويل ضعيفة. كثيراً ما نسمع عن أطعمة لها فوائد علاجية لمرض ما كالعديد من أنواع الفواكه والخضار. وسرعان ما يقول المنطق السببيّ الضئيل إنّ «سبب» ذلك هو وجود المادة الفلانية في ذلك النوع من الفاكهة مثلاً. ثم تبدأ عملية استخراج وتحضير أدوية وعقاقير مضادة للمرض من خلاصات هذه المادة المستخرجة من الفاكهة تلك على سبيل المثال، فتجزّأ مكوناتها. ثم لاحقاً ما تظهر أن فعالية هذا العقّار أقل بكثير مما كان متوقعاً... في الواقع، إن جلّ ما قامت به هذه العملية هو تجزئة المكونات الطبيعية للفاكهة تلك، والتي كانت فعاليتها الوقائية هي جزء من تركيبتها الطبيعية مع المكونات الأخرى وبالنسبة الضرورية المطلوبة. بينما تجزئة مكوناتها إنما هو عبارة عن تعزيز للتناقض البنيوي مع الطبيعة، فضلاً عن أنّه يدرّب المرض بجرعات كبيرة عوضاً عن تدريب وتطوير جهاز المناعة.

لا ريب أن الحل ليس في هذا! وفي وقت يحتاج هذا الموضوع إلى الكثير من الأبحاث والتجارب، غير أن إيجاد علاجات للأمراض المستعصية لا بد أن يرتكز على مفهوم أساسي: «وحدة عناصر الوجود»، وحدة الوجود ذاته، وعدم تقسيط مكوناته وتقسيمها بين مسبّبات ونتائج. ربما من خلال الاستفادة من قوة المرض للتغلب

عليه عوض تعزيز التناقض بين المرض والجسم يكون العلاج، أو من خلال إعادة هيكلة الجسم وجهازه المناعي... إن الكثير من الأطعمة المصنعة والمواد التي نستعملها في حياتنا اليومية لا شك تعزّز التناقض بين الجسد والأمراض، وبالتالي فإن العودة إلى الطبيعة، وإعادة الاعتبار للّحمة الطبيعية بين الإنسان والأرض من حيث أن جسده جزء لا يتجزأ منها، قادر تماماً على وقاية الإنسان من شتى الأمراض، وحتى العلاج منها. لا شيء في الطبيعة لا يصحّح...

***

السّببيّة وعلاجات اضطرابات العقل

لقد أسهم منطق السببيّة وهيمنته على الفكر الإنساني لمئات القرون في إرساء نوع من الخمول والإذعـان للواقع المرئي أو المحسوس، وأضعف الإيمان بالذات وبالقدرة على التغيير الشامل الذي يحتاج للإرادة القويّة التي لا تتماشى مع التسليم لمشيئات الحاضر، أو الخالق المفترض. كما وأن سيطرة المنهج الذهني السببيّ أسهمت في تعزيز الاضطرابات الذهنية، اضطرابات العقل، كالقلق والإحباط المزمن وغيرها، وأضعف من القدرة على تخطيها وأفسحت في المجال أمام استخدام الأدويـة والعقاقير كحلّ مفترض لهذه الاضطرابات، وبالتالي في مراكمة رؤوس الأمـوال لدى غير مستحقيها ممن يستغلون آلام البشر ومعاناتهم. فالمنهج السّببي الذي، كما أسلفنا، يرتكز على التفاصيل ضمن وجود لا نهاية لتفاصيله، يجعلنا أمام كمّ هائل من المعطيات

التي تعزّز أوهامنا ومخاوفنا وأحزاننا، تعزّزها بشكل قاطع لا يقبل الشّك. نحن نميل دائماً إلى إثبات أفكارنا، إلى البحث عمّا يعزّزها وليس ما ينقضها. لقد دأبنا على التدرّب على ذلك لمئات القرون، ووسط لا نهائية التفاصيل في الوجود، فنحن دائماً أمام وسعة هائلة من الأسباب والتفاصيل التي تجعل من أفكارنا تظهر كواقع غير قابل للشّك أبداً. ثم إنّ منهج السببيّة عينه يركّز فكر الإنسان على المسببات التي أدت إلى اضطراب ذهني أو نفسي، وذلك على حساب التفكير والعمل على تخطي هذا الاضطراب، وكأنه ليس للمرء عقل أو إدراك حتى يتخطى الأفكار السلبيّة. فترى من يعاني مع اكتئاب وإحباط مزمن مستسلماً إزاء حدث معيّن أو مجموعة أحداث تجسد واقعاً معيناً يعتقد أنها أدت به إلى حاله التي يعتقد بأنها مزرية. وذلك عوضاً عن العمل على تخطي هذا الأمر. أو تجده مستسلماً إزاء فرضية تقول باضطراب في كيميائيات دماغه أدت إلى «مرض نفسي» معين، وبالتالي الذهاب في ديباجة علاجية من خلال الأدوية لعلاج هذا الاضطراب المفترض. إن البحث والتركيز على مسببات الأمور وإغفال وحدة جميع مكونات الوجود المتناقضة وتوازنها قلّلت من احتمال تخطي المصاعب، فأصبح البحث وعلاج المسببات هو المسلك المعتمد، وليس في ذلك صواب. وهذا المنطق – أي منهج السببيّة - الهدّام جعل الإنسان بعيداً عن إيمانه وإحساسه بأنه جزء من كون واحد موحّد...

***

السّببية والنظريات العلميّة

تقرأ في الكتب العلميّة، وإذ تطالع النظريات وكيف تصاغ، وإذا كنت في وضع ذهني متفتح وتنطلق من منهجية تشكيكيّة، فحتماً إنّ أول انطباع سيتكوّن لديك هو أن سائر النظريات إنّما تصاغ عبر تدوير الزوايا وإغلاق المنافذ والثغرات والتحصين بما ينسجم مع المنطلقات الفكرية التي ينطلق العالِم منها. إنّ كلّ ظاهرة جديدة أو طارئة إنما يجري تفسيرها بالاستناد إلى هذه المنطلقات الفكرية والنظرية، من خلال ممارسات أكثر ما تشبه الإفتاء، وإذا احتاج الأمر فإنّ بعض العناصر و التعديلات تتمّ إضافتها حتى تحصَّن النظرية في وجه كلّ خطر قد يحدق بها، بغض النظر عن المسعى الأساسي المفترض: «معرفة الحقيقة»... يجري تحصين النظريات في وجه كلّ خطر معروف، لكن ماذا عن غير المعروف؟ ماذا عن المجهول؟ إنّه لمن ذلك «المجهول» دائماً ما يأتي ما سينقض كلّ نظرية مرتكزة على السّببية عاجلاً أم آجلاً...

إنّ البحث العلمي في عالمنا، والذي يرتكز بمعظمه على المنهج الذهني السّببي، إنّما يشي بأنّ الحقيقة العلميّة الوحيدة حتى الآن هي أن لا شيء نهائياً بشكل قاطع. وفي وقت قد يبدو بأنّ إثبات نظرية معيّنة وتأكيدها من خلال الاختبارات ما هو إلا تأكيد لصحّتها، غير أنه في الواقع فإنّ احتمالية نقضها هي التي تزيد مع كلّ تأكيد، ومع كلّ اختبار جديد يؤكّد صحّة النظرية. بمعنى آخر، إنّ إثبات أو تأكيد نظرية معينة، والغالبية الساحقة من الأبحاث والنظريات العلميّة ترتكز على

منهج ذهني سببيّ، لا يؤكدها إنما يستنزف من فرص استمرارها كنظرية «صحيحة»... إنّ الوجود هائل التعقيدات والتفاصيل كما سبق وذكرنا، ولا سبيل لفهمه وتفسيره من خلال منهج سببيّ مرتكز على التفاصيل.

ما ذكرناه فيما سبق عن السّببية إنما ينسحب على سائر المجالات العلميّة، على الفيزياء مثلاً... فإذا كان لدينا منطلق فكريّ معيّن، وأذا كنّا نتبع منهجاً ذهنيّاً سببيّاً خطيّاً، فإننا دائماً ما سنجد التفاصيل والأساليب التي تدعّم هذه المنطلقات وتؤكدها. وفي مجال الفيزياء، خصوصاً في المجال الذي يسمّى بما دون الذرّي، فإن الأمور تصبح أكثر وضوحاً. فإن هذا المجال بغالبيته إنّما هو مبني على معاينة مظاهر الوجود الكلّية (Macro)، والتكهّن بما يمكن أن تكون عليه الجزئيات المكوّنة لها. فعلى سبيل المثال، ما من وسيلة لرؤية ذرّة ولا الجزيئات المكونة لها، وبالتالي فإن سائر النظريات حول الذرّة هي محض فرضيات «أكّدتها» التجارب. وانطلاقاً مما سبق حول المنهج السببيّ الخطي، فإننا دائماً ما سنجد تأكيداً على المنطلقات الفكرية التي لدينا في وجود هائل التفاصيل. طبعاً أنا هنا لست في معرض التشكيك بالمنجزات العلميّة، ولا بسائر النظريات العلميّة، وما أنا بمخوّل القيام بذلك، إنما يأتي هذا في سياق نقد المنهج الذهني السائد.

ولعلّ مبدأ التكاملية (Complimentarity) الذي يشكل أساساً من الأساسات النظرية للفيزياء الكمّية، وموضوعة «إزدواجية الموجة – الجسيم» (Wave-particle duality) هو المثال الأفضل الذي يمكن

أن يذكر ضمن هذا السياق. فبشكل أو بآخر، ومن خلال الاختبار، بإمكاننا إثبات أن الضوء هو عبارة عن جسيمات، أو أنّه عبارة عن موجات، وذلك بحسب الفرضية العلمية التي ننطلق منها. بمعنى أنّه إذا أردنا أن نثبت من خلال التجربة أنّ الضوء هو عبارة عن جسيمات، فإننا سننجح بذلك تماماً، والعكس صحيح إذا أردنا أن نثبت أنّ الضوء هو عبارة عن موجات، بشكل أن الاتجاه الأوّل لا يمكن أن ينقض الاتجاه الثاني، والعكس صحيح أيضاً. لقد احتوت الفيزياء الكمّية هذا التباين من خلال مبدأ التكاملية، وفي النهاية، فإنّ الفيزياء الكمّية هي علمٌ يقول بأن الواقع ذاتي غير موضوعي (Subjective Reality).

***

سبب أم علّة؟

عندما نرفض المنهج السّببي، فإنّ السّببيّة التي نتحدّث عنها هي تلك التي ترتبط بتفسير مظاهر الحياة وفهم الوجود. فلنسمّ المنهج الذي نرفضه السّببيّة «Causation» من «Cause»، وهي تختلف عن العلّة إذا صحّ التعبير، «The Reason»، التي ترتبط أكثر بالأنشطة الذهنية والمنطق، وتحديداً بعلاقة الوعي الجدليّة بالوجود، تلك العلاقة التي يتطوّر الوعي انطلاقاً منها معرفيّاً وقدراتيّاً.

فالسّببية كما أسلفنا، منهج ذهني خطّي، ذاتي غير موضوعي وغير مجرّد. وفيما ندّعي من خلال المنهج السّببي أنّنا نهدف إلى فهم الوجود وتفسيره، غير أنّنا نقوم بذلك كما ذكرنا سابقاً آخذين في

الاعتبـار القليـل القليـل مـن العوامـل الواضحـة والذاتيـة تمامـاً، وذلـك مـن كـمّ هائـل لا نهايـة لـه مـن العوامـل المؤثّـرة وسـط علاقـة مـن الاعتماديـة المتبادلـة والترابـط بيـن جميـع مكوّنـات الوجـود. تخيّـل أنّـه إزاء تفسـير ظاهـرة معيّنـة فـي الوجـود قـد تظهـر أمامـك عـدّة تفسـيرات مختلفـة، كلّهـا تبـدو «منطقيـة» وكلّهـا تنطبـق؛ السـببيّة منهـج ذاتـي غيـر موضوعـي... ثـمّ إنّ المنهـج السّـببي دائمـاً مـا يفصـل بيـن عناصـر الوجـود الواحـد، سـبب ونتيجـة، خالـق ومخلـوق، وذلـك فـوق مسـار زمنـي خطّـي تمامـاً. بالمقابـل، فـإنّ العلّـة «The Reason» إنّمـا ترتبـط أكثـر بعلاقـة العقـل الفـردي مـع واقـع معيّـن، علاقـة جدليّـة شـأن جميـع العلاقـات فـي الوجـود سـتنتج واقعـاً جديـداً يكـون الواقـع السـابق لـه هـو جـزء منـه، جـزء مـن تاريخـه...

*

كنت أجري مقابلة عمل بعد أن تقدّمت لإحدى الوظائف. كانت المقابلة طويلة مملّة، ومشبعةً بالأسئلة الممنهجة المنظّمة. وفي منتصف المقابلة ووجهت بسؤال مفاجئ، سؤال توقّفت لفترة غير قليلة قبل الإجابة عليه. أجبت على السّؤال غير أنّني لم أكن راضياً عن إجابتي...

فـي طريـق عودتـي كنـت أفكّـر بالّـذي حصـل معـي. «لمـاذا» توقّفـت كثيـراً قبـل الإجابـة علـى هـذا السّـؤال؟ و«لمـاذا» كانـت إجابتـي علـى هـذا النحـو غيـر المقنـع لـي؟ كان هـذا نشـاطاً ذهنيـاً بحتـاً، و«لمـاذا» هنـا إنّمـا كانـت تهـدف إلـى فهـم كيفيّـة حصـول أمـر معيّـن وليـس تفسـير ظواهـر فـي

الوجـود والبحـث فـي «أسـبابها». نشـاط ذهنـي لتحليـل وفهـم علاقـة وعيـي فـي تلـك اللحظـة بالواقـع، الأمـر الـذي مـن شـأنه إنتـاج واقـع جديـد يكـون فيـه الواقـع القديـم جـزءاً منـه. بمعنـى آخـر: لقـد توصّلـت إلـى أن ذلـك حصـل معـي لأنّنـي كنـت غيـر حاضـر ذهنيّـاً، وكنـت أيضـاً أحـاول أن أجيـب الشـخص الـذي يجـري المقابلـة معـي مـا كنـت أظـنّ أنّـه يريـد أن يسـمعه وليـس مـا كنـت فعـلاً أظنّـه أو أفكّـر بـه. لقـد خلـق هـذا الفهـم واقعـاً جديـداً، درسـاً وخبـرة جديـدة ظلـت حاضـرة معـي فـي المسـتقبل فـي المقابـلات التاليـة التـي أجريتهـا. بمعنـى أنّ العلاقـة الجدليـة بيـن ذهنـي والواقـع القديـم تمخّـض عنهـا فهـم جديـد ومنطـق جديـد فـي مقاربتـي لأمـور مشـابهة، فهـم يسـتند إلـى تجربـة سـابقة أمسـت وسـتبقى دومـاً جـزءاً مـن تاريخـي الذهنـي...

***

تقف مذهولاً أمام عظمة الكون، ثم ما تلبث أن ترتعش أمام عمق أسراره، تسلّم أمره للمجهول وتعود إلى شؤونك اليومية حيث تفقه ما يجري من حولك، ناسياً أنّك جزء لا يتجزأ من هذا الكون، من هذا الوجود، من هذه الحياة الأزلية... لست تعيش فيها، بل أنت هي، وهي أنت...

******

القطبيّة

اختلفت الفلسفات كما العلوم على موضوعة أساسية فيما خص التكوين، أصل الوجود... فإذا كان هذا موضوعاً خلافيّاً، فلأنه انطلق من نقاش سببيّ أيضاً؛ فالذهن البشري كما أسلفنا مغموس بالسببيّة مطبوع بها... وفيما دأبت الفلسفات الميتافيزيقية والمقاربات اللاإلحادية على تصوير أصل الكون كنتاج إرادة خلق من قبل خالق فوق الطبيعة، عمدت الفلسفات المادية إلى القول بالأصل المادي للوجود. وبالتالي، فإن الفلسفات المادية فرضت المادة كأساس للوجود كما فرض الميتافيزيقيّون فكرة الخالق... السببيّة، عود على بدء... فالمنهج السّببي سيقود حتماً إمّا إلى المادة، وإمّا إلى الله، ذاك النقاش الخطّي القائم على التفاصيل، والذي دائماً ما سيجد كلّ طرف من طرفيه إثباتات وتفاصيل تعزّز نظرته، وهو نقاش أفقي ذاتي كما سنرى لاحقاً.

وحتى الفلسفات الجدلية الكلاسيكية كالماركسية والهيغلية، فإن مقاربتها لـ«بداية» الكون ليست جدليّة تماماً، وكثيرة الارتكاز على فكرة الأساس، السّبب، عوض الارتكاز على مفاهيم جدلية موضوعية مجرّدة. وبذلك أغفلت كل ما هو غير مادي، أو لا يدرك بالحواس

أو الفكـر، لا يـدرك إلا بالوعـي الموضوعـي المجـرّد... إن المجـرّدات والمفاهيـم الموضوعيـة البالغـة الجذريّـة، لحـدّ الصعوبـة الهائلـة فـي توصيفهـا، هـي أيضـاً فـي الوجـود وضمنـه ولا يمكـن إهمالهـا. ولعـل هـذا هـو أحـد أبـرز أوجـه تفـوق الفلسـفات اللاإلحاديـة عبـر التاريـخ، بحيـث عـزت كل مـا يعجـز الفكـر البشـري عـن أن يلحظـه فـي عمليـة فهـم الوجـود وتصـوّر التكويـن إلـى خالـق مفتـرض لا يجـوز السـؤال عنـه أو التشـكيك بـه، بينمـا غـرق الماديّـون بمتاهـات السـببيّة.

*

لقد ألّهت المادية الجدليّة الكلاسيكية المادة، وحوّلت المنهج الجدلي من منهج إلى عقيدة. وإذ يقرأ أي «ماركسي» هذه السطور، ستنتابه رعشة الدفاع والتبرير، والتي هي الدليل الحاسم على ما سبق. إنّ العقيدة وحدها تستوجب دفاعاً بينما المنهج قادر على احتواء أي نقد لأنه ينطلق من فهم صحيح للجدليّة ولحركة التاريخ...

لقد ألّهت المادية الجدلية الكلاسيكية المادّة، وانطلقت منها في تحليل الوجود والمجتمع، وأغفلت المجرّدات والمؤثّرات الطاقوية إلا من خلال اعتبارها نتاجاً لحركة المادة. وفي خضم النقد لجدل هيغل، كان أحد أبرز المآخذ عليه هو مثاليته ومبالغته في التجريد. وعندي إن المأخذ على هيغل كما على ماركس وانغلز... السببيّة، سواء في انطلاقها من المادة أو من خالق مفترض... فمقولة: أصل الكون مادي تعبر عن طرح غير جدلي تماماً، وكذلك أي طرح آخر يبحث في أصل الكون ضمن هذا الإطار الذي ينطلق من السببيّة.

وقوانين الجدل، تلك التي بلورها إنغلز بثلاثة قوانين، وحدة وصراع الأضداد، ونفي النفي، والتراكم الكمي والتحول الكيفي، هي لا ريب تجلّيات لعوامل أكثر جذرية وتجريداً، وما التناقضات إلا نتاج لقطبية رئيسة تحكم الوجود وعناصره وعلاقاته وتناقضاته وتوازناته... القطبيّة والزمن، ضمن وحدة الوجود...

*

والقطبية هي التضاد الخالص، ونحن معتادون على النظر إليه كالموجب والسالب، ولعلّ تضادّ العدم والوجود هو القطبية الرئيسة... الوجود بالتالي هو تلك الحركة التي ترتكز على القطبيّة المجرّدة، تلك العلاقات التي تنزع إلى الرسوخ والتجسّد... إنّ إدراك هذه المفاهيم المجرّدة والعلاقات الجدليّة التي تنطلق من القطبية الخالصة إنّما تُستقى من خلال الوعي الموضوعي المجرّد وسنبحث في ذلك لاحقاً.

*

وانطلاقاً من المنظور الذي يقول بأنّ الوجود المادّي هو تظهير للحركة، تبرز إشكالية محوريّة: هل هنالك من وجود مادّي بمعزل عن إدراكنا أم لا. لقد تناولت الفيزياء الكمّية أو الكوانتيّة (Quantum Physics)(*) هذه الإشكالية وأجابت عن هذا التساؤل إزاء علاقة

(*) في الفيزياء الكمّية (Quantum Physics)، وفي المستوى ما دون الذرّي، فإنّه لا فرق عمليّاً بين المادة والطاقة.

الوجود الماديّ بالإدراك. وبشكل مبسّط وبعيد عن التعقيدات الرّياضية والنظرية التي يغوص بها مجال الفيزياء الكوانتيّة الجذّاب: إنّ الوجود يتجسّد فقط عندما يتمّ اختباره أو معاينته أو يتمّ التفاعل معه...

بغية توضيح هـذه النقطة، فلنحاول الاستعانة بمثال أستحضره مـن طفولتي، إختبار بسيط بإمكاننا القيام بـه فـي حياتنا اليومية... أذكر يوم كنت طفلاً صغيراً، قام أحد أصدقاء عائلتنا بشيء قد كان مذهلاً تماماً بالنسبة إليّ وقتها. كنت أراقبه يحرّك قضيباً أخذه من شجرة الرمّان في حديقتنا في القرية، قضيباً ليّناً جدّاً. كان يقوم بذلك محرّكاً رسغه بسرعة فائقة ليتكوّن شكل مروحة بفعل الحركة السّريعة جدّاً لقضيب الرمّان. وبالطبع، عندما يتوقّف عن تحريك يده، يعود قضيب الرمّان إلى الشّكل الأساسي، فتختفي «المروحة»...

فلنفترض هنا أني لم أر قضيب الرمّان قبل قيام الرّجل بتحريكه؛ فلنفترض أنّي فقط شاهدت المروحة. بالنسبة إليّ كمشاهد لهذه «المروحة»، فإنّها تبدو حقيقية تماماً، غير أنّ هذه «الحقيقة» لا تتجسّد إلا عندما أراها، أي إلا عندما أتفاعل معها. فبمعزل عن هذا التفاعل، أي بمعزل عن وعيي، هناك شيء ما لا أعرفه (هو في الحقيقة قضيب ليّن من شجر الرّمان).

فلنطبّق إذن هـذا الاختبار البسيط على المستوى ما دون الـذرّي، على تلك الجزيئات الطاقوية والعلاقات التي تنزع إلـى التجسّد، فإنّ مـا يحدث فـي ذلـك المستوى هـو شـيء مشابه. بمعنى آخـر، إنّ تلك

الجزيئات التي تتحرّك بسرعة هائلة، تلك العلاقات التي ترتكز على القطبية المجرّدة، إنّما لا تتجسّد إلا حين نراها، أو نحسّ بها... حين تتفاعل معها الحواس.

*

وانطلاقاً من أن القطبيّة هي مرتكز حركة الوجود، يتحتم التخلي عن السّببيّة كمفهوم وكمقاربة لعملية التكوين. ذهننا كما أسلفنا مطبوع ومغموس بالسببيّة لأن هذه الأخيرة هي سمة الحياة التي يمكننا أن نحسّها، غير أن التكوين حتماً يرتكز على عوامل مجرّدة، أبعد مما يمكننا أن ندركه في حياتنا العادية. إنّ عقلنا - الذي قلنا إنّه يخضع تماماً للمنهج الذهني المسيطر اليوم، وهو منهج سببي خطّي غير جدلي ولا يلحظ تلقائياً الوحدة والتفاعل بين جميع مكونات الوجود – لا يقدر على فهم التكوين أبداً، فتراه أرضاً خصبة للإيديولوجيات والمقاربات السّببيّة الخطيّة البسيطة. لذلك، ومن أجل فهم التكوين والوجود، علينا أن ننتهج منهجاً ذهنياً جدلياً مختلفاً تماماً عن المنهج الذي ننتهجه اليوم.

إنّ مجمل النقاش حول التكوين اليوم هو نقاش سببيّ غير جدليّ. خالق أم مادة؟

ووفق المنهجية الذهنية السائدة، فإنّ رؤية التكوين وفهمه ستقودنا دائماً إلى الأساس، الخلق. في كثير من الأحيان نغوص في الجدلية لكن في خبايا ذهننا وتاريخ عقلنا يكمن منهج سببيّ متمكّن منّا تماماً...

ومـع مـرور الزمـن سـيتدرب العقـل الجماعـي البشـري علـى منهجيـة ذهنيـة جدليـة تلحـظ تفاعـل مكوّنـات الوجـود الكلّـي الموحّـد، فيصـل إلـى حالـة نقـدر فيهـا عندهـا أن نفهـم الوجـود والتكويـن بشـكلٍ أفضـل وأوضـح...

******

الزمن

يسود تصور في لاوعينا بأن عملية الخلق قد تمّت في وقت قصير، وهذا التصور إنما ينطلق من عجز الإنسان عن تخيّل الزمن بسرمديّته وفعله ووضعه كبعد من أبعاد الوجود والتكوين، وهو لا يمكن أن يقاس أو أن يحدّد أو أن يرسم أو تحدّد له أطر أو مسالك. وذلك فضلاً عن الصورة النمطية الناتجة عن المقاربة اللاإلحاديّة لعملية الخلق التي تتمحور حول فكرة الله و«لحظة» التكوين بإرادة خالق عظيم.

إنّ عامل الزمن أساسي في فهم عملية التكوين، وهذه العملية استغرقت وتستغرق ما لا يمكن قياسه وتصوره من الزمن حتى وصلت الحياة إلى ما نعيشه اليوم. وما هذا الكمال الذي نراه ونحسّه وهذه الحياة برمّتها إلا نتاج تناقضات وتوازنات طبيعية تنطلق من قطبية مجرّدة، وتجارب أنتجتها الطبيعة على مدى ردح هائل من الزمن حتى وصلت إلى ما هي عليه من صورة ومكنون.

*

بقطرات الماء المنتظمة تتكون أشكال تضاهي الكمال بعد ردح طويل من الزمن، وكذلك فعل الهواء والماء والشمس في الأرض. فالعوامل الطبيعية تصقل مكنونات الطبيعة والحياة بفعل التوازنات

الموجــودة، فتتكــون الوديــان والتــلال والجبــال والهضــاب، كذلــك الســهول والأنهــار والشــواطئ والبحيــرات والبحــار.

إن الكون قائم على تلك القطبيّة الأزلية التي ترتكز عليها جميع التناقضات المكوّنة للوجود، وعبر الزمن الأزليّ. ونحن جزء لا يتجزّأ منها، ولنا دور فيها لا يقلّ أهمية عن دور الشمس لأننا جزء من هذه الحياة كما الشّمس جزء منها.

*

إن عملية الفهم المتّبعة للوجود، والتي كرّستها أساليب تحليل الوجود التي انطبع بها الذهن البشري الجماعي عبر التاريخ كالسببيّة و«الواقعية» وغيرها، عمدت إلى تجاهل «العوامل الموضوعية المجرّدة» كالقطبية والزمن مثلاً، حتى يقدر الإنسان على الإحساس بها وفهمها بشكل يتناسب مع «الإدراك السليم» (Common Sense) السائد. في وقت أن المفترض فعله هو العكس تماماً: تجريد الوجود من مادّيته ومظاهره كافة من أجل فهمه بشكل صحيح وجذري، وهذا ما لا يقدر على فعله إلا «الوعي الموضوعي المجرّد» الذي سنخوض في بحثه لاحقاً.

واستناداً إلى واقع أن الوجود هو الحركة المستندة إلى قطبية مجردة تنطلق منها جميع التناقضات والتوازنات التي تعطي الأشكال والمادة والملموس من الوجود، فإن الزمن هو وقود هذه الحركة إذا صح التعبير. بالتالي فإنه لا يعقل أن يغيب عن أي تحليل أو تلمس أو بحث أو مقاربة للوجود.

إن استناد العلوم وتطبيقاتها إلى السببيّة، شأنها شأن معظم الفلسفات في مقاربتها للوجود والتكوين، عززت الانطباع لدينا بأن شكل الكون والوجود محدّد بالأبعاد التي نعرفها، وبأن مكوناته كل منها على حدة، أجزاء وجزيئات متواجدة في مساحة لانهائية، وبأن شكل اللانهائية محدّد بلا نهائية ثلاثية الأبعاد.

لا شك في أنّ السببيّة هنا أيضاً، والتي عززت وكرّست تقسيم مكونات الوجود، وجعلت العلاقة سببيّة عوض الارتباط الجدلي بين مكونات الوجود، أفسحت في المجال أمام تسطيح عملية مقاربة وفهم عناصر الكون، وأسهمت في تكريس هذا الانطباع حول الكون والوجود واللانهائية. وعندي إن الوجود هو وجود عناصر ضمن عناصر ضمن عناصر، وذلك في لاتناه كروي... وإن اللانهائية بُعدها الزمن ولا شيء غير الزمن، تتجه من الداخل إلى الخارج، وقد بدأت منذ بدء الوجود، منذ بدء الزمن...

كأن نتصوّر، نحاول أن نتصوّر، أن ليس هناك من ذرّات وجزيئات وجسيمات يتكوّن منها الوجود، لا شيء من ذلك... وبأنّ تطوّر الوجود هو تطوّر كرويّ شكلاً وزمناً، بحيث أنّ مكوّنات الوجود الآني، في اللحظة، هو تاريخ سائر العلاقات والتناقضات والاعتمادية المتبادلة لعناصر طاقويّة ومفاهيم مجرّدة تنزع إلى التجسّد... إنّ تصوّر ذلك من الصعوبة بمكان...

*

إنّ نظرتنا السائدة للزمن نظرة خطّية لطالما عبّرنا عنها من خلال الوقت... لقد اخترعنا الوقت كي نقيس الزمن، لكن من الزمن هناك ما لا يقاس. واخترعنا الأرقام حتى نعدّ ونحصي، غير أن هناك ما لا يعد ولا يحصى وما له نهاية، وما هذه اللانهائية إلا الزمن عينه. فما من لانهائية في الوجود إلا لانهائية الزمن، ومنه يستمدّ الوجود استمراره... في الواقع، إنّنا نأخذ الزّمن بشكل بديهيّ تماماً بشكل يجعل حتّى التعبير عن هذه المفاهيم من الصعوبة بمكان...

والنظرة الخطّية تنسحب على التعداد كذلك الأمر. وفيما الزّمن غير خطّي، فإنّ التقدّم في التعداد توالياً يصبح مستحيلاً بشكل خطّي، فالعدد التالي لا يمكننا الوصول إليه لأنه يقع في اللانهاية، واللانهاية هي حكر على الزمن، ولا حاجة لذكر أنّ التعداد إنّما بحاجة للزمن حتّى نستمرّ به. باختصار، نحن دائماً نعبّر عن مفهوم غير خطّي بشكل خطّي، أو نُسقط مفاهيم أو ممارسات خطّية على مفاهيم غير خطّية...

النظرة الخطّية للوقت، والتي تتسيّد أذهاننا بطبيعة الحال، الماضي فيها ليس جزءاً من الحاضر. فنحن نرى الزمن ونعبّر عنه بالوقت الذي هو عبارة عن متوالية رقميّة خطّية تعبّر عن مرور الزمن بشكلٍ لا يعكس تطوّر الوجود بشكل حقيقي. وتصبح معه الحال الماضية لشيء ما «ماضياً» غير متواجد في الحالة الجديدة. وكأن الحالة الجديدة أتت من العدم واستبدلت الحالة السابقة وهكذا دواليك. إن هذه النظرة للزمن تهمل تماماً الواقع الكروي بجميع تفاعلات عناصره المترابطة

بتوازن أبديّ لا ينتهي أبداً ولا هوادة فيه، وبحيث أن الماضي هو جزء من الحاضر دائماً، جزء من سيرورة تطوّره.

الزّمن ليس متوالية خطّية بسيطة، لا يمكن أن يكون كذلك. الزّمن كروي، والماضي فيه هو جزء من الحاضر، وليس هناك من وقت محدّد إلا «الآن»، وكلّ ماضٍ قد كان آناً في وقت معيّن...

******

التناقض

التناقض هو تلك العلاقة الجدلية بين مكونات الوجود الواحد، تلك التي تقوم عليها التوازنات التي يتكون بها الوجود وترتكز على أساسها الحياة والتي بدورها تنطلق من «القطبية المجرّدة» وتستمر عبر الزمن. وإذ قلنا إنّ الوجود هو الحركة، فإن هذا التناقض الجدلي بين مكوناته هو التعبير عن تلك الحركة وهو يرتكز على القطبية المجرّدة التي تناولناها في مقطع سابق.

وهناك مستويان من التناقض يحكمان حركة الوجود وعملية تطوره على مرّ الزمن، التناقض الأفقي والتناقض العمودي. ويختلف هذان الشكلان من التناقض بشكل جوهري سواء بمكونات كلّ منهما أو بدوره في عملية تطور الوجود.

***

أولاً: التناقضات الأفقية

التناقضات الأفقية هي تناقضات بين المكونات الراسخة والمكتملة في الوجود والتي تتطور استناداً إلى تناقضها دونما تغيير في أساس تكوينها. إن عمليات التطور التي تنطلق من هذه التناقضات

ستنتج علاقـات جدليـة جديـدة بيـن مكونـات التناقضـات الأفقيـة، غيـر أن هـذه المكونـات لا تتغيـر تركيبتهـا وإن تغيـر شـكلها أو حالهـا. وفكرنـا قـادر تمامـاً أن يلحـظ العديـد مـن هـذه المكونـات والتناقضـات وأن يتلمـس نتائجهـا، وإذا كان لا يفهمهـا دائمـاً فلأنـه يعيـش فـي خضمّهـا.

الماء الذي يتبخّر فيتغيّر شكله وحاله دونما تغيير في مكوناته هو مثال على التناقض الأفقي بين مكونات الوجود الراسخة والمكتملة والتي يدركها الفكر الإنساني تماماً ويعيشها في حياته اليومية. فهذه العملية التي ترتكز على الماء والحرارة التي بدورها نتاج عملية أخرى مولدة لها أدّت إلى تبخير الماء دونما تغيير في مكوناته.

والحيوانات التي تطور شكلها إلى ما نعرفه اليوم دونما تغيير جذري في تركيبتها وتكوينها هي بدورها ارتكزت على تناقضاتها مع الطبيعة ومكونات أخرى في الوجود حكمت عملية تطوّرها. وإن كان فكرنا لا يلحظ هذه العملية بسهولة، فلأنها أخذت ردحاً طويلاً من الزمن يفوق ما يقدر فكرنا على تصوره. فهذه الحيوانات لم تجزّأ ولم تقطع أجزاؤها ثم أعيد تركيبها على شاكلة جديدة، إنما تطور شكلها وتغيّر في سياق تناقضها وعلاقتها بالطبيعة وببقيّة الكائنات.

***

ثانياً: التناقضات العمودية

التناقضـات العموديـة هـي تناقضـات بيـن الأجـزاء المكونـة للأشـياء وللكائنـات المكتملـة والراسـخة فـي الوجـود بحيـث ينتـج عـن التناقـض

مـادة جديـدة أو حالـة نوعيـة بتركيبـة مختلفـة وجديـدة. والتناقضـات العمودية هـي تناقضـات معقـدة وعميقـة ولا يمكـن للفكـر الإنسـاني أن يلحظهـا إلا مـن خـلال التلقيـن، ولا يمكـن أن يشـعر بهـا وإن شـعر بتبعاتهـا ونتائجهـا وأثرهـا فـي الوجـود.

فلنأخذ مثال الماء أيضاً حتى نعمل على استشفاف مسألة التناقض العمودي من خلال هذا المثل. لقد سبق أن تحدثنا عن التناقض الأفقي بين الماء والحرارة، وكيف تتطور حالة الماء من السائل إلى البخار من دون تغيير في مكونات الماء، وإن تغير شيء فهو العلاقة بين هذه الأجزاء هي التي تغيرت لكن الماء بقي بالتركيبة نفسها. لكن ماذا عن التناقضات بين الأجزاء المكونة للماء نفسه من أكسيجين وهيدروجين؟ إن هذا التناقض الذي يرتكز بالضرورة على القطبية المجرّدة التي تحكم الوجود هو شكل من التناقض العمودي العضوي بين مكونات كانت غير راسخة وترسّخت بفعل التوازن الذي تفرضه القطبية المجرّدة فتكون الماء. فأجزاء الوجود في سعي دائم إلى الرسوخ والتوازن وبالتالي فإن التناقض العمودي دائماً ما يفرض شكلاً جديداً من الموجودات الكونية. ومن هذا بإمكاننا أن نستنتج أنه في ظل وجود تناقض عمودي بين مكونات شيء ما من المستحيل على هذا الشيء أن يتطور في تناقضه الأفقي مع موجودات كونية أخرى، فالماء إذا تجزأت مكوناته من المستحيل أن يتطور «عفوياً» إلى بخار ماء، ولا يتطور إلا بحالته الراسخة والمتوازنة في الوجود.

فلا ريب إذن بالضرر الكبير والدمار الهائل والمتنامي لاستخدام الطاقة النووية التي ترتكز على العبث بالموجودات الكونية الراسخة، ولا عجب في تنامي الأمراض وتنوعها وتكاثرها في ظل قيام المجتمع البشري بتجزئة مكونات الطبيعة من زيوت وسكريات وما إلى هنالك، والإمعان في استخدام المواد المركبة في اعتداء كبير على الوجود الطبيعي الذي لن يؤدي إلا إلى المزيد من الدمار والتقهقر. وحتى العلاجات المستخدمة لا تقوم إلا بمزيد من التعزيز للتناقضات العمودية الهدامة. مرض السرطان مثلاً، هو تناقض عمودي يتحتم أن ينهيه الجسم بنفسه من خلال جهاز المناعة لا عبر إدخال مكوّنات مجزّأة من الوجود تعزّز التناقض العمودي مع الطبيعة كون الجسم هو جزء منها، من الطبيعة.

إن التناقض الأفقي، تلك العلاقة الجدلية بين المكونات الراسخة في الطبيعة، تحكم عملية تطور هذه المكونات في الوجود عبر الزمن دون تغيير في تركيبتها الأساسية. أما في ظلّ وجود تناقضات عمودية بنيوية، فإن عملية التطور هذه لا ريب ستتوقف. وسنرى فيما بعد كيف ينطبق هذا على العقل والمجتمع والحياة الإنسانية.

******

أدناه جدول يهدف إلى التمييز بين خصائص منهج السّببيّة السائد اليوم، ومنهج الاعتماد المتبادل الموضوعي. إنّ هذا الجدول يبيّن قصور المنهج السّببي وعجزه على تفسير مظاهر الوجود إلا بما يخدم حيثيات ذاتية هدّامة تماماً...

الجدول 1:

ـ منهج السّببيّة	ـ منهج الاعتمادية المتبادلة (الجدلي)
ـ ذاتي	ـ موضوعي
ـ خطّي (Linear)	ـ إعتمادية متبادلة
ـ يرتكز على التفاصيل	ـ يرتكز على فهم مجرّد من التفاصيل
ـ ميكانيكي	ـ جدلي
ـ نظرة خطّية للزمن (تسلسلية)	ـ نظرة كرويّة للزمن (الماضي فيه جزء من الحاضر)
ـ نظرة تفهم الوجود بشكل خطّي بسيط	ـ نظرة تفهم الوجود ككلّ موحّد ـ مترابط
ـ رجوعي على خط التاريخ	ـ ينطلق من الحاضر (الآن)

******

II ـ العقل

1. وكان العقل
2. مثلّث العقل
   i. الوعي
   ii.الفكر
   iii.الشعور
3. كيف يعمل العقل
4. الطبائع والشخصيات
5. الحكمة
6. المصير

وكان العقل

لطالما سيطر منظوران أساسيان على النقاش الفلسفي عبر التاريخ حول العقل وعلاقته بالجسد. أحدهما إنّما يقول بالوحدوية بحيث أن العقل والجسد وحدة ماديّة، وبأن لا وجود لشيء اسمه العقل بمعزل عن المادة وعن الجسد، بمعنى أن الدماغ المادي هو عقل الإنسان. وحتى ضمن هذا المنظور تتراوح علاقة الدماغ المادي بالفكر بدءاً من النظرة الجدلية بحيث أن الفكر هو انعكاس للوجود المادي في الدماغ، وصولاً إلى نظرة ميكانيكية صرف كمثل أن نقول: كما أن عمل القلب هو ضخ الدم في الجسد، فإن عمل الدماغ هو التفكير، مروراً بمقاربات أخرى تتراوح بين هذين الطرحين. أما المنظور الثاني فيقول بثنائية العقل والجسد، وبأن العقل، أو في بعض الأحيان الروح كما دأبت الفلسفات اللاإلحادية على القول، مفصول عن الجسد، وله وضعه الخاص وآلياته التي تختلف تمام الاختلاف عن المادة.

إن الحسم ما بين النظرتين، أي الوحدوية والثنائية، لا يبدو في المتناول خصوصاً وأن كلتا النظرتين تدعمهما العديد من الأبحاث والحجج والبراهين، وفي أحيان كثيرة قناعات رسّختها سنين من التلقين بحيث تصبح الموضوعية عند مقاربة الطرحين مسألة شبه مستحيلة. ثم

إنّ المـرء ينطلـق مـن عقلـه، مـن موروثـه الفكـري الخـاص عنـد بحثـه فـي فلسـفة العقـل، ممّـا يضيـف إلـى الموضـوع مزيـداً مـن الصعوبـة والتعقيـد. غيـر أن هـذا النقـاش تحـول مـع الوقـت إلـى نقـاش فكـري أكثـر منـه فلسـفيّاً، وأمسـى نقاشـاً ينطلـق مـن عصبويـة فكريـة معينـة تحمـل مجمـل الموروثـات الفكريــة لــكلّ مــن الطرحيــن، عــوض أن ينطلــق مــن وضعيــة مجــرّدة، مــن الوعـي المجـرّد. بالتالـي، فـإن الحسـم فـي هـذا الموضـوع مـن خـلال هـذا النقـاش نفسـه لا يبـدو قريـب المنـال، خصوصـاً أن البحـث والحجـج كلّهـا تـدور فـي حلقـة مفرغـة... السّـببيّة عـود علـى بـدء...

ففيما تنطلق معظم فرضيّات المنظور الوحدوي للعقل من فكرة أن أساس الوجود وسببه مادي، تعلّل معظم نظريات المنظور الآخر - الذي يقول بثنائية العقل والجسد - الوجود بخالق مفترض للكون. وفيما يغوص المنظور الوحدوي في تفاصيل لامتناهية حين يسبر غور العقل ووظائفه وكيفية عمله بحيث يصبح عرضة للتسطيح والخطّية مفتقراً إلى الجدلية والموضوعية والشمولية، يذهب المنظور الآخر إلى اتجاه تغلب عليه الروحانيات أو المسلّمات والموروثات الفكرية.

إن أي تحليـل فلسـفي يتنـاول العقـل سـيصبح أكثـر وضوحـاً وشـمولية عندمـا يأخـذ العقـل الجماعـي، كلّ المجتمـع البشـري، فـي تحليلـه بـدلاً مـن النظـرة الضيّقـة والسـطحية التـي تتخـذ مـن العقـل الفـردي أساسـاً لتحليلهـا. فالعقــل هــو كلٌّ واحــد عبــر الزمــن، وتاريــخ الوجــود البشــري وحاضــره ومسـتقبله هـو تلـك العلاقـة الجدليّـة بيـن هـذا العقـل البشـري الجماعـي

والوجــود. إن هــذه العلاقــة الجدليّــة تحديــداً هــي أســاس كلّ نظــرة مجــردة وشــاملة وموضوعيــة للعقــل والوجــود. بالتالــي فــإن البحــث والنقــاش فــي وحدويــة أو ثنائيــة العقــل والجســد ليــس نقاشــاً موضوعيــاً ولا يمكــن أن يكــون حاســماً خصوصــاً وأنــه ينطلــق مــن العقــل الفــردي فــي التحليــل والتفلســف. وبالتالــي، فعلــى المســتوى الإفــرادي، العقــل والجســد ليســا كلاً واحــداً تمامــاً، كمــا وأنهمــا ليســا ثنائيــاً تمامــاً كلّ منهمــا موجــود بمعــزل عــن الآخــر.

أمّا على المستوى الفردي، فإنّ العلاقة الجدلية بين العقل والمادة، بين العقل والدماغ المادي، هي المرتكز الأساسي من أجل فهم موضوعي للعقل الإفرادي وعمله ووجوده. فالعقل الفردي هو جزء لا يتجزأ من كلّ ألا وهو العقل الجماعي، العقل الكلّي. أما الدماغ فهو جزء من الطبيعة بحيث أنه مكان عمل العقل، ومحور تلك العلاقة الجدلية بين العقل والطبيعة.

*

شأن كلّ ظاهرة في الوجود، العقل هو نتاج تناقضات متراكمة، نتاج التجارب الطبيعية التلقائية التي استمرت ردحاً هائلاً من الزمن ولاتزال وستستمر، فأنتجت هذا الشكل من الكمال وتوصلت إلى كائن جبار استجمع به الوجود خير طاقاته. فالتناقضات الأفقية بين مكونات الطبيعة الراسخة من مواد وطاقات وكائنات، وفي سيرورة تلقائية لاإرادية، صارت إلى حالة جديدة إرادويّة متطورة هي العقل،

هي الإنسان. وبالتالي، فإن العقل هو نقيضُ تلقائية الطبيعة التي حكمتها منذ الأزل، وفي تناقض أفقي دائم ومستمرّ معها، يطورها وتطوره، يؤثر بها وتؤثر به... وهو شكل من أشكال الطاقة التي تقوم على توازنات دقيقة تماماً، والطاقة، وإن تغير شكلها، لكنها لا تزول أبداً.

*

لا قيمة لمطلق عقل فردي بمعزل عن العقل الجماعي الذي يملك مجمل الثروة المعرفية وأساس تطورها. فإن عزلنا إنساناً منذ الولادة عن العقل الجماعي البشري لخلصنا إلى عقل بدائي لا يفقه شيئاً من المعرفة التي طوّرها العقل البشري الجماعي عبر التاريخ.

والعقل الفردي إنما يعمل بالشكل الذي نعرفه داخل الدماغ الذي هو مادة صرف بمكونات ما لها في الوجود مثيل في التعقيد حتى تتمكن من احتواء العقل البشري البالغ التطور. ولأن تطوّر العقل عبر الزمن لا يمكن أن يجري إلا من خلال وجوده في الدماغ حيث يكون عاملاً، فإن الدماغ، الذي هو محور العلاقة الجدلية بين العقل والطبيعة، رافق العقل في تطوّره حتى غدا هو الآخر مادة هائلة التعقيد... فالدماغ أيضاً إذن هو نتاج زمن هائل لا يقاس بما بمقدورنا تخيله، وكمّ هائل من التجارب الطبيعية المتراكمة.

إنّ التفكير بأمر معيّن يرتّب عمل عدد هائل جدّاً من الخلايا والعقد والناقلات العصبيّة، وكمّ هائل من العمليات التي يتمّ خلالها استحضار ونقل المعلومات الحسّية التي اكتسبتها الحواس ليتمّ ربطها بالذاكرة

والذكريـات. إنّ هـذه العمليـات تجسّـد العلاقـة مـا بيـن العقـل والدّمـاغ المادي، تجسّـد كيـف أنّ العقـل لا يمكـن أن يعمـل بمعـزل عـن الدمـاغ. لكـنّ هـذه العمليـات الماديّـة ليسـت التفكيـر عينـه ولا تنتـج التفكيـر، بـل هـي تعبيـرٌ عنـه داخـل الدمـاغ المـادي. هـي تعبيـر عـن علاقـة عمـل العقـل بالدمـاغ، وتفاعـل العقـل المجـرّد مـع المحسوسـات التـي اسـتخلصتها الحـواس وتـمّ تخزينهـا فـي الدمـاغ.

*

وشأن جميع الكائنات، فإن استمرارية الحياة هي مهمّة الدماغ الأساسية من حيث هو جزء لا يتجزأ من الطبيعة والوجود، وفيه طاقات تسري عبر أعصابه بمعزل عن العقل. ومن الصعب، وحتى من المستحيل أحياناً على الإنسان أن يلحظ هذه الأمور والعمليات التي تحصل لغرض إبقاء الجسم على قيد الحياة. الإنسان كائن يريد الحياة والاستمرار كما سائر الكائنات على وجه الأرض، وما الجسد إلا هذه الوسيلة التي تنزع بالإنسان للاستمرار والحياة.

ومن هذه الطاقات ما ينظم عمل الجسد حتى يبقى على قيد الحياة، ويؤمن بالتالي ما يحتاجه العقل ويريده للاستمرار في الدماغ، فمتى مات الدماغ ما عاد قادراً على احتواء العقل. وناظم الجسم هذا لا يمكن للعقل الإحساس به إلا من خلال علمنا بأننا على قيد الحياة، وإحساسنا بما يمكن لحواسنا أن تحسّه. العقل لا يحس بسير الدم في العروق، ولا بعمل أعضاء الجسم الداخلية، ولا بالقلب ولا بالكبد

إلا بما ظهر من أصوات وقرقعات وأوجاع، وما هي إلا تعابير ليس للعقل سلطان عليها. فليس للإنسان أن يوقف دقات قلبه بإرادته، ولا أن يوقف عمل معدته أو كبده أو كليتيه. فناظم الجسم هذا لا خيار لنا به ولا رأيّ، ولا يميّزنا بهذا عن البهائم شيء...

وهناك أيضاً الغرائز التي يعوزها الدماغ ليبقى على قيد الحياة. وللعقل اختيار في الغرائز لكن سلطانه يبقى محدوداً وعاجزاً أمام إرادة الحياة. فلك أن تختار ألا تأكل، أو لا تشرب، أو لا تنام، لكن من المرجّح أن تقوى عليك غرائزك، فدماغك يريد الحياة شأنك شأن كل الكائنات على وجه الأرض حتى غير العاقلة منها، فما تقوى على الصمود طويلاً. ولك أن توقف أنفاسك قليلاً، لكن دماغك سرعان ما يوعز باستئناف استنشاق الهواء...

وهناك الحواس التي نتفاعل من خلالها مع العالم الخارجي ونحس بالدنيا. لقد دأب العلم على الحديث عن الحواس الخمس، وهذه الحواس هي أيضاً من فعل الدماغ، أما معرفتنا بها فهي من خلال إحساسنا بالدنيا وبالأشياء حولنا سواء من خلال اللمس أو الشم أو الذوق أو السمع أو النظر. والحواس جزء من تركيبة الدماغ البشري والحيواني، فلا يميز الإنسان عن البهائم شيء ضمن هذا النطاق، فوظيفة الحواس هي الإحساس بالوجود والطبيعة.

******

2009

لقد درّبت نفسي على أن أفهم الحياة كتجربة، كمغامرة مستمرّة لا أعرف عن غدها شيئاً. وفي الواقع، نحن درّبنا ذهننا على التعاطي مع الحياة باعتبارها أطراً ثابتة غير مرنة، ومجموعة من الاعتبارات والمفاهيم غير المنفتحة على المتغيرات والحركة الدائمة التي تميزّ الحياة، فأمست أية مشكلة تواجهنا تبدو وكأنها نهاية العالم.

إنّ الحياة لتجربة مستمرّة ومغامرة لا أحد يعرف فصولها التالية، ولا شيء غير ذلك...

***

لقد كانت سنة 2009 سنة مفصليّة في حياتي.

كنت وقتها موظّفاً ناجحاً في شركة تعمل في مجال البحوث، مديراً مسؤولاً عن العمليات المتعلّقة بالبحوث وعن عدد من الدراسات التي تقوم بها الشركة في لبنان والمنطقة. إنّ عملي في هذه الشركة وفي هذا المجال بالتحديد قد وفّر لي خبرة ووسائل قد كان لها دور مهمّ في العمل على هذا الكتاب. هذا فضلاً عن مروحة العلاقات الواسعة جدّاً التي يتيحها العمل في هكذا مجال، والذي بدوره أتاح لي التعرّض

لأشكال متنوّعة من الناس وفي المجالات كافة من رجال ونساء أعمال وموظفين وموظفات وعمال وعاملات وطلاب وطالبات.

استقبلت العام الجديد وسط جوّ غير مسبوق من الضغط النفسي والقلق الذي كان يخيّم على أجواء عائلتنا الكبيرة. فلقد مرّت العائلة بأوقات عصيبة جدّاً في تلك المرحلة استمرّت حتى نهاية الشتاء...

كما وأنّه مع بداية العام الجديد كانت تبعات الأزمة الاقتصادية العالمية تلقي بثقلها على جميع مفاصل الأعمال في جميع أنحاء العالم. ولقد شهدت جميع الشركات، بما فيها الشركة التي أعمل لها، انخفاضاً ملحوظاً في حجم أعمالها وزبائنها. وفي وقت كانت سنة 2009 هي السنة الأولى لي بعد زواجي، فقد كان أثر الأزمة عليّ مضاعفاً بما يحمله من ضغوطات وقلق ومخاوف بالنظر للمسؤوليات الجديدة المترتبة.

لقد كانت آمالي وطموحاتي كبيرة، وكنت أحضّر لمشاريع جديدة على الصعيد الشخصي والعملي والسياسي حتى، وقد كنت وقتها لاأزال عضواً في الحزب الشيوعي اللبناني. كنت متحمّساً للتغيير، أحضّر للمشاركة بأعمال المؤتمر العاشر للحزب. وقد كان هذا الموضوع محور النقاشات مع الرفاق والأصدقاء.

*

كنت أجلس وحيداً في المنزل في أواخر شتاء 2009... أذكر تماماً أنّي كنت كثير التفكير بالمرض في تلك الفترة، بالخطير منها كالسرطان

مثـلاً... شـعرت بالنعـاس ثـم مـا لبثـت أن استسـلمت للنـوم. وبعـد سـاعة أو اثنتيـن مـن النّـوم المتقطّـع القلـق اسـتفقت مذعـوراً... اتجهـت بسـرعة إلـى المـرآة أتفحّـص حلقـي بحثـاً عـن ورم سـرطاني أو شـيء مـن هـذا القبيـل. وفـي وقـت كنـت أظـنّ أنّـي أعيـش المراحـل الأولـى مـن مـرض عضـال، كنـت فـي الواقـع أعيـش المراحـل الأولـى مـن مـرض مـن نـوع آخـر...

عانيت كثيراً في تلك الفترة، لأسابيع طويلة... كنت أمضي ساعات أبحث في أعراض الأمراض المختلفة وأقيسها على نفسي. لقد مررت ربّما بجميع الأمراض المعروفة، وكنت كلّما سمعت بمرض جديد شرعت أبحث عنه وأستطلع عوارضه وأقيسها على ذاتي. والمفارقة أنّ جميع الأمراض كانت تنطبق عليّ تماماً (راجع السّببية ووفرة التفاصيل في القسم الأوّل). كان توهّم المرض ينفذ من خرم إبرة إلى ذهني، من أضيق «ماذا إذا؟» تكرّ في فكري. أذكر أنّي كنت كثير التشوّش وقتها، كثير القلق، لا أعرف ماذا يحصل معي. ثم ما لبثت أن بدأت ملامح كآبة شديدة تلوح في الأفق، تقترب كلّ يوم إلى أن تمكّنت منّي تماماً... بقيت على هذه الحال شهوراً قليلة في سعي فاشل إلى التيقّن من صحّتي، إلى أن تيقّنت تماماً من وضعي: وسواس المرض.

أمسيت بعدها متأكّداً ومصرّاً على أنّ السّبيل الوحيد لخلاصي يكمن في فهم حالتي، في فهم عقلي، ومن هناك بدأت علاقتي مع «العقل»...

انكببت على الأبحاث، وفيما كنت في السابق أبحث في الأمراض وأقيسها على ذاتي، أصبحت أبحاثي تتمحور حول العقل واضطراباته وسبل تخطّيها. غصت كثيراً في شتى أنواع الكتب والأبحاث السيكولوجية، وبخاصة تلك التي تتناول ما يعرف بالعلاج السلوكي المعرفي (Cognitive Behavioral Therapy). تراوح عملي في تلك الفترة على موضوعة العقل بين القراءة والأبحاث وصولاً إلى المراسلات واللقاءات مروراً بتجارب ودراسات قمت بها، ومن كلّ ما له علاقة بالعلاج السلوكي المعرفي وصولاً إلى التعاليم والتطبيقات والممارسات البوذية وتقنيات التأمّل الذاتي... ومع عملي، كنت أستغنم أية فرصة للقراءة، أية فرصة. مثلاً، أصبحت أذهب إلى عملي وأعود في الباص، بحيث يتسنّى لي القراءة جيئة وذهاباً، ولاأزال أعتمد هذا حتى اليوم.

*

«... وكأنّه لنا عقلان لا عقل واحد!» كان هذا جزءاً من رسالة بعثتها إلى عالم نفس أميركي من سلسلة مراسلات كنت أقوم بها في تلك الفترة.

فقد يخيل إلينا أن العقل الفردي وحدة متعدّدة الوظائف، تمارس مهامها بطريقة ميكانيكية. حتى أن المنظور السائد لا يحدّد درجات أو وسائل مختلفة في العقل، فيصبح التمييز بين الوعي الذاتي والتفكير والمشاعر مسألة صعبة تشوبها الضّبابية وقلة الوضوح. حتى أن التفكير

المنطقـي أو الموضوعـي أمسـى صفـة تطلـق علـى الفكـر (وليـس الوعـي) فـي خلـط واضـح بيـن وظائـف وآليـات مختلفـة تمامـاً فـي العقـل الفـردي نفسـه...

إنّك لتجد في الثقافات والديانات الشرق آسيوية تطرقاً إلى موضوعة العقل على أساس يميز بين مكونات مختلفة وآليات ودرجات. لكن فضلاً عن الإفراط في الروحانية، فإن طرح الموضوع على هذا النحو جعله يظهر بشكل خطّي ميكانيكي. ثمّ إنّ بعض مدارس علم النفس كالعلاج السلوكي المعرفي (CBT) مثلاً، تميّز بين وظائف ومستويات مختلفة في العقل البشري.

على سبيل المثال، في كتيّب للمساعدة الذاتية في حالات الاكتئاب (Maunder. Cameron, 2006)، هناك فصل واضح بين ثلاثة مستويات في عمل الذهن في حالات الاكتئاب هي كالتالي:

أ ـ الحدث.

ب ـ الأفكار حول الحدث.

ت ـ المشاعر المتولّدة.

*

إنّ المدخل إلى فهم أفضل للعقل وفهم الخطوط العامة لآلياته وكيفية عمله مسألة استلزمت الكثير من الأبحاث والتجارب والمقابلات، فضلاً عن تقنيات التأمل الذاتي الذي يتيح التمييز بين مختلف مستويات العقل ووسائله بشكل واضح.

قادت الأبحاث والقراءات والتجارب والمقابلات والمراسلات التي قمت بها إلى الاستنتاجات التالية:

بإمكاننا التمييز بين ثلاثة مستويات في العقل الفردي: الوعي والفكر والشعور، وهي ثلاثة مكونات للعقل بآليات وخصائص مختلفة تماماً... بالتالي، فإن مطلق عقل فردي هو عبارة عن هذا الثالوث، ثالوث الوعي والفكر والشعور...

والإنسان أعجز من أن يلحظ هذا الثالوث إلا بكثير من التأمل الذاتي حتى يقدر على أن يراقب فكره، وما الطريق إلى ذلك بالأمر اليسير. فتمييز الوعي عن الفكر مسألة صعبة في معظم الأحيان، لكن ذلك في المتناول مع مزيد من التركيز والتأمل الذاتي...

*

إنّ فهم العقل بهذا الشكل الذي يلحظ مستوياته المختلفة لا يمكن أن يتوقّف عند هذا الشّكل الميكانيكي البسيط. وبالتالي، فإنّ المرحلة الثانية من العمل تركّزت على فهم علاقة مختلف مستويات العقل ببعضها البعض، العلاقة بين الوعي والفكر والشعور، تلك العلاقة التي لا يمكن إلا أن تكون تفاعلية مترابطة وفق المنهج الذي يحكم الوجود. وهنا، استعنت بالخبرة التي اكتسبتها في عملي في مجال البحوث، فقمت بإعداد دليل، مخطّط تمهيدي، لمقابلات ونقاشات مع أفراد ومجموعات، بالإضافة إلى أكثر من دراسة كمّية مع عيّنة عشوائية. ومع تقدّم العمل، بدأت تظهر الملامح العامة للعقل المجرّد

بمستوياته وخصائصه، والأهم علاقة هذه الخصائص والمستويات ببعضها البعض...

في المرحلة الأولى من البحث، توضّحت الخصائص والنقاط التالية:

إن علاقة العقل بالوجود الخارجي وعمله وتفاعله مع هذا الوجود يتبع هذا التسلسل:

1 ـ الوعي.

2 ـ الفكر.

3 ـ الشعور.

ـ الوعي موضوعي تماماً وخال من الانطباعات.

ـ الفكر ذاتي وهو انطباعنا عن الوجود الخارجي.

ـ الشعور هو نتاج الفكر.

ـ الوعي قادر على أن يلحظ الفكر والشعور.

ـ الوعي إرادوي غير تلقائي.

ـ الشعور هو نتاج الفكر، صورته المعاكسة.

ـ الفكر دائماً ما يحاول إبعاد الشعور عن الذنب وعن الموت (الخوف من الموت) - وبالتالي فإنّ الفكر والشعور يعملان بصورة متقابلة.

ـ إنّ التفكير كثيراً في أمر معيّن يزيد من حضوره في فكرنا في المستقبل.

*

ومع تقدّم العمل، بدأت الصّورة تتوضّح. لقد كان العمل كحلّ أحجية، تظهر لك فجوات في البحث لا تلبث أن تضيق موضحة الصورة أكثر فأكثر. في **المرحلة الثانية** من العمل، كان معظم البحث مرتكزاً على ربط الخصائص والاستنتاجات من أجل الوصول إلى استنتاجات أكثر تماسكاً وتفسيراً لواقع العقل. كنت أصحو من النوم منتصف الليل في الكثير من الأحيان، أدوّن ملاحظة أو استنتاجاً، أو أساساً لبحث معيّن يجب أن أقوم به في اليوم التالي. أو أسئلة جديدة على دليل المقابلات قد تسهم في توضيح نموذج العقل بشكل أفضل. ركّزت كثيراً على الشمولية والمرونة والتجريد من أجل الحصول على معطيات واستنتاجات شاملة ومترابطة.

*

في **المرحلة الثالثة** من البحث، تركّز عملي على عملية نقض الاستنتاجات التي توصّلت إليها بغية الكشف عن فجوات في عملية فهم العقل. مسألة في غاية الصعوبة والتعقيد، وتحدّ كبير ما عهدت مثله يوماً...

أن تريد إثبات فرضيّة معيّنة أو إيمان معيّن لديك، مسألة في غاية السهولة. فهناك احتمالات لا متناهية تعزّز الفرضيّة التي تسعى إلى إثباتها كما أسلفنا. أمّا أن تريد نقض ما توصّلت إليه، فأن تقوى على ذلك مسألة صعبة جدّاً. والصعوبة لا تكمن بالضرورة في ترابط

النظريـة، بـل غالبـاً فـي القـدرة علـى نقـض الـذّات، نقـض الفكـر الـذي تـدرّب لسـنين علـى صوابيّـة أفـكاره...

*

في صباح أحد أيام صيف 2010، كنت أتناول قهوتي الصباحية، وأطّلع على نماذج وصور رنين مغناطيسي لحالات مختلفة من الاضطرابات العقلية، حالات كما سنرى لاحقاً ترتبط بتموضع الوعي بشكل أساسي. إنّ هذه الصور والنماذج والأبحاث تتّبع منهجاً مختلفاً عن كل ما كنت ولاأزال أقوم به، منهجاً مادياً بحتاً كثير الارتكاز على التفاصيل على حساب المنظور الشّمولي المجرّد. انتابني شعور من الرّضا والصّفاء، شعرت بأن الأمور تسير على ما يرام...

ومع نهاية سنة 2010، وفي آخر يوم عمل فعلي لي في الشّركة التي كنت أعمل لها، بدأت بجمع الاستنتاجات، وصوغها في قالب أسّس لبداية شروعي بالعمل على هذا الكتاب.

******

مثلّث العقل

العقل أساسه مثلث أضلاع أعلاه الوعي، وهو الرأس الأمامي، وإلى يساره الفكر، وإلى يمينه الشعور. ومسير انعكاس الوجود في العقل إنما يمرّ في هذا الثالوث إلى اليسار بعكس عقارب الساعة، ومن الوعي إلى الفكر ثم إلى الشعور...

*

الرسم 1:

مركز الوعي :α

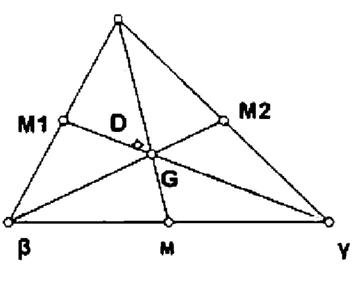
مركز الفكر : β

مركز الشعور : γ

الذنب :G

الموت :D

نقطة الوسط :M



يظهر «الرسم 1» موقع كل من الوعي والفكر والشعور من بعضها البعض، وهو بالتالي رسم بياني يهدف إلى إظهار المكونات الأساسية للعقل في مطلق لحظة. فهذي النقاط، مراكز الوعي والفكر والشعور، إنما تقع على مسطحة واحدة، وهذه المسطحة تجسد حالة العقل في أي لحظة معينة من الزمن.

ولمثلث العقل هذا مركز ثقل هو «الذنب»، أما مركز الدائرة الداخلية فهو «الموت». وكما سنرى لاحقاً في هذا الكتاب، فإن الفكر إنما هو دائم السعي إلى إبعاد الشعور عن الذنب والموت. والمثلث هذا يتغير شكله وتمركز رؤوسه فوق كل مسطحة متراكمة مع مرور الزمن. أما نقطة الوسط M فهي منتصف المسافة بين مركز الفكر ومركز الشعور.

إن تكوين العقل على هذه الشاكلة إنما هو نتاج عملية تطور العقل وارتقائه على مدى هائل من الزمن، زمن عامر بالتجارب والتناقضات والتغييرات. وتحوّل مركز الثقل إلى أن يكون «الذنب» هو كذلك نتاج لتحوّل وترسّخ أنماط التفكير لدى الإنسان على مرّ الزمن استناداً إلى علاقته وتناقضه مع الطبيعة والوجود. بمعنى أنّ مركز الثقل لم يكن «الذنب» منذ البداية، ولم «يخلق» أو يكوّن على هذا النمط، إنما كيفية التفكير التي انتهجها العقل على مرّ الزمن هي التي جعلت من مركز الثقل أن يصير «الذنب».

***

أوّلاً: الوعي

الوعي هو أداة اكتساب المعرفة لدى العقل، المعرفة الموضوعية المجرّدة. وهو بالتالي الوحيد بين مكوّنات العقل القادر على أن يلحظ التناقضات وتكوين المعرفة الخالصة، على معرفة «الحقيقة» المجرّدة.

والمعرفة، بحكم كونها انعكاس العالم المحسوس في الوعي، هي عملية تراكمية في الذاكرة للأشياء والمظاهر المحسوسة وللمفاهيم العامّة المستخلصة من التضادّات كالجمال والقبح، الخير والشرّ، الصحّ والخطأ، الصعود والهبوط، التقدّم والتراجع، وما إلى هنالك من مفاهيم عامة شاملة.

فالوعي إذن أداة الإنسان، أداة العقل حتى يكتشف الدنيا. فبالوعي يتعلّم الإنسان الأمور والأشكال والحروف والأرقام بلا أحكام ولا انطباعات. فالوعي مجرّد موضوعي لا قرار للمرء فيه وإن كان له سلطان عليه، مجرّد لا أحكام فيه ولا انطباعات.

وللوعي أداة هي الذاكرة... والذاكرة هي ذاكرة الأشياء التي تلقنها الإنسان وما لها أحكام ولا انطباعات ولا آراء مختلفة في عقل الإنسان ذاته. فالوعي هو الإدراك الموضوعي للوجود والطبيعة. أما ذاكرة الوعي فشكلان، واحدة قصيرة تتبع مسار الوعي عبر الزمن لكن بشكل معاكس. أما الأخرى فعمودية تستقي من تاريخ الوعي عبر الزمن نزولاً خارجة عن نطاق حركته.

والوعي شديد الالتصاق والتناغم مع الحواس، فهي تساعده على التفاعل مع الوجود والطبيعة، وهو نافذتها إلى العقل. والحواس إحدى وسائل الوعي لالتقاط الأمور والأشياء وتسجيلها في الذاكرة... فالوعي إذن يعكس الوجود الموضوعي في العقل...

قد يصعب على الإنسان فهم دور الوعي وكيفية عمله، وما ذلك بالأمر السهل، ويحتاج للتركيز والتأمل الذاتي، غير أن الموضوع جدير بالتجربة، وبه حكمة كبيرة وفائدة جمّة للإنسان. والوعي أداة العقل العليا، وله اليد الطولى في تكوين الإنسان لأنه ميزة الإنسان عن بقية الكائنات الحية. فالوعي يسهم في تطوير الفكر ومستواه ونطاقه... ولأن الوعي على تماس مباشر مع الحواس، فإنه بالتالي أول نافذة للعقل على الوجود.

وحتى نفهم كيفية عمل الوعي، فلنتخيل مثالاً معيناً أو أكثر...

*

نظرت من نافذة بيتك، فإذا بك ترى السماء ملبدة بالغيوم الرمادية، ورأيت قطرات المطر وقد بدأت بالتساقط مبللة كلّ ما يقع في طريق سقوطها من السماء...

فعل رؤيتك لهذا المشهد هو فعل الحواس، وفعل علمك بالمنظر الذي رأيت هو فعل الوعي...

فأنت رأيت السماء والغيوم والمطر وعلمت بما يجري في الخارج، وهذا هو الوعي بذاته.

ونحن في هذا السياق لا نتحدث عن الانطباع الذي كونه هذا المشهد، ولا عن الأفكار التي نتجت عن رؤيتك له. نحن فقط نتكلم هنا عن فعل الرؤيا والعلم ومعرفة المشهد وفهمه، ولا نتحدث عن أية انطباعات أو أفكار أو مشاعر تولّدت عن هذه الأفكار.

تعلّمت الدنيا من خلال وعيك وفهمتها وترسّخت بذاكرتك. فعندما رأيت أنت هذا المشهد، استقت ذاكرتك من مخزونها العبارات والمشاهد التي تعلمتها في حياتك... السماء، الغيوم، المطر، البلل... كلّ هذا فعل الوعي دونما أحكام ولا انطباعات ولا مشاعر...

والواقع أن الانطباعات والأحكام ومن ثم المشاعر تأتي لاحقاً... لاحقاً على مستوى الفكر ومن ثم الشعور كما سنرى في فصول تالية من هذا الكتاب...

*

تقدمت إلى وظيفة معينة، وإذا بك بعد مدّة تتلقى الجواب سلبيّاً. لم يتم قبولك للوظيفة التي تقدمت لها...

تلقيت الرد وقرأته وعلمت به، وهذا أيضاً فعل الوعي. ونحن هنا لا نتحدث عن الأفكار والانطباعات التي أتت إلى ذهنك، ولا عن الشعور الذي انتابك عندها، إنما نحن فقط نتحدث عن فعل معرفتك بما حصل : تلقيت ردّاً سلبياً. وهذا فعل الوعي...

كذلك الأمر، فإن الفكر والشعور يتبعان فعل الوعي. فأنت

استـقبلت الأمـر بوعيـك، وعلمـت بـه. الوعـي إذن هـو إدراك مـا حصـل، أو مـا رأيـت أو سـمعت أو مـا إلـى هنالـك...

*

فكما رأينا، الوعي إذن مجرّد تماماً، لا انطباعات فيه ولا أحكام... قد لا تذكر مثلاً يوم رأيت شجرة لأول مرّة في حياتك، أو طيراً أو سمكة، أو أي شيء مما تشتمل عليه الطبيعة. شاهدت وسألت وعلمت وسجّل وعيك أن ما رأيته هو شجرة، أو طيراً، أو سمكة ليستقي فيما بعد من الذاكرة عندما تواجه أمراً مماثلاً فيما بعد...

هذا هو الوعي إذن، وهكذا يعمل وهذا دوره في العقل وفي الحياة. مجرّد موضوعي لا أحكام فيه ولا انطباعات ولا مشاعر. الوعي هو أداة العقل العليا، والأقدر والأسمى... أما قوة الوعي العظمى فتكمن في أن بإمكان الوعي أن يرى الفكر والشعور كما سنرى لاحقاً في هذا الكتاب. فبمقدور الوعي أن يكون رقيباً على الفكر لكن ذلك يحتاج إلى تدريب، ومنال ذلك ليس ببعيد...

*

ولتمركـز الوعـي بالنسـبة إلـى مركـز الفكـر ومركـز الشـعور الأثـر فـي تحديـد ميـل الإنسـان وطبيعتـه وشـخصيته حتـى. والوعـي بإمكانـه التحـرك فـي أي مـكان فـوق أي مسـطحة بالعقـل فـي لحظـة معينـة طبعـاً ضمـن نطـاق العقـل وحـدوده، فيتغيـر موقعـه مـن مركـزي الفكـر والشـعور. لكنـه فـي

معظـم الأحيـان يبقـى حيـث اعتـاد أن يبقـى. غيـر أن ذلـك لا يعنـي أن هـذا الموقـع لا يمكـن أن يتغيّـر بالتـدرب والعـادة...

***

ثانياً: الفكر

إن مركز الفكر هو ثاني ثالوث العقل. أقول مركز الفكر لأنه محور حركة الفكر اللولبيّة عبر الزمن حول مركزه... أما الفكر، وهو الذي يميز الناس بعضهم عن بعض، فهو الانعكاس الذاتي غير الموضوعي للوجود في العقل. هو الدنيا كما تراها أنت، ويشتمل بالتالي على حكمك على ما استقاه وعيك وما سجّله بعد أن لحَظَه...

ففكر الإنسان إذن هو غير وعيه، لكن الإنسان ليس بذلك عليماً في معظم الأحيان. والفكر ليس موضوعياً، فهو يحمل رأي الإنسان وحكمه وانطباعاته على ما يتلقاه من خلال الوعي. وفي معظم الأحيان لا يلاحظ المرء فكره لأنه، وببساطة، ليس بالأمر اليسير أن يلحظ المرء بالذي يفكّر به... فالإنسان إنما يفكّر بالأشياء وقلّما يتأمل بالذي يفكّر به... ويقيني لو أنه يفعل ذلك لعرف أن الفكر لا يعكس الواقع أبداً، إنما هو رؤيتنا لهذا الواقع، وحكمنا عليه والانطباع الذي تكوّن لدينا... ويقيني كذلك أنه لو تأمل كلّ إنسان في أفكاره لحظة تفكيرها لما وقع تحت رحمة ما ساء من الأفكار غير المجدية وما أعيا حاله وطِيب عيشه من كآبة وقنوط وقلق... فكثير من الأفكار لا دور لها إلا في أحزاننا أو إقلاقنا وهي غير مجدية بتاتاً.

وسنرى لاحقاً في هذا الكتاب كيف أن الوعي في معظم الأحيان لا يرى الفكر كونه يقع تحت مستوى دائرة الفكر حول المركز. فيقتصر عمل الوعي عند ذلك على استشفاف الدنيا دون التأمل في الفكر وأفكاره...

يتحرّك الفكر بشكل دائري حول مركزه ليتخذ شكلاً لولبياً عبر الزمن، وفوق أي مسطحة في أي لحظة هو بالتالي دائرة مركزها «مركز الفكر» في مثلث العقل...

والفكر يعمل إلى اليسار بعكس اتجاه عقارب الساعة. وبالإضافة إلى تمركز الوعي من مركز الفكر ومركز الشعور، فالفكر يميز إنساناً عن آخر. وكلما اتسعت تجارب الإنسان في الحياة وتطوّرت تتسع دائرة الفكر مع ابتعاد مركز الفكر عن الشعور...

ودائرة الفكر التي تتحرّك لولبياً حول «مركز الفكر» في مثلث العقل شعاعها (βM)، أي المسافة بين «مركز الفكر» و«نقطة الوسط» (انظر الرسم 2) وكما سنرى في المقطع اللاحق (الشعور)، فإن نقطة الوسط لها دور كبير في عملية التفكير ونتاجها كونها تماس دائرتي الفكر والشعور.

*

الرسم 2:

مركز الوعي :α

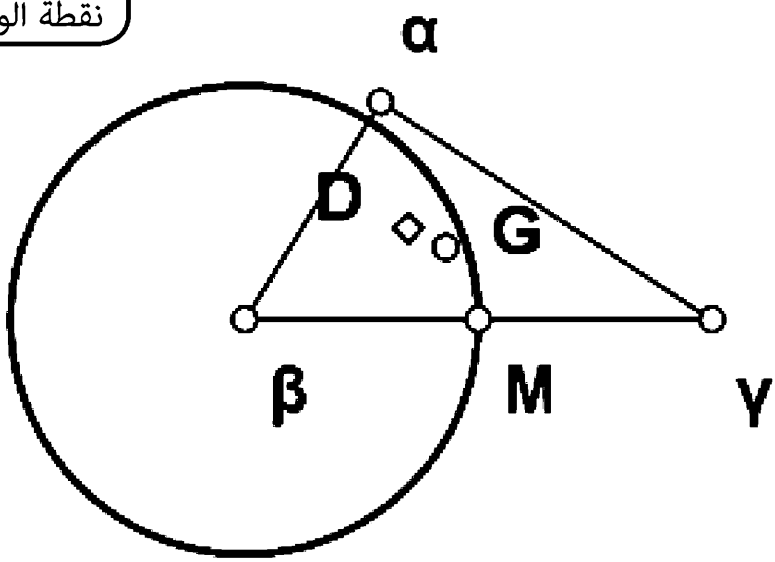
مركز الفكر : β

مركز الشعور : γ

الذنب :G

الموت :D

نقطة الوسط :M



*

الذكريات هي تاريخ الفكر الفردي، وهي مجمل الانطباعات والأحداث كما انعكست بفكر المرء في الماضي.. وهي بذلك تتخذ شكل لولب حدّه الأعلى أو أقصاه المسطحة الحالية... والذكريات التي تستحضر أفكاراً وانطباعات قد حدثت في وقت ماض، تستحضر معها الشعور نفسه الذي تولّد عندها وإن بوهج أقل بفعل مرور الزمن...

*

لكن ما هو الفكر، وكيف نميّزه عن الوعي؟

وهذا سؤال مشروع جدّاً وأساسي، وكما أسلفنا فإن التمييز بين الوعي والفكر ليس بالأمر اليسير دائماً. ويفيدنا هنا أن نستحضر مثلاً أو اثنين حتى نحاول تجسيد الفكر وكيفية عمله حتى نفهم ماهيته بشكل أوضح. فلنستخدم أو نكمل الأمثلة التي استخدمناها سابقاً في محاولة فهمنا ماهية الوعي الذاتي وكيفية عمله...

*

نظرت من نافذة بيتك، فإذا بك ترى السماء ملبدة بالغيوم الرمادية، ورأيت قطرات المطر وقد بدأت بالتساقط مبللة كل ما يقع في طريق سقوطها من السماء...

وكما أسلفنا، فإن فعل رؤيتك للمشهد هو فعل الحواس (حاسة النظر هنا)، أما فعل علمك بالمنظر الذي رأيت فهو فعل الوعي، وهو مجرّد موضوعي لا أحكام فيه.

وإذا بك تفكّر بأن الجو ملبّد وها قد بدأت تمطر، فتكره ما ترى، ويتكوّن عندك انطباع سلبي ومتجهم عن المشهد. وقد يرتبط عندك هذا المشهد بذكريات من طفولتك. فقد كان هذا المشهد رديفاً لبقائك في المنزل عوض الخروج واللعب، وبالتالي فإن الانطباع السلبي قد يتكرر في كل مرة ترى فيها هذا المشهد. أو أنه قد يكون لديك مشروع معين وقد تعكّر بفعل هذا الجو الملبّد فتكره ما ترى وتمتعض.

وقد يكون لك انطباع مختلف إذ تحب ما ترى فيترك لديك انطباعاً

إيجابياً. فقد تفكّر بالجلوس في منزلك ومشاهدة التلفاز، أو قراءة ما تحب، أو قد يستحضر المشهد انطباعاً تكوّن لديك من ذكريات جميلة لك مع المطر والشتاء...

إذن المشهد هو هو، لكن الأفكار تغيرت وهذا يميز الفكر عن الوعي ضمن هذا الإطار. الوعي مجرّد موضوعي، أما الفكر فهو عبارة عن أفكار تولّدت نتيجة المشهد وانطباعات وأحكام ذاتية غير موضوعية...

فالمشهد نفسه قد يترك انطباعاً سلبياً أو ايجابياً أو قد لا يترك انطباعا مؤثّراً أو راسخاً، ومن هذا ندرك أن الفكر لا يفسر الواقع...

*

ولنستحضر الآن المثال الثاني في تفصيلنا للوعي في المقطع السابق.

تقدمت إلى وظيفة معينة، وإذا بك بعد مدّة تتلقّى الجواب سلبياً. لم يتم قبولك للوظيفة التي تقدّمت لها.

تلقيت الرد وقرأته وعلمت به، وهذا هنا فعل الوعي...

وإذا بك تفكّر بأنك فشلت، وتتسارع الأفكار وتتراكم في هذا الإطار، فتعتقد بأنك فاشل تماماً، وأن مستقبلك أسود لا محال... وتنتقل بك الأفكار إلى فشلك المستقبلي، فتظن بأنك ستفشل على الدوام ولن تحصل على وظيفة أخرى...

أو أنك قد تثور، وتلقي باللائمة على تلك المؤسسة الفاشلة التي لم تقدر قيمتك.

أو أنك قد تفكّر بأنه خير لك أنك لم تحصل على الوظيفة لأنه قد يكون هناك عطب في هذه المؤسسة، وبأن القدر هنا هو الذي تدخل وعمل لصالحك...

أو أنك قد تستحسن أنك لم تحصل على الوظيفة، وها أنت قد أجلت تحمّل المسؤولية، فالذنب ليس ذنبك، فكما سنرى لاحقاً، فالفكر إنما هو دائم السعي للابتعاد بنفسه وبالتالي الابتعاد بالشعور عن نقطة «الذنب»... وقد تفكّر بأن لا بد اقترفت خطأ معيناً، فيتضاعف تصميمك وتشرع بالاستفادة من التجربة وتطوير ذاتك من أجل المرّة المقبلة. وعلى ذكر هذا المثال، فإن هذا هو الأقرب إلى الصواب لأنه أقرب إلى الوعي السامي، إلى الحكمة، وسنرى كيفية ذلك في قسم لاحق من هذا الكتاب...

قد يأتيك أيّ من هذه الأفكار، أو كلها بشكل متتال وذلك بحسب ما درّبت ذهنك على فعله عبر الزمن... إذن، الوضع هو نفسه، لكن الأفكار تغيّرت، وفي هذا مثال آخر عن ما يميز الفكر عن الوعي ضمن هذا الإطار. فالوعي موضوعيّ مجرّد أما الفكر فذاتي، وهو مجمل الانطباعات التي يكوّنها مشهد أو حدث معين. فالوضع نفسه ها هنا قد رتب مجموعة أفكار مختلفة، وهذا تأكيد بأن الفكر لا يعكس الواقع الموضوعي بتاتاً...

*

ولنعد الآن إلى دائرة الفكر التي تدور حول مركز الفكر. فعلى هذه الدائرة تبدأ فكرة وتنتهي، وينتقل الفكر إلى نقطة أخرى، أو فكرة أخرى لتبدأ وتنتهي، وهكذا دواليك. وقد تكون فكرة معينة من بدايتها إلى نهايتها محمّلة بالتفاصيل، أو أنها قد تكون قليلة التفاصيل، أو نادرة التفاصيل جدّاً، فيكمل الفكر دورته دون رسم تفاصيل دقيقة في الفكرة، فتمر مرور الكرام دون ثقل ولا أهمية. إذن كلّما كثرت التفاصيل والدقائق ضمن فكرة معينة كان أثرها أكبر في الحياة، وكان دورها أكبر وأعمق في تكوين الشخصية، وسنتناول تفاصيل هذا لاحقاً في الكتاب...

وتجدر الإشارة ها هنا أنه كلّما ابتعدت الفكرة عن وسط المثلث، أي عن «الذنب» و«الموت»، كانت أكثر إيجابية وولّدت مشاعر إيجابية بالتالي، غير أننا لن نخوض الآن في تفاصيل المشاعر لأننا سنتعمق بهذا المجال في المقطع التالي...

*

فلنحاول أن نتبين من خلال «الرسم 3» كيف تبدأ الفكرة وتنتهي، وكيف تكون محمّلة بالتفاصيل، وكيف لا تكون...

*

الرسم 3:

مركز الوعي :α

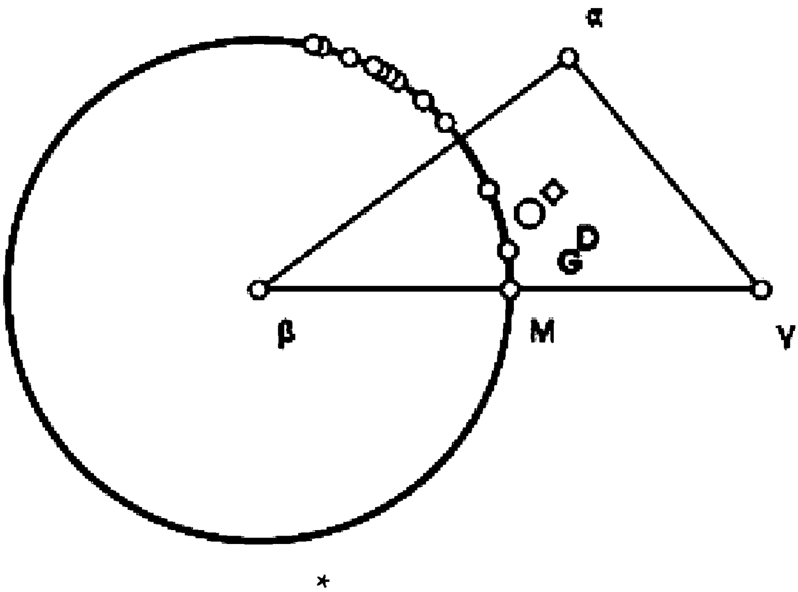
مركز الفكر : β

مركز الشعور : γ

الذنب :G

الموت :D

نقطة الوسط :M



كما في «الرسم 3»، فإن بداية الفكرة ونهايتها سجلت العديد من النقاط أو العديد من الأفكار. هناك أفكار لا تسجل الكثير من النقاط على لولب الفكر، وهناك أفكار تمرّ مرّ السحاب...

والفكـرة دائمـاً وأبـداً تسـير إلـى اليسـار، فـإن عـاودت الفكـرة الظهـور فإنهـا تكـون قـد أكملـت دورتهـا وعـادت إلـى التموضـع نفسـه فـي الدائـرة (لكـن بمسـتوى زمنـي مختلـف) فـي لولـب الأفـكار، ومـن دون تسـجيل

أفـكار فـي مـكان آخـر مـن الدائـرة، أو مـرّت فـي بعـض المواقـع دون تسـجيل أفـكار أخـرى أبـداً، أو سـجّلت مـا نـدر منهـا...

وللإشارة، فإن نظرة الإنسان إلى نفسه ذاتية تماماً وغير موضوعية، وهي بالتالي تدور ضمن نطاق دائرة الفكر مهما بدت واقعية أو حقيقية. وهي بالتالي مجموعة أفكار أو تاريخ فكري ذو ثقل في منطقة معينة في لولب الفكر بدليل أن لها انعكاساً على الشعور. من هذا نفهم ونتأكد بأننا سنكون ما نفكر عن أنفسنا، فكما ترى نفسك تكنْ. أما نظرة الآخرين، فقد يكون لها دور في التأثير على نظرتك إلى ذاتك، غير أنها لا تغير في الواقع شيئاً...

*

وهناك نوعان من الأفكار تبعاً لموضعها في دائرة الفكر. أفكار منتجة والتي من المرجّح أن تكون في القوس الخارجي من دائرة الفكر، وأفكار مجدبة لا تنتج شيئاً، وجلّ فعلها هو جعلنا كئيبين أو قلقين. والوعي وحده القدير على التمييز ما بين هذه الأفكار. فلندرّب وعينا إذن على السموّ حتى نكون قادرين دائماً على تمييز أفكارنا، وبذلك نعيش حياة منتجة لا تخضع لأحكام الفكر وترّهاته...

***

ثالثاً: الشعور

الشعور هو عاقبة الفكر ونتيجته، ومركز الشعور هو ثالث نقاط مثلث العقل...

والشعور يحوي كلّ المشاعر التي تتولّد جراء تفكيرنا بأمر معيّن... وتتراوح المشاعر بين سلبية وإيجابية، وهي تتبع موقعاً موازناً للفكر، أو مقابلاً له وكأنه مرآة للفكر يتحرك على هوى الفكر مقابلاً له...

والشعور كما الفكر يدور حول مركزه لكن باتجاه عقارب الساعة، أي إلى اليمين ويتأثر الشعور تماماً بعمل الفكر وبدفع منه. وبإمكاننا تخيل تفاعل الفكر والشعور كعمل البكرات أو الدقّات المتلاصقة، واحدة تدور وتدفع الأخرى للدوران بالاتجاه المعاكس...

وفوق أي مسطحة في أي لحظة من الزمن، تلتقي دائرة الشعور مع دائرة الفكر في نقطة الوسط M، وتمثّل هذه النقطة التي هي منتصف المسافة بين مركز الفكر ومركز الشعور تماس دائرتي الفكر والشعور في لحظة معينة. ويشكل التقاء الفكر والشعور في النقطة M، أو نقطة الوسط، قمّة الحيرة التي تسبق الشعور بالخوف كما سنرى لاحقاً في تفنيدنا لكيفية عمل العقل... فدائماً ما يسبق الخوف أو القلق الشديد شعورٌ بالحيرة الشديدة حيث تختلط الأفكار بالمشاعر وتسود حالة من التشوش الشديد، وهذه الحالة تحصل عند التقاء الفكر والشعور فوق النقطة M وقبلها وبعدها بقليل. وعندما نقول قبلها هنا، فإننا لا نعني قبلها زمنياً فقط، إنما أيضاً في موقع نقطتي الفكر والشعور فوق دائرتيهما (أنظر «الرّسم 4»).

ومثلّث العقل كما أسلفنا يعمل باتجاه معاكس لاتجاه عقارب

الســاعة، إلــى اليســار. فمــن الوعــي إلــى الفكــر إلــى الشــعور ثــم الوعــي، وبالتالـي الوعـي قـادر علـى تمييـز الشـعور والإحسـاس بـه... وتمييـز الشـعور أو إدراكـه أمـر سـهل بمـكان، ببسـاطة لأنـه آخـر حلقـة فـي ثالـوث العقـل ويعقبـه الوعـي مجـدّداً، الوعـي الـذي يملـك خاصيـة المعرفـة والتمييـز، بالإضافـة إلـى أن للشـعور أثـراً علـى الجسـد.

وحتى نتبين الشعور بحكم كونه عاقبة فكرنا، فلنستكمل الأمثلة التي استخدمناها في طريقنا إلى تبيان الوعي والفكر...

*

نظرت من نافذة بيتك، فإذا بك ترى السماء ملبدة بالغيوم الرمادية، ورأيت قطرات الماء وقد بدأت بالتساقط مبللة كل ما يقع في طريق سقوطها من السماء...

وكما أسلفنا، فإن فعل رؤيتك للمشهد هو فعل الحواس، أما فعل علمك بالمنظر الذي رأيت فهو فعل الوعي، نافذة العقل على الدنيا، والوعي كما أسلفنا أيضاً موضوعي لا أحكام فيه ولا انطباعات...

وإذا بك تفكّر بأن الجو ملبّد وها قد بدأت تمطر، فتكره ما ترى، ويتكون لديك انطباع سلبيّ ومتجهّم عن المشهد، فتشعر بالكآبة، أو بمسحة من الحزن، وهذا هو الشعور الذي نتج عن تفكيرك. وقد يستحضر هذا المشهد ذكريات معينة كئيبة، أو أنه مرتبط بذكريات من طفولتك تحمل معها مشاعر معينة...

أو أنـه إذا كان لديـك انطبـاع آخـر بـأن أحببـت مـا رأيـت، فيتولـد لديـك

شـعور بالفـرح، أو الحمـاس أو مـا شـابه... إذن هـذا هـو الشـعور، عاقبـة الفكـر ونتيجتـه... فكمـا تفكّـر تشـعر ولـو سـاءك الاعتـراف بذلـك.

*

أما في المثال الثاني، فكما رأينا أن الوعي هو الذي تلقف خبر عدم القبول بالوظيفة، وعلم به، وفي ذلك موضوعية وتجرّد وخلوّ من الانطباعات.

أما الفكر، فقد يتنوع بين أن تفكر بأنك فاشل على الدوام، فتشعر بالكآبة. وقد تثور نقمة على المؤسسة، فتشعر بالغضب، أو تفكّر بأنه خيرٌ لك بأنك لم تحصل على الوظيفة فتتعاطى مع الموضوع بقدريّة فتشعر بالاطمئنان والارتياح. إذن تنوعت الأفكار ها هنا، وبالتالي المشاعر التي تمخّضت عنها، والمشاعر هنا كما دائما إنها عاقبة الأفكار... الشعور هو عاقبة الفكر ليس إلا...

*

ها قد اكتمل أمامنا مثلث الوعي والفكر والشعور، مثلث العقل... وسنرى لاحقاً أن الوعي غالباً ما يعجز عن رؤية الفكر وإدراكه بحكم كونه تحت مستوى دائرة الفكر.

أدناه خلاصة لما سبق عن مثلّث العقل وعن الأفكار التي قد تتبادر إلى أذهاننا...

1 ـ علمت أنك فشلت في الحصول على الوظيفة ← الوعي.

2 ـ تظن أنك فاشل تماماً ← الفكر.

3 ـ تشعر بالكآبة ← الشعور.

إذن كما نرى في المثال أعلاه، فإن فعل العلم، أو فعل الوعي أنك فشلت هو عمل الوعي، وفعل التفكير في أنك فاشل هو عمل الفكر، أما فعل الشعور بالكآبة والحزن فهو عمل الشعور. في غالب الأحيان نحن لا ندرك النقطة 2، والتي هي عمل الفكر. بمعنى أننا نفكرها لكن لا نعي أنّنا فكرنا بها، وهنا بيت القصيد...

فالوعي، الذي كان مسؤولاً عن علمك بالحدث، وهنا عن علمك بأنك فشلت مثلاً، بإمكانه أن يعي أيضاً بأنك فكرت بأنك فاشل تماماً. وهذا يكون بحالة ارتقاء الوعي إلى ما فوق مستوى الفكر... عند ذاك يمكنك أن تعي الأفكار السلبية، وسترى عندها بأنها ذاتية غير موضوعية ولا تعكس الواقع أبداً... وعند ذاك أيضا بإمكانك أن تصوب تفكيرك، أي أن تغير مكان الفكرة على دائرة الفكر...

كما أن ما نفكّر به هو عادة وتدريب. فكما اعتدنا مثلاً على التفكير بسلبية تجاه الأمور، بإمكاننا أن ندرّب وعينا على مراقبة أفكارنا، وبالتالي تدريب فكرنا على الإيجابية... ولاحقاً سنلاحظ أن طريقة تفكيرنا ستتغير، وسنصل إلى مستوى من الحكمة حتماً سيغير حياتنا تماماً ويغير نظرتنا إلى الأمور. فتجاه حدث واحد، بإمكاننا أن نفكر سلباً أو إيجاباً، لكن واقع الحدث لا يتغير، فما الضرورة التي تحتم التفكير سلبياً بالموضوع؟! حتماً لا ضرورة أبداً...

***

الوعي و«الآن»

إنّ التدرّج الزمني لعمل الوعي، الفكر، الشعور في أية عملية داخل العقل هو وفق الترتيب السابق كما ذكرنا، أي الوعي ثمّ الفكر ثم الشعور.

وبالتالي إذا أخذنا الوعي α، الفكر β، الشعور γ في ثلاث لحظات معيّنة 1 و 2 و 3 إلى آخره... وإذا قمنا بتدوين ذلك في جدول سيتكوّن لدينا التالي:

الجدول 2:

اللحظة	الوعي	الفكر	الشعور
(n)	(n) α		
(n+1)	(n+1) α	(n) β	
(n+2)	(n+2) α	(n+1) β	(n) γ
(n+3)	(n+3) α	(n+2) β	(n+1) γ

إنّ العملية التي يقوم بها الوعي في أي لحظه إنّما تكون في تلك اللحظة بالتحديد، فالوعي دائماً ما يعبرّ عن «الآن»، إنّه «الآن»...

***

فالوعي هو الأقوى بين عناصر العقل، هو السّلطان بواقع أنّه يعمل في الحاضر، في «الآن»، والحاضر أقوى من الماضي وأقوى كذلك من المستقبل. ففيه يحصل التغيير في الوجود، فيه تكوّن الماضي

وسـيتكوّن المسـتقبل. فالماضـي قـد كان «الحاضـر» فيمـا سـبق، وأمسـى جـزءاً مـن الحاضـر الجديـد، مـن «الآن» الـذي بـدوره يبنـى عليـه المسـتقبل الـذي سـيصبح «الحاضـر» فيمـا بعـد.

الماضي ثابت لا يمكن أن نغيّر فيه شيئاً، والمستقبل مجهول لا سبيل لأن نعرفه حتّى نبحث إن كان بإمكاننا أن نغيّر فيه. أما الحاضر فهو ملكٌ لنا، ملك لوعينا، وفيه ومنه يبدأ التغيير.

غير أنّنا كثيراً ما نخلط بين «الآن» وبين الماضي القريب، أي بينه وبين ما نسمّيه غالباً «الواقع» أو «الحاضر»، وهي تسمية مغلوطة اعتدنا عليها. فـ«الآن» هو الواقع في اللحظة هذه، في اللحظة ذاتها وليس «الأمر الواقع» إذا صحّ التعبير. هو ما نفكرّ به الآن وما نفعله في اللحظة بتعاطينا مع واقع موجود. بمعنى آخر، إنّ الواقع يصبح ماضياً بمجرّد أن يحصل، أي بعد لحظة من حصوله وليس أبعد من ذلك...

بمعنى آخر، إذا كان هناك من «واقع» معيّن، واقع تعيشه في هذه اللحظة، فالحاضر أو «الآن» هو ليس ذلك الواقع لأنه أمسى ماضياً بمجرّد حصوله، إنّما «الآن» هو ما تفكّر به وتفعله إزاء ذلك الواقع في اللحظة ذاتها... إنّ شرح وتوضيح هذه النقطة من الصعوبة بمكان...

الحاضر أقوى من الماضي وأقوى من المستقبل، وكما رأينا فهو قد كوّن ماضينا ويكوّن مستقبلنا... وإذ أتحدّث عن المستقبل، يأتي إلى ذهني موضوع التوقّع الذي هو مسألة مستحيلة تماماً، لكنّنا دائماً ما نمارسه، وهو من فعل الفكر.

والفكر، كما أسلفنا، هو انطباعنا عن أحداث حصلت كان قد تلقّفها وعينا في لحظة معينة وتطبّعت بفكرنا وتنكّهت وأمست جزءاً من تاريخنا الفكري، أمست من ماضينا الفكري... وإنّنا إذ نتوقّع، فإنّ جلّ ما نفعله هو عملية إسقاط للماضي على (ما نظنّه) المستقبل... نستخدم وقائع ومعطيات ووسائل نعرفها، وهي جزء من تاريخنا الفكري، ونستخدمها لاستشفاف وتوقّع المستقبل. غير أنّ المستقبل الذي نمارس عمليّة استشفافه ونحاول توقّعه إنّما له واقعه ومعطياته التي لا تنطبق إلا عليه. والأمر سيّان بالنسبة إلى التوقّعات السلبية والإيجابية، المحزنة و المفرحة، المريحة و المخيفة...

*

كثيراً ما نخاف من حدوث شيء معيّن نتوقّعه، نفكّر فيه كثيراً حدّ الإجهاد ونمارس القلق. قد نخاف من الفشل في مقابلة للحصول على وظيفة مثلاً، أو نخاف من فكرة نهاية علاقة معيّنة مع شريك... هناك العديد من الأمثلة التي قد تعطى ضمن هذا الإطار... لكن دائماً عندما يحدث ما كنّا نتوقّعه، نجد أن أثره أقلّ بكثير ممّا كنّا نخاف، وممّا كنّا نتوقّع.

في الحقيقة، إنّ هذا ليشرح كيف أنّ الواقع إنّما يتم إنتاجه «الآن»، كيف أنّ الحاضر هو الأقوى، وهو الذي يصنع التاريخ... فالأفكار التي نفكّرها ونحن نستشف المستقبل إنّما هي الحاضر في هذه اللحظة، هي الواقع في هذه اللحظة، وكلّ ما نفعله لحظتها هو الواقع عينه. حتّى

الألـم أو الخـوف الناتـج عـن ممارسـة القلـق علـى المسـتقبل هـو الواقـع، لحظتهـا... وعندمـا يأتـي مـا كنّـا نخـاف منـه، فإنّـه يصبـح الواقـع الجديـد مـع الأفـكار الجديـدة التـي سـتتولد لحظتهـا، بينمـا سـيصبح كلّ الخوف والقلـق الذي مارسـناه مـن قبـل جـزءاً مـن تاريخنـا... بمعنـى آخـر، إنّ الحـدث المسـتقبلي الـذي كنّـا نمـارس القلـق إزاءه لـم يصنعـه ذلـك القلـق، إنّمـا سـيتكوّن مـع معطيـات الحاضـر الجديـد، الحاضـر الـذي سـيأتي بعدهـا. بينمـا كان القلـق فـي لحظـة ممارسـته هـو الواقـع وقتهـا ليـس أكثـر مـن ذلـك... الحاضـر إذن هـو الـذي يصنـع التاريـخ...

والأمر ينطبق أيضاً على الأحداث المفرحة... فبطبيعة الحال إن تعليق الآمال على حدث معيّن أو تغيير معيّن منشود سينتج أفكاراً ومشاعر سيخفت بريقها مع قدوم هذا الحدث، مع تكوّن الواقع الجديد الذي له معطيات وأفكار ووقائع جديدة ومختلفة...

إنّ التكهّن ومحاولة استشفاف المستقبل لمضيعة تامّة للوقت والطاقة على السواء...

*

بالمقابل، فإنّ الأحداث «الساحقة» إذا صح التعبير، أو التي تؤثّر فينا بشكل كبير وتغمرنا فنغرق فيها تماماً هي تلك التي تأتي دون أن نتوقعها، تأتي فجأة. تلك الأحداث هي واقع جديد فجائي بمعطيات جديدة وأفكار جديدة، واقع جديد أتى من حيث لا ندري، من التفاصيل التي لا نعرفها، والتي ليست جزءاً من تاريخنا الفكري الذي

دائماً ما نقوم بإسقاطه على المستقبل في محاولة لاستشفافه باستخدام وسائل ومعطيات تقع في الماضي...

*

الرسم 4:

مركز الوعي :α

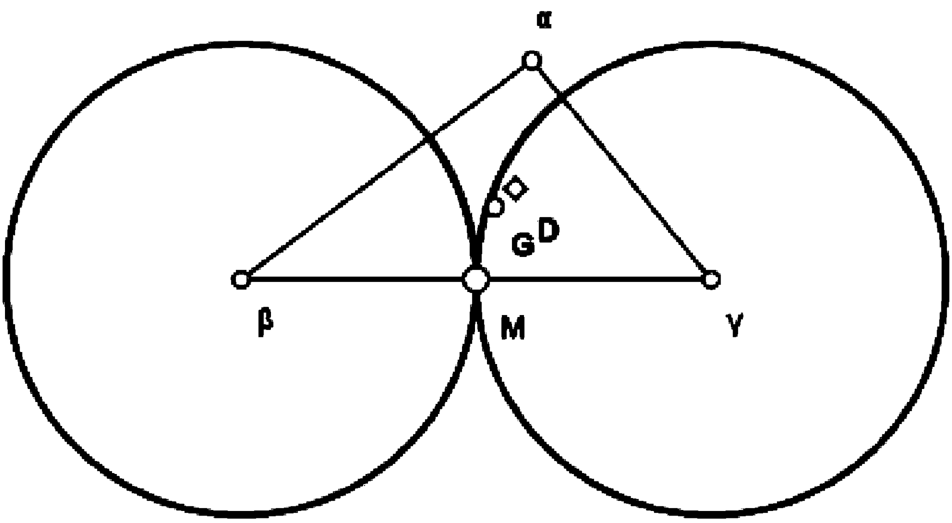
مركز الفكر : β

مركز الشعور : γ

الذنب :G

الموت :D

نقطة الوسط :M



*

كما نرى في «الرسم 4»، فإن دائرة الشعور مقابلة لدائرة الفكر. ويتحرك الشعور بشكل معاكس للفكر. وكما أسلفنا، فإن التقاء الفكر

والشـعور فـي نقطـة الوسـط M هـو اللحظـة التـي يكـون فيهـا الإنسـان فـي قمـة الحيـرة والتشـوّش الـذي يسـبق القلـق أو الخـوف. ولـكل نقطـة علـى دائـرة الفكـر انعـكاس فـي نقطـة مقابلـة فـي دائـرة الشـعور، وبالتالـي فـإن لـكل فكـرة تراودنـا انعكاسـاً شـعورياً حتمـاً...

*

أخيراً، إن نصف الدائرة السفلي من دائرة الفكر هو الخيال الذي لا يمكن للوعي أن يراه، واللاواقع البعيد عن الوعي. وبالتالي، فإن الحدّ الفاصل بين الفكر الواعي واللاواعي أو بين الواقع والخيال هو ذلك الخط المستقيم (β M`)...

******

كيف يعمل العقل

كما كلّ شيء في الوجود، العقل هو تلك العلاقة الجدلية، تلك التوازنات المستندة إلى مؤثرات متعدّدة. وكما أسلفنا، فإنّ قدرة الوعي الإراداويّ لدينا هي ما يميزنا عن بقية الكائنات، أي ما يميّز عقلنا... ففكرنا يتحرك كانعكاس للدنيا كما نراها نحن وكما نحكم عليها، وشعورنا هو نتاج فكرنا، أما وعينا فهو الوحيد الذي لنا قرار فيه، وهو القدير على التحكم بكلّ شيء والتحرّك ضمن إطار العقل.

الوعي هو المكوّن الإرادوي الوحيد في الوجود...

***

القوى المؤثرة ضمن العقل

والقوى المؤثّرة ضمن العقل تتعدّد وهي طاقويّة تماماً. وهي إما يكون لها ذات محدّدة، وإما تكون وهميّة نتاج علاقة جدلية وتوازنات بين عوامل أخرى، وسنفندها وندخل إلى تفاصيلها في هذا الفصل حتى نفهم عقلنا أكثر، وندرك كيفية عمله...

الوعـي: وهـو أسـمى مكونـات العقـل وأبعدهـا عـن التمـاس المباشـر مـع الطبيعـة اللاإرادويـة. وللوعـي سـلطان علـى ذاتـه وعلـى الفكـر كذلـك.

وهـو، وإن ليـس لـه دور فـي دوران الفكـر حـول مركـزه أو محـوره، غيـر أن لـه أن يؤثـر فـي الفكـر. هـذا فضـلاً عـن أنـه يغـذي الفكـر بالمعلومـات الموضوعيـة التـي يتلقفهـا الفكـر ويطبّعهـا وينكّههـا فتولّـد شـعوراً معينـاً.

مركز الفكر: وهو ثاني نقاط مثلّث العقل. ويتحرك الفكر على دائرته حول مركز الفكر إلى اليسار بعكس اتجاه عقارب الساعة. ويتحرك مركز الفكر أفقيا إلى اليسار مع الزمن، فيتوسع نطاق الفكر وتتسع دائرته.

مركز الشعور: ويدور الشعور حوله متأثراً بدوران الفكر حول مركزه.

الفكر: وهو الذي يدور حول مركزه لينتج التفكير، وليرسم الذكريات ويسجلها في مخزون الفكر... والفكر يدور دائرياً حول مركزه ويلتقي مع دائرة الشعور في نقطة الوسط، وهي منتصف المسافة بين مركزي الفكر والشعور...

الشعور: وهو الذي يدور حول مركزه، مركز الشعور، متأثراً بدوران الفكر. وتتسع دائرة الشعور كلما ابتعد مركز الفكر عنه حيث تبتعد النقطة M، أو نقطة الوسط، عن مركز الشعور.

الإرادة: وهـي خـط مستقيم وهـميّ ينطلق مـن الـوعـي متماسّ مع دائـرة الفكر في النقطة (W)، أو نقطة الإرادة. فكلما كـان الوعي غارقاً تحت مستوى دائـرة الفكر كانت الإرادة أضعف. والإرادة ها هنا ليس المقصود بها المعنى البسيط المتداول لـلإرادة، إنما ذلك المعنى

المرتبط بالتصميم الواعي، والقدرة الحكيمة على تخطّي أصعب خصم في الوجود، تلك المعيقات الذهنية الذاتية الناتجة عن ترّهات الفكر.

الذنب: وهو مركز ثقل مثلث العقل. كلما اقتربت الأفكار والمشاعر من مركز الذنب، زاد وهجها وتأثيرها على الوعي، وزاد تأثيرها على الفكر أيضاً فيضج بالتفاصيل ويثقل.

الموت: وهو مركز الدائرة الداخلية لمثلث العقل. وكما الذنب، فإن اقتراب الأفكار والمشاعر من مركز الموت يزيد كذلك من وهجها وتأثيرها على الوعي، ويزيدد أيضاً تأثيرها على الفكر كذلك فيضج بالتفاصيل ويثقل.

الخوف من الموت والخوف من الوقوع بالذنب هما الهمّان الأساسيان اللذان يواجهان المرء، وكل الهموم الأخرى إنما تتفرع من هذين الهمّين، أو ترتكزان عليهما...

وهناك عامل جذب آخر وجب ذكره هنا، وهو وزن الأفكار وثقلها في موقع معين من لولب الفكر. فالفكر في دورانه حول مركزه إنما يسجل أفكاراً وتفاصيل في الذكريات. وكلما كثرت التفاصيل في مكان ما معين من العقل، وكلما كان رسوخ الأفكار قوياً في منطقة معينة من لولب العقل، كثر ثقله، وبالتالي قويت جاذبيته وتأثيره، ولذلك أثر كبير في تحديد تفكير المرء وتصرفاته وشخصيته واتجاهاته...

***

عمل العقل

يعمل العقل كما أسلفنا نتيجة التجاذبات والتوازنات القائمة بين مجموع العوامل المتجاذبة والمؤثرة في العقل. وإذا كان الوعي ميزة الإنسان الكبرى، فإن الفكر هو قيمة إنسانية كبيرة كونه يسهم في تحديد هوية العقل الفردي وتميزه عن عقل آخر، هذا بالإضافة إلى تموضع الوعي من الفكر والشعور...

ولأن الفكر هو انطباع الحياة فينا، فإن دوره في الحياة وفي المجتمع مؤثر جدّا، وفي أهوائنا أيضاً وفي طبائعنا...

والفكر إنما يدور حول مركزه بقصد إبعاد الذنب والموت عن الشعور. وهذه الآلية ليست آلية ميكانيكية وليست نتاج قرار معين وإرادة خلق، إنما نتاج زمن هائل عامر بالتناقضات والتجارب والارتقاء الذي اصطفى بهذا النمط من علاقة الفكر بالشعور والوعي أيضاً...

والفكر بدورانه حول مركزه يدفع الشعور إلى الدوران حول مركزه أيضاً كما أسلفنا بقصد إبعاد الشعور عن منطقة الوسط في مثلث العقل، والتي تحوي ثنائي الذنب والموت. إن هذه الآلية التي أنتجها ارتقاء العقل البشري عبر التاريخ ويستمرّ بها، إنما تهدف إلى حماية العقل، حماية الإنسان. والشعور الذي هو آخر حلقة من مثلّث العقل هو الأقرب إلى الطبيعة، إلى الجسد، والأكثر احتكاكاً وتأثيراً به سلباً وإيجاباً.

وقد يتبادر إلى ذهنك الآن وقد قرأت هذه السطور أن هناك أشخاصاً لا يشعرون بالذنب مهما فعلوا، وذلك صحيح تماماً، وسنرى ذلك في المقطع التالي في بحثنا في الطبائع والشخصيات...

وكون الفكر هو الانطباع الذي تكوّنه الدنيا بداخلنا، فإن الفكر بدورانه حول مركزه يسجل الذكريات، ويطبع الأفكار في الذهن. وبالتالي فإنه كلما تركّزت الأفكار في موقع معين من لولب الفكر، زاد ثقله وبالتالي جاذبيته وتأثيره على الفكر وعلى توازنات العقل.

*

وتموضع الوعي بالنسبة إلى مركزي الفكر والشعور إنما يحدد شخصية المرء وكيانه وتميزه عن بقية البشر. وكون النقاط لا متناهية العدد في كل مسطحة وفي أي مكان في العقل، فبالتالي فإن تمايز البشر عن بعضهم البعض لا متناه أيضاً...

ونطاق حركة الوعي هو ضمن دائرة مركزها نقطة الوسط M، وشعاعها المسافة بين نقطة الوسط وآخر حدّ للفكر يساراً أو الشعور يميناً (β_1 و γ_1 في «الرّسم 5»)، وسنرى تفاصيل ذلك فيما بعد.

أما نطاق رؤية الوعي للفكر فهو يقع ضمن خطّي التماس مع دائرة الفكر المنطلقين من الوعي، طبعاً شرط أن يكون الوعي لا يقع ضمن نطاق دائرة الفكر لأنه عندئذ يستحيل انطلاق خطي تماس من الوعي مع دائرة الفكر... فالعقل الغارق في التفكير والذي يتماهى وعيه مع فكره ويتداخل به من المستحيل أن يعي ما يفكّر.

وكما سنرى لاحقاً، فإن الوعي، لحسن حظ الإنسان، لا يقدر على رؤية الأفكار الجميلة الملأى بالتخيلات وقت التفكير بها مهما ارتقى وعيه عن دائرة الفكر، لأن هذه الأفكار إنما تقع في أسفل دائرة الفكر إلى اليسار. فالأفكار الجميلة الحسنة لا يقطعها الوعي أبداً، ولا يقطعها إلا الفكر نفسه بالانتقال إلى فكرة أخرى...

ها قد اكتمل مشهد العقل أمامنا (انظر الرسم 5)، وأصبح بالإمكان فهم كيفية عمله بشكل أوضح. غير أن أفضل وسيلة لفهم العقل هي تأمله لذاته، وذلك إنما هو أفضل الوسائل لفهم العقل ولسمو الوعي.

*

إنّ الوعي كما أسلفنا هو أداة المعرفة لدينا، ويترسّخ فينا بمعلوماته عبر الذاكرة. هو الأداة التي تلحظ الواقع المطلق، الواقع الحقيقي إذا صحّ التعبير، وبالتالي فإنّه لا يمكن أن يرتّب شعوراً، فالشّعور هو عاقبة الانطباعات التي يخلقها الفكر.

دائماً ما تخدعنا هذه النقطة، وتنطلي علينا ترّهات الفكر، ودائماً ما نخلط بين الوعي والفكر في حياتنا اليوميّة؛ بين الواقع المطلق الذي يلحظه الوعي، والانطباعات الذاتيّة التي يقوم بها الفكر. وفي معظم الأحيان، حتى عندما نحاول النظر في هذا الموضوع نظرة مجرّدة تحليليّة، يصعب علينا قبول أن أفكارنا لا تعبّر عن الواقع المطلق، وإنّما

هـي انطباعاتنـا عنـه. فنحـن دائمـاً مـا نظـنّ أنّ أفكارنـا هـي تعبيـر عـن الواقـع، عـن الحقيقـة.

والأمر يصير أكثر صعوبة حين تكون الأفكار مختصرة جدّاً، سريعة جدّاً... حين تكون انطباعات عن واقع يمرّ معنا دائماً واعتدنا عليه، فيصبح معه الشعور المترتّب عن أفكارنا أشبه بردّ فعل تلقائيّ.

أذكر مثلاً أنّي سمعت أغنية لإحدى المغنيات المعروفات هذه الأيام في لبنان، وقد كنت شديد الحزن عظيمه وقتها. ولاحقاً استمررت، ومن دون قرار منّي، في استحضار المشاعر نفسها كلّما سمعت هذه الأغنية. لقد كان يظهر لي أنّ مجرّد سماع الأغنية يستحضر مشاعر الكآبة وإن بوهج أقل... لاحقاً، ومن خلال استخدام تقنيّات التأمّل الذاتي، أصبح الأمر أكثر وضوحاً، ومذ ذاك دأبت على تدريب فكري عبر ربطه بمشاعر جميلة كلّما سمعت هذه الأغنية حتى خفت شعور الكآبة والحزن المرتبط بتلك الأغنية تماماً... تحوّل من شعور عميق بالكآبة إلى مسحة لطيفة من الحزن الجميل...

فلا عجب إذن في أن ترتبط أشياء أو مظاهر بسيطة بشعور محدّد، سلبياً كان أم إيجابياً... فكم من مرّة تصادف أشياء فتشعر بحزن لا تعرف له أساساً، رغم أنّك قد تكون على يقين من أن لا ذكريات لك مرتبطة بهذا الحزن. قد يكون شعوراً دفيناً بعده بعد طفولتك عن الآن، ووهج الشعور خافت خفوت ذكرياتك عن تلك الأيام...

*

أخيراً، وكما في الرسم 5، فإن نطاق رؤية الوعي حدّه الأقصى يساراً هو خط الإرادة. فنقطة الإرادة (I) هي آخر نقطة يراها الوعي من الفكر..

أما نقطة الوسط، أو نقطة الحيرة M، فلا يراها الوعي أبداً مهما جنح يميناً كونها تقع في ظل دائرة الشعور، أي في ظل الشعور... وفي أحسن الأحوال تكون حدّه الأقصى في الرؤيا إذا كانت تقع على خط تماس دائرة الفكر انطلاقاً من الوعي، وهو عندما يكون مثلث الأضلاع له ضلعان متساويان (الوعي/ مركز الفكر) و(الوعي/ مركز الشعور).

*

الرسم 5:

مركز الوعي :α

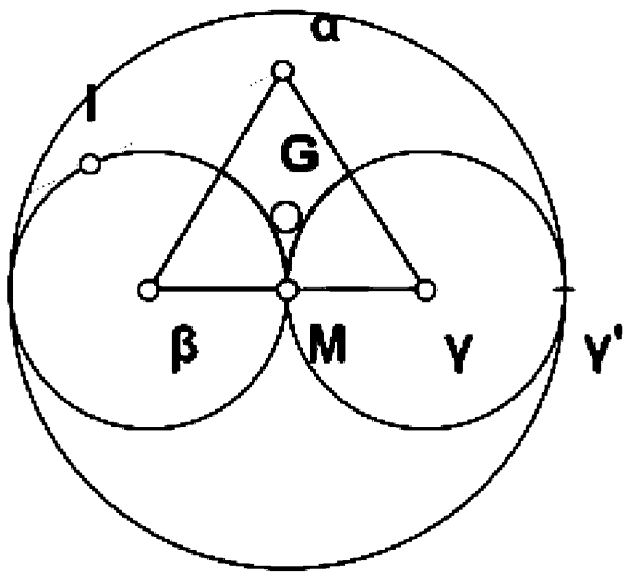
مركز الفكر : β

مركز الشعور : γ

الذنب :G

الموت :D

نقطة الوسط :M



كيف يغرق الوعي؟

العقل هو عملية تجاذب العوامل التي يشتمل عليها، وهو بالتالي قائم على توازنات بين هذه القوى المكونة له. وبالنتيجة، إن الوعي إنما يتأثر بجذب كلّ القوى العاملة بالعقل، كلّ القوى الجاذبة، بشكل مباشر أو غير مباشر، فيتغير مكانه بالتالي وتموضعه بالنسبة إلى مركزي الفكر والشعور...

إن غرق الوعي هو نتاج تأثره بثقل الأفكار والمشاعر المتراكمة على لولب الفكر والشعور بالمقابل. وكلما اقتربت الأفكار والمشاعر المتولّدة بالتالي من مركز الذنب ومركز الموت كلما زاد وهجها وبالتالي ثقلها وتأثيرها على الوعي فتجذبه نحوها نزولاً. ومن الطبيعي كون العقل مثلّثاً أنه كلّما غرق الوعي اقتربت الأفكار من مركزي الذنب والموت وتضاعف ثقلها بالتالي أيضاً وأيضاً. وكلّما غرق الوعي، زاد تشوش العقل، وبالتالي أصبح الإنسان أكثر ميلاً لمعاناة علل النفس كالكآبة والقلق المزمن وما إلى هنالك... فلا عجب بالتالي أنّ الأفكار الحزينة القريبة من الذنب والخوف من الموت إنما تظهر لنا كدوامة، كحلقة مفرغة دائماً ما تعود إلى المكان نفسه ولا تستكين أبداً.

غير أنه بإمكاننا الارتقاء بوعينا، إذ إن الوعي هو القوة الوحيدة من عوامل العقل ومكوناته التي لها سلطان على حركتها وعلى العقل بالتالي، وسنرى كيفية ذلك لاحقاً...

ومن هذا ندرك أنه كلّما عملنا، عبر السموّ بوعينا، على تركيز الثقل في مناطق التفكير الإيجابي البنّاء والمنتج، زدنا الثقل في تلك المنطقة من حلزون الفكر والشعور، وأسهمنا في توازن مثلث العقل لدينا، وسمونا بوعينا بالتالي...

والتفكير الإيجابي هنا لا يعني التفكير بأن الدنيا بألف خير، أو محاولة رؤية الأمور بإيجابية. فهذا النمط من التفكير هو النمط السلبي ذاته وهو في الإطار ذاته والدوامة ذاتها كونه يهدف للابتعاد عن الذنب أو الموت. التفكير الإيجابي هو التفكير المنتج الذي يهدف إلى أمر معين، أو نتيجة معينة بدلاً من النمط اللوّام للذات أو للآخرين أو الاحتجاجي أو القلق...

***

كيف يؤثر الشعور في الفكر؟

إن الشعور كما تعلّمنا هو عاقبة الفكر ونتيجته، وبالتالي فإن الأمور لا تسير بطريقة عكسية. بمعنى أن الشعور لا أثر له على الفكر بشكل مباشر. غير أن الشعور يرسل نتاجه إلى الوعي، أي إن الوعي يستشعر ما نحسّ به من مشاعر ويتلقن من مركز الشعور نتاج الشعور، وبدوره الوعي يرسله معلومة إلى الفكر. وهكذا، فإن المشاعر السلبية تولّد أفكاراً سلبية تولّد بدورها المزيد من المشاعر السلبية وهكذا دواليك...

ومـن هـذا أيضاً نـدرك أن لا حـلّ إلا بارتقاء الوعي وسـمـوّه حتى

يتمكّن من تصويب الفكر وتركيزه في مناطق بناءة تنعكس إيجاباً على مشاعرنا...

وإزاء هذا الواقع، لا عجب في أنه من الصعب أن نخرج أحياناً من دوّامة الأفكار السلبية لأن المشاعر التي تنتجها إنما تولّد أفكاراً سلبية أخرى، والمزيد من الأفكار السلبية التي تسيء إلى حالنا...

وفي بعض الأحيان تنقطع دوّامة الأفكار السلبية بحدث معيّن يستقيه الوعي من الدنيا، فينعكس على الفكر الذي يمرّره بعملية التفكير. وإذا كان هذا الحدث كثير الإيجابية بمكان حيث يسترعي الكثير من التفاصيل ودقائق الأمور، فقد يكون له دور في تركيز الأفكار في مكان ما معيّن من دائرة الفكر، وبالتالي في تغيير مركز الثقل في الفكر، ليتأثّر بالنتيجة تموضع الوعي...

والعكس صحيح أيضاً إزاء الأمور السلبية التي تحصل، والصدمات وما إلى هنالك، حيث يتركّز الفكر في منطقة سلبية، فيزيد ثقلها ويغرق الوعي بالنتيجة خاضعاً تحت وطأة جذب الثقل الكامن في الخانات السلبية من الفكر الوهاجة بواقع قربها وتأثّرها بالذنب والموت في الوسط.

***

دور الإرادة

الإرادة كما أسلفنا هي مقدار انحناء المستقيم المنطلق من الوعي بتماس مع دائرة الفكر في نقطة معينة يحدّدها تموضع الوعي بالنسبة

إلـى مركـز الفكـر. ومـن السـهل إذن أن نـدرك أنـه كلّمـا ارتقـى الوعـي قويـت الإرادة إذ يزيــد انحناؤهــا نــزولاً نحــو دائــرة الفكــر... ولأن تموضــع الوعــي يختلـف بيـن النـاس بشـكل لامتنـاه، فـإن تمـاس الإرادة مـع دائـرة الفكـر يتغيـر ويختلـف بيـن النـاس.

أما إذا كان الوعي ضمن دائرة الفكر، فيستحيل على الإرادة العمل. فتموضع الوعي في هذا المكان إنما يلغي مفعول الإرادة تماماً. وبالتالي فإن الفكر وحده هو الذي يسيّر أولئك البشر الذين يسيرون وفق مشيئة الحياة لا مشيئة وعيهم، فتتقاذفهم الحياة عبر أفكارهم أنّى شاءت فيعيشون على هامشها لا قرار لهم بها...

وقد تعمل إرادتهم في لحظة سموّ لوعيهم عن المكان الذي اعتاد عليه، لسبب أو لآخر كما سنرى لاحقاً، لكن وعيهم سرعان ما يغرق إلى ما دون مستوى دائرة الفكر فيعودون إلى سابق عهدهم. وإزاء أولئك لا سبيل إلا بتدريب الوعي على السموّ، ولذلك سبل متعددة كما سنرى، فيكسبون بذلك طموحهم وإرادتهم...

***

نحن نميل إلى التفكير بسلبية

نحــن نميــل إلــى التفكيــر بســلبية، والتفكيــر بســلبيّة أســهل بكثيــر مــن التفكيــر البنّــاء... إنّ قــوة جــذب الذنــب والمــوت إلــى الوســط كبيــرة جــداً، والوعــي ســهل الغــرق إلــى مــا دون مســتوى دائرتــي الفكــر والشــعور متأثــراً بالأفــكار والمشــاعر الوهاجــة، بالإضافــة إلــى الذكريــات الأليمــة.

والأخيـرة أيضـاً تقـع فـي منطقـة الوسـط فـي كلّ دائـرة مـن لولـب الفكـر ولولـب الشـعور، المنطقـة القريبـة مـن مركـزي الذنـب والمـوت. مـن الجميـل أن لوعينـا سـلطاناً علـى ذاتـه، فيعمـل علـى خروجـه وارتقائـه مـن الجحيـم الـذي يكمـن فيـه.

والناس الذين اعتاد فكرهم، أو دربوا عقلهم على التفكير بشكل بنّاء وإيجابي، قليلاً ما يتعرضون لجذب وتأثير الذكريات السيئة، ببساطة لأن فكرهم ينتقل من المواقع السلبية إلى الإيجابية حيث مركز الثقل الكبير لديهم...

وحتى نفهم هذه النقطة أكثر، فلنستعرض مثلاً ونحاول تطبيقه عليها، وسنرى كيف أن مركز الثقل في الفكر يجذب الأفكار إليه ويحدد أبداً استمرار نمط التفكير، إلا إذا درّب المرء فكره من خلال ارتقاء وعيه حتى يقدر على تمييز الأفكار السلبية، تلك التي تترك عميق الأثر في الشعور...

حدث مثلاً أن تعرّضت لانتكاسة مالية كبيرة، وإذ علمت، بدأت بالتفكير بوضعك، وبأنك لن تقدر على إعالة عائلتك واقتربت من نقطة الذنب في وسط مثلث عقلك لأن هذه الأفكار تقع بالذات في تلك النقطة من دائرة فكرك، وبدأ يراودك شعور بالكآبة والحزن العميق، أو شعور بالقلق والتوتر... وإذا راودتك هذه الأفكار، فلأن فكرك اعتاد على هذا النمط من التفكير حيث أن تاريخك الفكري مفعم بأفكار وتفاصيل في هذه المنطقة من لولب الفكر الذي يشتمل عليه تاريخك إزاء هذه الأحداث. وبالتالي، فإن قوة جذب هذه الأفكار التي تقع في

هذا الموقع من دائرة فكرك كبيرة جداً، وبالنتيجة فإن عامل الجذب فيها قويّ تماماً...

وحده سموّ الوعي وارتقاؤه هو القدير على تصويب تفكيرك في هذه الحالة... أو أنك قد تنطلق للتفكير بحلول لمشكلتك، فيعمر الفكر في منطقة أخرى من دائرته والتي تقع إلى اليسار العلويّ مثلاً. وإذا كان وعيك سامياً، فإن الإرادة إنما تدفعك بقوة حتى يتحقق ما تصبو إليه وتريده في هذا المجال. وفي هذه الحالة، فإن تاريخك الفكري مثقل بأفكار راسخة في تلك المنطقة من لولب فكرك عبر الزمن، وبالتالي فإن ثقلها كبير وقوة جذبها كبيرة بحيث تجذب الأفكار الجديدة إلى تلك المنطقة بالذات...

وكما أسلفنا، فإن تموضع الوعي بالنسبة إلى مركزي الفكر والشعور يتأثر بثقل الأفكار، وبالتالي له دور كبير في تأكيد وتسريع وترسيخ هذا النمط أو ذاك من التفكير...

***

لا يمكننا مقاومة الأفكار السلبية

رغم أنه قلّما نعلم ذلك، غير أنه بإمكاننا أن نلاحظ أن الأفكار السلبية لا تمكن مقاومتها، ببساطة لأنه لا يمكن تغيير دوران الفكر حول مركزه من الاتجاه يساراً إلى الاتجاه يميناً... فكلّما حاولنا مقاومة الأفكار السلبية ورفضها، زاد طغيانها إذ تكثر التفاصيل بين حدود الفكرة نفسها...

وفي هذه الحالة، أفضل ما يمكن فعله هو القبول بما تقوله الفكرة السلبية. بمعنى الذهاب إلى نهاية الفكرة وتخطيها دون السماح لها بتسجيل التفاصيل فيعظم ثقلها...

وبذلك فإنك تفسح في المجال أمام الانتقال إلى فكرة أخرى أكثر إيجابية. وقد يكون هناك قوة جذب كبيرة لفكرة أو هاجس معيّن نتيجة ثقل التفاصيل به لكثرة ما فكّرت به، عند ذاك، سرعان ما يكمل الفكر دورته متخطياً المواقع الإيجابية في دائرة الفكر ليعاود التمركز في المنطقة السلبية معاوداً تسجيل التفاصيل والدقائق وترسيخها... وعليك بالتالي أن تعاود الكرّة في كلّ مرّة، أي القبول بالفكرة وتخطيها، ومحاولة التسجيل والتفكير بأمور أخرى بناءة... ومع الوقت يضعف ثقل الفكرة مع فقدان أو خفوت وهجها وثقل التفاصيل وقوة جذبها في المنطقة السلبية. وتكون بذلك قد عملت على خلق ثقل في مكان آخر أكثر إيجابية وفعالية وتدرّب فكرك على التموضع في مكان أفضل...

ليس بالأمر السهل طبعاً، غير أنه جدير جداً بالتجربة، وسترى كيف أن حياتك ستتغير تماماً، ويزيد إنتاجك وفعاليتك ومزاجك سيتحسن بالطبع...

*

ولنحاول تسليط الضوء على حالة أخرى لنحاول من خلالها فهم كيفية عمل الأفكار السلبية. ورغم أن هذا المثال لا ينطبق تماماً على موضوعنا هنا بواقع كونه حالة أخرى مختلفة تماماً، غير أنه قد يساعدنا على فهم الأفكار السلبية وكيفية تحرّكها وعملها...

كثيراً ما نحلم بأشياء مزعجة خلال نومنا. وخلالها نسعى أو يسعى فكرنا للتخلص من الأفكار المزعجة التي تأتينا أثناء النوم... ومهما حاولنا أن نحوّل أو نعدّل مسار الحلم نصاب بالفشل. ولا يستقيم الوضع ويتجلى إلا عندما نصحو تماماً، أي عندما يستفيق وعينا. والأحلام حالة مختلفة عن موضوعنا الآن، ولكن ثمة تشابه بين الأحلام السلبية خلال نومنا، والأفكار السلبية التي تراودنا في حياتنا الواعية. وإذا كانت الأحلام هي حالة من غياب الوعي أو استراحته، فإن حالة غرق الوعي في حياتنا الواقعية لا تسمح له برؤية الأفكار السلبية، ومهما حاولنا تصويبها أو مقاومتها نصطدم بواقع أنها لا تتغير، لا بل تقوى علينا أكثر... وإذا كنا لا نقدر أن نميز الأحلام المزعجة إلا عبر الوعي عندما يصحو الوعي من سباته، فكذلك الأمر في حالة غرق الوعي، إذ لا سبيل إلا بارتقائه إلى مكان يسمح له أن يدرك الأفكار السلبية التي تسيء إلى حالنا...

فلنحكّم وعينا دوماً، ولنجعله رقيباً على أفكارنا حتى يعلم الصالح منها ويميز ويدرك ما يسيء إلينا. ومهما واجَهَنا من مشاكل، فإن مشكلتنا الأساسية تبقى في الأفكار السلبية، والقفز عنها هو الطريق التي تؤدي بنا إلى التخلص من مشاكلنا مهما بدا لنا الأمر غريباً أو صعباً.

***

التيقن... سخافة الإنسان الكبرى

يميل الإنسان إلى التيقن والتأكد أن لا خطأ سيحصل، أو أن لا

خطـر محـدق بـه. وهـو بذلـك يظـن أنـه يبتعـد عـن الذنـب أو المـوت بحسـب طبيعـة الأفـكار التـي تجـول فـي بالـه... واليقيـن أو عدمـه مسـألة آنيّـة تمامـاً وفيهـا إهمـال للبعـد الزمنـي ممـا يجعلهـا مسـألة نسـبية غيـر ذات دور فـي الحيـاة إلا فـي وقفنـا عـن التطـوّر والتقـدّم مـع ركـب الزمـن. فمـا نظـنّ أنـه اليقيـن الآن قـد يتغيّـر فـي المسـتقبل، ومـا كنّـا نسـعى إلـى التيقّـن منـه قـد يخضـع لاعتبـارات ومعاييـر مختلفـة بعـد فتـرة مـن الآن فتتضـاءل أهمّيتـه ووهجـه وتأثيـره ودوره تمامـاً.

إنّ القبول باللايقين هو مفتاح للتطوّر والتقدّم، وسائر القفزات الكبيرة في تاريخنا البشري إنّما حقّقتها المغامرات. القرد الّذي ارتقى ليصير إنساناً هو ذاك الذي تجرّأ على النزول والمشي على الأرض رغم عدم يقينه من قدرته على الاستمرار.

إنّنا لا نلاحظ غالباً أنه كلّما أردنا اليقين ابتعد عنّا. بمعنى آخر، كلّما أردنا الابتعاد عن الذنب أو الموت، فشلنا بذلك واقترب فكرنا وشعورنا منهما أكثر. قد يتبادر إلى ذهنك الآن وقد قرأت ما سبق من سؤال عن كيفية هذا. والإجابة إنما تكمن في واقع أن الإنسان عبر سعيه لليقين يبقى في الفكرة نفسها، وضمن إطارها وقوة جذبها... لذلك فإن القبول باللايقين يجب أن يكون قاعدة تلازمنا طوال حياتنا. يستحيل علينا أن نتيقن من كلّ شيء، ومن أي شيء...

فهناك سبل لامتناهية لنقض اليقين، والاحـتـمـالات قـد لا تنتهي

أبداً... إن القبول باللايقين إنما يسمح لنا بالخروج من دوّامة فكرة معينة للانتقال إلى فكرة أخرى...

*

ولمزيد من التوضيح ضمن هذا الإطار، سوف أعطي مثالاً من تجربتي الشخصيّة بهدف المساعدة على توضيح أنّه عبث كلّ محاولة للتيقن، فكل سعي إلى اليقين التام مستحيل تماماً...

أذكر مثلاً يوم كنت أعاني من ألم في الوجه والحنك والأذن والحلق في المنطقة اليسرى من رأسي. وقد كنت خائفاً مرتعباً في تلك الفترة من مسألة جدية قد تتهدد صحتي وحياتي (راجع المقطع «2009»). وإزاء ذلك، شرعت بالبحث عن العوارض منطلقاً من فرضية وجود مرض خطير يتهدّدني. ما لم أنتبه له حينذاك أنني كنت كلّما تيقنت من مسألة ما، أتتني فكرة أخرى في الإطار نفسه، أو فكرة وجود مرض آخر، أو نوع آخر من المرض. بمعنى أنني كلّما تيقنت، زادت مخاوفي أو نشأت مخاوف أخرى...

أخيراً قررت اللجوء إلى طبيب نصحني بإجراء عملية لعظمة في أنفي تمنع أو تصعب دخول الهواء في الفتحة اليسرى من أنفي، مرجحاً أن هذه الأوجاع تعود إلى هذا الانسداد، أو إلى احتمال أن أكون أضغط على أسناني أثناء نومي مما قد يؤدي إلى هذه الآلام الغريبة...

أذكر أني شعرت بالاطمئنان عندها، غير أنّه ما لبثت أن عاودتني أفكار أخرى مثل: «ماذا إذا كان الطبيب مخطئاً؟! ماذا إذا كان طبيباً

فاشلاً؟!» وها هو التيقن يفتح نقاشاً آخر في داخلي ضمن إطار الفكرة نفسها... وهذا مثال واقعي عن اليقين. فطالما لم أقبل اللايقين ولم أتقبل احتمالات الخطر طالما بقيت ضمن الفكرة نفسها، وفشلت في الخروج منها. فالفكرة هي أنه حتى لو كان هناك خطب ما أو خطر حقيقي، فإن القلق والوسواس لم يكن ليحميني من الخطر بأي شكل من الأشكال. وعوض تقبّل احتمال أن يكون هناك خطب جدّي والانتقال إلى مستوى مختلف منتج وبنّاء في التفكير، استمرّ فكري في دوامة الدفاع الوهمي غير المنتج. استمر في نسج التفاصيل وتسجيلها في خانة سلبية من دائرة الفكر قريبة من الموت والذنب، حتى بلغ ثقل تلك المنطقة ذروته. فعانيت من وسواس مرضيّ لم أتخلص منه إلا قبل عام من شروعي في هذا الكتاب... وقد تطوّرت عن هذا الوسواس القهري نهائياً وتخطيته وقد علّمني الكثير...

إنّ التيقّن، شأنه شأن جميع النزعات الكمالوية (Perfectionism)، إنّما يتناقض تماماً مع مبدأ وحدة الوجود ومكوّناته. فالإنسان الكمالويّ يغفل أنّه جزء من هذا الوجود. وبالتالي، فإنّ مسعاه إلى المثاليّة هو بذاته مسعىّ غير مثالي، فيكون في خضمّ سعيه إلى المثالية يغفل مجمل الشوائب التي يرتكز عليها الإفراط في التيقّن.

*

إنّ الفكر ينتمي إلـى تلقائية الطبيعة، وهـو جـزء لا إرادوي من العقل وهو في الكثير من الحالات يتسيّد العقل. أمّا الوعي فهو الإرادويّـة،

«الأنا» الحقيقيّة. إنّ التناقض بين هذين المكوّنين هو امتداد للتناقض الأبدي الذي يحكم الحياة وعلاقة العقل بالوجود.

لا عجب إذن في أنّ الذي يغرق وعيه ويتسيّد فكره عقله سيشعر وكأنّ الدنيا تأخذه حيثما تشاء، لا سلطان له عليها، لا سلطان له على الحياة...

*****

الطبائع والشخصيات

في الأبحاث

العام 2011 هو العام الذي بدأت به الثورات العربية، ومنها التحرّكات التي جرت في لبنان ضدّ النظام اللبناني وقد كنت جزءاً منها. والكمّ الهائل من الأشخاص الذين التقيتهم أو عايشتهم أو احتككت بهم في هذا العام يقترب ربّما من العدد الذي عرفته في كلّ حياتي حتّى ما قبل تلك الفترة...

وسنة 2011 كانت السنة التي استكملت بها الأبحاث والتجارب في موضوع العقل. والعام الذي بدأت به العمل على هذا الكتاب بشكل فعليّ. كان لا بدّ أن أستكمل الأبحاث التي قمت بها نهاية العام السّابق، وكان لا بدّ من التطرّق إلى موضوع الطبائع والشخصيّات التي دائماً ما تأخذ حيّزاً أساسيّاً ومهمّاً في أي بحث يتعلّق بالعقل.

وانطلاقاً من الخلاصات التي توصّلت إليها في المرحلة السّابقة، قمت بإعداد دليل، مخطّط تمهيدي، لمقابلات ونقاشات قمت بها بهدف الوصول إلى فهم الاختلاف في الطبائع والشخصيات والميزات المختلفة بين الأشخاص، وذلك بالارتكاز على الفهم الأوّلي للعقل

الذي تحدّثت عنه في الفصل السّابق، بالإضافة إلى أكثر من دراسة كمّية قمت بها. تركّز العمل على فهم علاقة مكوّنات العقل بعضها ببعض والقوى المؤثّرة فيه، وعلاقة الوعي بالأفكار وقدرته على تمييزها تبعاً للتموضع المفترض. كما وأنّ العمل اشتمل أيضاً على أبحاث عن شخصيات تاريخية، وتحليلات ووثائق وأحداث موثّقة تتناول الجانب السيكولوجي لهذه الشخصيات.

لقد كان العمل على هذا الجانب من البحث ممتعاً حقاً وشيّقاً جدّاً... وفي المرحلة الأخيرة من هذا الجزء من البحث، تركّز عملي على نقض الاستنتاجات التي توصّلت إليها والفرضيّات التي انطلقت منها. مسألة دائماً ما تكون في غاية الصّعوبة...

***

الاستنتاجات

تختلف طبائع الناس وشخصياتهم باختلاف عقولهم. وإذ أسلفنا بأن العقل أساسه مثلث أضلاع يتكون من الوعي والفكر والشعور، فإن شكل هذا المثلث وتموضع الوعي بالنسبة إلى مركزي الفكر والشعور يحدد تميّز المرء وشخصيته... وطالما أن هناك عدداً لامتناهياً من الأشكال التي يمكن أن يأخذها مثلث العقل، فبالتالي اختلاف الناس عن بعضهم البعض لا متناه أيضاً...

ومن خلال بحثنا السابق، فبإمكاننا أن نستنتج عاملين أساسيين يحددان شخصية المرء وتمايزه عن الآخرين، ويحددان طبعه وردود أفعاله إزاء الأمور...

وإذا كان العامل الأول هو تموضع الوعي بالنسبة إلى مركزي الفكر والشعور، فالعامل الثاني هو لولب الفكر، وتمركز الأفكار حول الدوائر المكونة له. هذا فضلاً عن أن لتمركز الأفكار وثقلها دوراً كبيراً في جذب الوعي وتحديد تموضعه كذلك الأمر.

وتموضع الوعي بالنسبة إلى مركزي الفكر والشعور أفقياً يحدد تمايز المرء عن غيره من البشر (Character)، أما توزع الأفكار في لولب الفكر فيحدد الشخصية (Personality) التي هي الانعكاس غير الموضوعي للوجود في أذهاننا. ولا يمكن أن نغفل هنا عن واقع تأثر التمايز والشخصية ببعضهما البعض. أما مستوى تمركز الوعي العمودي فيحدد مستوى الحكمة، وسنبحث في الحكمة في الفصل التالي...

***

كيف بدأ العقل الفردي

قبل البدء في تفصيل الطبائع والشخصيات قد يفيد أن نلقي الضوء على نشوء العقل الفردي كمثلث الوعي والفكر والشعور. ومن الواضح أن الوعي، كونه ميزة الإنسان الكبرى، وجد منذ الولادة، وقد يكون قبل الولادة حتى...

فبالوعي يتمكن الإنسان من أن يتلمّس الحياة وأن يتطوّر ويكوّن ذاكرته، ومن أن يلحظ الأشياء والناس والأحداث وأن يدركها...

والعقل الفردي يبدأ بالوعي والنقطة M، التي ستصبح نقطة الوسط فيما بعد، إذ إن الفكر والشعور لا يبدآن مع الإنسان منذ البداية. وبالوعي يتلقّن العقل الوجود ويدركه فينعكس عليه حيرة ودهشة. يرى الطفل الطبيعة والأشياء والأشخاص حوله، فتنعكس بداخله حيرة وشدوهاً. يبكي أو يضحك لا فرق، لكن تفكيره ما بعد تكوّن...

وهنا يطرح سؤال بديهيّ نفسه: كيف ومتى يتكوّن الفكر؟

إن الفكر يبدأ عند أول خطأ يرتكبه الطفل، فيتكوّن مثلث العقل عندما يبتعد مركز الفكر عن مركز الشعور، وتصبح نقطة الوسط الفاصلة بينهما، والتي هي المركز الذي يدور حوله الوعي. فمثلث العقل بذلك ينتج عند أول خطأ يرتكبه الطفل ويحاسب عليه فتتكوّن عقدة الذنب عند ذاك، وينشأ صراع الهروب منها ويرافق الإنسان حتى مثواه الأخير... وبإمكاننا أن نلحظ هذه المرحلة من مراحل تطوّر العقل الفردي بسهولة. والطفل في هذه المرحلة شديد التساؤل عن الخطأ والصواب كثير الأسئلة عنهما. إن هذه المرحلة هي التي تؤسّس توزع الأفكار حول دائرة الفكر وتنكّه مركز ثقل مثلّث العقل بالذنب. وفي هذه المرحلة يتدرّب الفكر على الهروب بالشعور من الوقوع في الذنب. إن هذه المرحلة حساسة جداً وأساسية في تطوّر العقل الفردي وكثيراً ما لا يتعاطى معها الأهل بالمقدار الضروري من العناية والاهتمام.

وإذ يستمر العقل في تطوّره، فإن المراحل الأولى من عمر الإنسان هي مراحل التعلم، وبالتالي مراحل طغيان الوعي المسؤول عن تلقين

العقل كل ما يستقيه من الدنيا من معلومات وأشكال وحروف وما إلى هنالك من علم يتسلح به الإنسان حتى يرقى ويتطوّر... وفي المراحل الأولى للعقل، يستمر مثلث العقل على شكله المتوازن إلى أن يعلم الإنسان بالموت، فيتشكل عندها ثاني تغيّر في مثلث العقل مع اكتشاف أحد المفاهيم المكوّنة للعقل، الموت... ومع اكتمال العقل عندها، يكتمل تكوينه الأساسي ويتحدّد شكله وتمايزه، ويتركّز شخص الإنسان وينطبع، ويأخذ مسلكه في التطور...

ومن هذا نفهم أن دخول مفهوم الخطأ والصواب ومفهوم الموت إلى حياة الإنسان في طفولته لمسألة حساسة جداً ولها دور كبير في تكوين شخصه فيما بعد. وبالتالي، فمن المهم جداً أن يلقّن الطفل بالتفاصيل، وأن يأخذ كلّ تصويب أو عقاب قسطه من الشرح حتى يبنى مفهوم الخطأ والصواب على أساس صحيح، وحتى لا يشغل الطفل باله كثيراً مما يؤخر نموّه الذهني ويحرف مسير تطوره العقلي...

والأمر نفسه في ما خص الموت. فهذا مفهوم معقّد بالنسبة إلى الطفل، ومخيف في آن، وبالتالي فإن شرح هذا المفهوم يجب أن يكون مطمئناً وحاسماً بشكل لا يبقي على أسئلة كثيرة غير مجاب عليها، أو تحتاج لطمأنة أو تفصيل، ومن المفضّل ألا يتعرف الطفل إلى الموت عند موت أحد المقربين جداً حتى لا يتأثر بالمشاعر والانفعالات...

كثر هم الأهل الذين لا يولون القسط الكافي من الشرح والوقت لهذين المفهومين. البعض منهم يخضع الخطأ والصواب لمزاجيّته مما

ينعكس على تفكير الأولاد وتكوين عقولهم وتمايزهم وشخصياتهم. فقد يسمح هؤلاء ببعض الأمور أحياناً ولا يسمحون بنفسها في أحيان أخرى لمزاجية معينة، وفي ذلك خطأ كبير... فكما أسلفنا، موضوع الخطأ والصواب يجب أن يأخذ وافر الوقت والاهتمام حتى يترسّخ في عقل الطفل فلا يبذل فكراً في ما لا نتاج فيه مما ينعكس سلباً على تطوّر عقله...

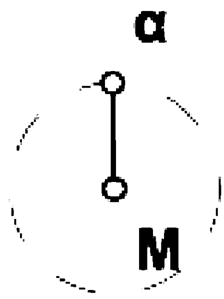
إن نمط تفكير الأهل إنما ينعكس على الأولاد بشكل كبير، وهذا ما لا دور للجينات فيه... فكما نعلّم الأطفال ينشأون، وما يتلقنون في صغرهم يرافقهم فيما بعد، والطفولة حساسة جداً في تكوين الإنسان لأن المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها العقل إنما تكون في الطفولة الأولى، وتظهر فيها وتتبلور...

*

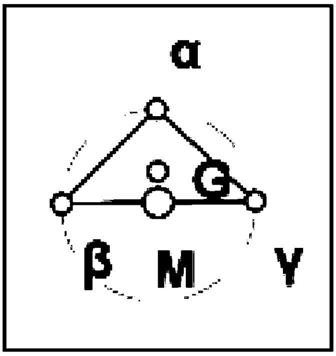
إذن، بدأ عقلنا بوعي يتعلم الدنيا، يتحرك ضمن نطاق محدّد ولم يكن لنا فكر ولا شعور... فقط الوعي والحيرة تنعكس علينا بكاء أو ضحكاً يحدّده مقدار ارتياحنا أو عدمه... جوعنا، عطشنا، ألمنا، نعاسنا، وما إلى هنالك من غرائز وأحاسيس لا تسترعي فكراً ولا تنتج شعوراً... ثم تعرّفنا إلى الخطأ والصواب، فتكوّن الفكر وابتعد عن نقطة الوسط يقابله مركز الشعور كطرف ثالث بمثلث العقل...

*

الرسم 6:



1: بداية العقل



2: تكوّن الفكر والذنب

مركز الوعي :α

مركز الفكر : β

مركز الشعور : γ

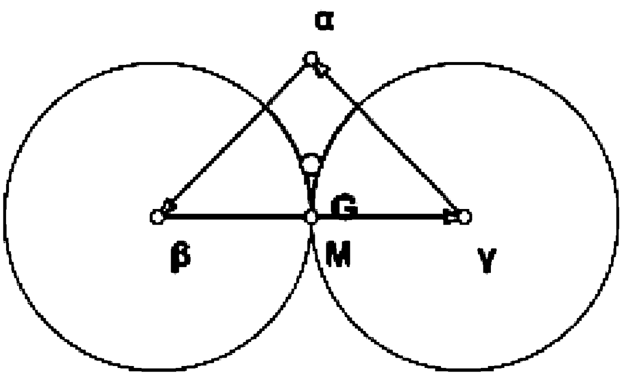
الذنب :G

الموت :D

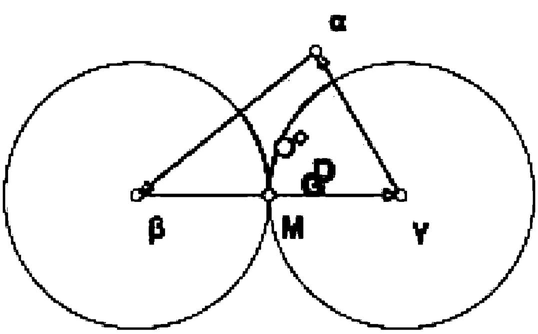
نقطة الوسط :M

3: تكوّن الثالوث

المتوازن



4: تكوّن نقطة «الموت»



***

عاطفيون وعمليون

وإذ أسلفنا أن تموضع الوعي بالنسبة إلى مركزي الفكر والشعور هو الذي يحدّد تمايز الناس بعضهم عن بعض إذ إنه يحدّد من أين يطل المرء على الدنيا، فإن نشوء هذا المثلّث والظروف المرافقة لعملية النشوء هذه لها الدور الأساسي في تحديد الاتجاه العام لارتقاء العقل وتطوره، والشكل العام لشخصه وتمايزه عن الآخرين...

وبالإجمال، فإن تموضع الوعي إلى جهة الشعور ومركزه إلى يمين العقل يجعل الإنسان عاطفياً أكثر، وأكثر ميلاً إلى المشاعر وأكثر تأثراً بها. والعكس صحيح تماماً،، إذ إن تموضع الوعي إلى جهة اليسار يجعل الإنسان عملياً أكثر، وبشكل أبعد عن المشاعر القوية، وبالتالي فإن ردود الفعل تأتي أقل إشباعاً بالمشاعر وأكثر عقلانية كما يقال، غير أنها تنتج بعداً عن هموم الآخرين مع ابتعاد الذنب عن الشعور. فمعايير الخطأ والصواب ومفهوم الذنب إنما يقع ضمن دائرة تفكير هؤلاء الأشخاص بشكل يبعدها عن دائرة شعورهم فلا يخضعون لها ويبدون أقل تأثراً بالذنب والموت حتى وأقل تفكيراً بهما.

وسندخل الآن في ما يلي بتفاصيل التمايزات البشرية والشخصيات والطبائع مستندين بشكل أساسي إلى تموضع الوعي من مركزي الفكر والشعور. ولا داعي للتذكير طبعاً، بأن هناك لا نهائية مطلقة في تمايز البشر بعضهم عن بعض، ولا نهائية في اختلاف شخصياتهم، غير أننا سنحاول وضع أو تقسيم الطبائع والشخصيات إلى فئات تشتمل كلّ

منها على عدد لامتناه من الشخصيات التي مهما اختلفت، غير أنها تحمل قواسم مشتركة أو قريبة في فهمها ونظرتها العامة للحياة...

*

وفي تفصيلنا للتمايز بين الناس نجد أنه هناك فئتان أساسيتان للتمايز البشري، العمليون والعاطفيون. ويخضع هذا التمايز بشكل أساسي لتموضع الوعي من مركزي الفكر والشعور. ويخضع كذلك للتاريخ الفكري فوق لولب الفكر ببساطة لأن هذا التاريخ وثقل بعض المواقع فيه إنما يؤثر بالضرورة على تموضع الوعي من مركزي الفكر والشعور...

وعندما نقول «عمليون» هنا، فإننا لا نقصد بالذات المعنى الشائع أو الاستعمال الشائع لهذه الكلمة التي غالباً ما ترتبط بالنجاح والنظام وما إلى هنالك من صفات، إنما نقصد بها تمايزاً عن فئة «العاطفيون» الذين يقعون تحت تأثير الشعور بشكل كبير، والقريب شعورهم من الذنب والموت...

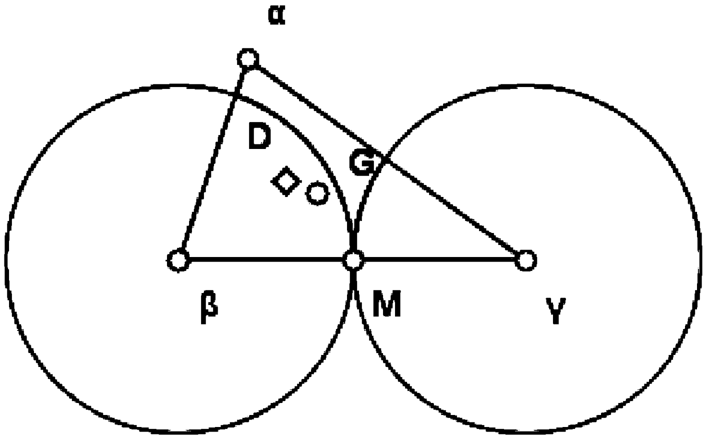
إذن تنقسم العقول بين فئتين عامتين جداً، العمليون الذين يميل وعيهم إلى مركز الفكر بحيث أن زاوية الفكر في مثلث العقل أكبر من زاوية الشعور، والعاطفيون وهم عكس ذلك بالضبط. ويشكل هذا الانقسام العمودي الاتجاه العام لكل عقل فردي أو الاتجاه العام لكل إنسان وتمايزه وميله، لكن بشكل عام جداً. أما إذا غصنا في كل فئة، فإن التمايز بين البشر يصبح أكثر تفصيلاً. غير أن هاتين الفئتين،

«العاطفيون» و«العمليون»، تحدّدان الطبع الذي يميز عقل إنسان ما دون الدخول في حيثيات شخصه. ويفصل الفئتين الخط العمودي الذي يمرّ في نقطة الوسط، أو النقطة M متقاطعاً مع خط (الفكر – الشعور) وبذلك نكون قد عرفنا أول انقسام عام في الطبائع والتمايزات بين العقول البشرية الفردية...

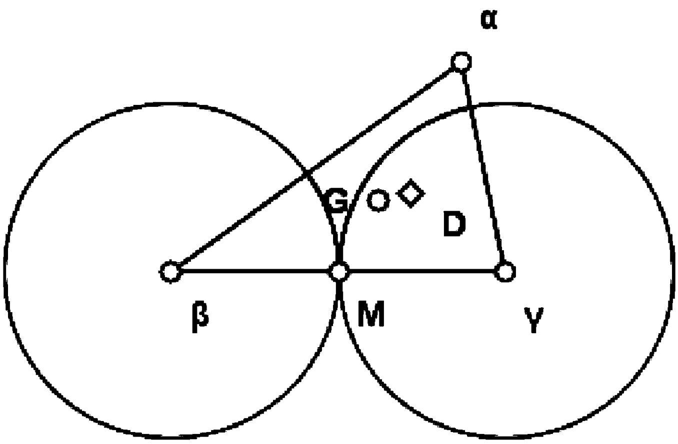
*

الرسم 7:

العمليون



العاطفيون



مركز الوعي :α

مركز الفكر : β

مركز الشعور : γ

الذنب :G

الموت :D

نقطة الوسط :M

كما في الرسم 7، فإن نقطتي الذنب والموت تبدوان ضمن دائرة الشعور لدى الإنسان العاطفي، وتبتعدان عن دائرة الشعور إذا مال الإنسان نحو العمليّ...

وكما علمنا في فصول سابقة، فإن الفكر إنما يجهد لإبقاء الذنب والموت خارج دائرة الشعور، أو بعيدين عنها، ولذلك فإن الفكر يعمل بعكس عقارب الساعة إلى اليسار أما الانطباع الشعوري للفكر فهو على دائرة الشعور لكن في الجهة المقابلة. فما بالك إذا كان الذنب والموت داخل دائرة الشعور أو جدّ قريبين منها؟ ففي تلك الحالة فإن المرء يكون شديد الحساسية للذنب والموت وشديد الشعور بهما، وبالتالي فإن هذا الإنسان أكثر عرضة للمشاعر القوية. وكما نرى في الرسم 7، فإن الإنسان العاطفي كثيراً ما يمرّ شعوره قريباً جدّاً من الذنب والموت، وبالتالي فإنه كثيراً ما يتعرّض لمشاعر الكآبة والقلق. لكنّك تجد العاطفيين متمسّكون بحزنهم لأنهم يشعرون أن ذلك مرتبط بإبداعهم فيحبونه، وفي ذلك شيء من الصحّة. والإنسان العاطفي كثير الشعور مع الآخرين بحيث أن الذنب أقرب إلى فكره من الموت بعكس الإنسان العمليّ الذي يهتم لذاته أكثر، وبالتالي فإن مفهوم الموت أقرب إلى فكره من الذنب.

*

من الصعب أن نعمّم ضمن هذا التقسيم غير المفصّل، لكن من البديهي أن نتوقع بأن الفنانين والأدباء والشعراء وحتى بعض الفلاسفة

يقـع معظمهـم ضمـن فئـة «العاطفيـون»، بينمـا يقـع الموظفـون ورجـال ونسـاء الأعمـال الناجحـون والعمـال بمعظمهـم ضمـن فئـة «العمليّـون». وكمـا سـنرى لاحقـاً، فـإن ثمـة تفصيـلاً ضمـن كلّ فئـة ممـا يجعـل تحديـد التمايـز أكثـر تمثيـلاً ووضوحـاً...

وثمة تداخل بين فئات العقل المختلفة، وقد تجد أشخاصاً ذوي اتجاه واحد، أو مهنة واحدة في فئات مختلفة.. غير أن الطابع العام لأية فئة يبقى مرتبطاً بأشخاص ذوي اهتمام أو اتجاه معين..

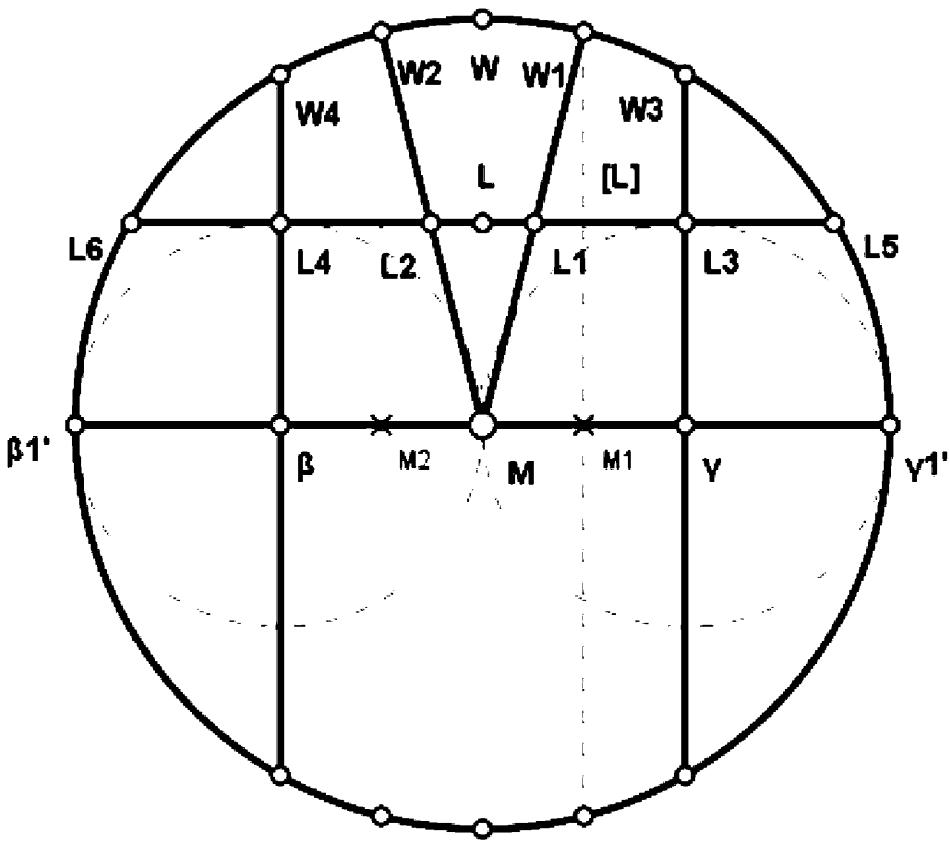
بالإجمال، هناك معياران لقياس التمايز بين الناس، تموضع الوعي بالنسبة إلى مركزي الشعور والفكر أفقياً، أما المعيار الثاني فهو ارتقاء الوعي الذي يحدّد حكمة الإنسان ومقدار تحكمه بأفكاره أو خضوعه لها... وعلى المستوى الأفقي لتموضع الوعي بالنسبة إلى مركزي الفكر والشعور نجد أنه هناك خمسة أنواع أو فئات من اليمين إلى اليسار هي: عاطفي متطرّف، عاطفي، متوازن، عمليّ، وعمليّ متطرّف وذلك تبعاً لزاوية الفكر أو زاوية الشعور. أما إذا أخذنا تموضع الوعي عمودياً، بمعنى ارتقاؤه عن الفكر والشعور، نجد أن هناك عشرة أنواع أو فئات هي كالتالي من اليمين إلى اليسار: عاطفي متطرّف - حكيم، عاطفي متطرّف، عاطفي حكيم، عاطفي، متوازن حكيم، متوازن، عمليّ حكيم، عمليّ، عمليّ متطرّف - حكيم، عمليّ متطرّف.

سـندخل فـي تفصيـل لـكلّ فئـة ونحـاول تحديـد ميزاتهـا وشـكلها، وسـنرى أن هنـاك ضمـن كلّ فئـة عـدداً لامتناهيـاً مـن الاحتمـالات، وبالتالـي

حتـى ضمـن الفئـة ذاتهـا هنـاك عـدد لامتنـاه مـن العقـول المختلفـة. إذ إن العوامـل المؤثـرة والمتغيـرات العاملـة فـي العقـل متعـدّدة جـدّا، بالإضافـة إلـى أن المـكان الـذي يمكـن أن يتموضـع فيـه الوعـي بالنسـبة إلـى الفكـر والشـعور لـه عـدد لامتنـاه مـن الاحتمـالات...

*

الرسم 8:



تميـل العقـول العاطفيـة إلـى الخيـال الـذي يقـع ضمـن النصـف السـفلي مـن دائـرة الفكـر، والـذي يضمـن لشـعورهم ابتعـاداً مريحـاً عـن الذنـب إلا

في حـالات الاضطـراب العقلـي كمـا سـنرى لاحقـاً، ولهـذا للمبدعيـن والفنانيـن عقـول عاطفيـة كمـا سـنرى لاحقـاً أيضـاً..

***

الفئة 1: العقل المتوازن

في تحليلنا لتمايز العقول سنبدأ من العقل المتوازن ومن ثم إلى الأطراف. وكما في الرسم 8، فإن العقل المتوازن هو أي مثلث يكون الوعي فيه ضمن المثلث (ML1L2) بحيث يستحيل أن يقع الذنب تماماً داخل دائرة الشعور...

والعقول المتوازنة ميالة إلى المثالية في تفكيرها وفي مقاربتها للأمور، وتتسم بردود فعل متوازنة نوعاً ما تجاه الحياة وشؤونها. والعقل المتوازن مجتهد طالما عمله يسعى إلى المثالية والتوازن...

ويتمتع العقل المتوازن بحكمة فطرية حتى لو لم يرتق الوعي إلى ما فوق دائرة الفكر ودائرة الشعور، أي حتى لو لم يرتق الوعي إلى ما فوق الخط المستقيم (L) الذي يشكل الحدود العليا لدائرتي الفكر والشعور. وهذه الحكمة مردّها قدرة الوعي، بحكم كـونه ضمن المثلث ML1L2، على رؤية جانب من الأفكار التي تنطبع على دائرة الفكر...

أما أبرز المشاكل التي يواجهها العقل المتوازن هي في كون إرادته

ضعيفة كون الوعي يقع دون مستوى دائرة الفكر، وبالتالي فإن القدرة على تخطي الأفكار المؤذية تبقى صعبة قليلاً... وكلّما غاص الوعي نزولاً نحو النقطة M أو نقطة الوسط، أصبح فعل الإرادة أضعف.

وشأنها شأن جميع العقول التي لا تتمتع بالحكمة السامية، فإن العقول المتوازنة شديدة التأثر بالذنب والموت في وسط المثلث، مثلث العقل... والعقول المتوازنة قد تكون عرضة في كثير الأحيان لعلل النفس التي تتمحور حول القلق، كالقلق العام والوسواس القهري، بحكم كون الذنب والموت قريبين جدّاً من الأفكار القلقة التي تقع على القوس الداخلي لدائرة الفكر. وكما علمنا من فصول سابقة، فإن تراكم الأفكار فوق هذه الأقواس الداخلية على لولب الفكر الكثير الوهج والتأثير بحكم قربها من الذنب والموت إنما ينتج ثقلاً يجذب الوعي ويساهم في غوصه نزولاً...

قد يكون العقل المتوازن ميالاً قليلاً إلى جهة الشعور أو إلى جهة الفكر، وبالتالي فإن ثمة اختلافاً بين الاتجاهين. فالعقول المتوازنة العاطفية تتأثر خصوصاً بمركز الموت الذي قد يقع ضمن دائرة الشعور... وبالتالي فإن القلق بخصوص الصحة والخوف من الموت قد يأخذ نصيباً كبيراً ويؤثر في نظرة المرء إلى الحياة وشؤونها...

أمـا العقـل المتـوازن الميّـال قليـلاً إلـى جهـة الفكـر فلـه كلّ سـمات العقـل المتـوازن وإن كان أقـل تأثـراً بالمـوت. هـؤلاء الأشـخاص كثيـرو التفكيـر والسـعي إلـى الكمـال الـذي يحافـظ بـه عقلهـم علـى توازنـه وغالبـاً

مـا يطغـى سـعيهم إلـى المثاليـة والكمـال علـى مقاربتهـم الأمـور وحتـى علـى نتيجـة أعمالهـم ونتاجهـم العـام فـي الحيـاة...

***

الفئة 2: العقل العمليّ

العقل العمليّ يتموضع الوعي فيه ضمن الشكلL2L4βM. والأشخاص العمليّون إجمالاً أناس يولون كبير الاهتمام إلى عملهم، وطموحهم وجلّ ما يسعون إليه هو الإبقاء على الأمر الواقع الذي يؤمن لهم الراحة وسبل العيش. والذنب والموت بعيدان نوعاً ما عن العقل العملي، وبالتالي فإن العقل العملي غالباً ما يجد نفسه بمنأى عن الهموم وحتى عن شؤون الآخرين طالما أن الذنب يقع ضمن دائرة فكره، وبالتالي فإن فكره يتحكم بالذنب وهو بعيد قليلاً عن دائرة الشعور... غالباً ما ينجح العقل العملي في عدم تحمل الذنب، وسريعاً ما ينجح فكره في الإفتاء بالأمور بشكل يبعد الذنب وحتى الموت عن شعوره...

والعقل العملي غالباً ما يحيا مرتاحاً مع ذاته طالما أن الأمور على ما يرام، وبالتالي فإن القلق قليلاً ما يساوره. حتى العواطف الجياشة أو القوية والمشاعر المتطرفة لا يعرفها بالشكل الذي يشعر به العاطفيون من البشر غير أنه لا يدري بذلك في غالب الأحيان...

يميـل العقـل العملـي إلـى تجنـب المهـام التـي تغيـر الأمـر الواقـع أو ترتـب عليـه مهـامَّ إضافيـة أو مسـؤوليات قـد تضيـف همّـاً عليـه. فالعقـل

يخـاف أن يتغيّـر إذ إن الفكـر دائمـاً مـا يظـن أنـه الصـواب، أو أن الواقـع هـو مـا يفكّـر بـه الإنسـان، وذلـك غيـر صحيـح بالطبـع. فالأفـكار لا تعكـس الواقـع الموضوعـي أبـداً.

والعقل العملي يسيّره فكره لا إرادته وطموحه، إذ إن الإرادة السامية غائبة عن معظم العقول العملية كون الوعي يقع ضمن دائرة الفكر، وبالتالي يستحيل أن يلامس دائرة الفكر بخط قوة الإرادة من الخارج فلا يمكن أن تكون الإرادة المنطلقة من الوعي متماسة مع دائرة الفكر. يشذ عن هذا فئة يقع الوعي لديها ضمن الشكل ML2L4 حيث تتمتع هذه الفئة ببعض من الحكمة بحكم وجود الوعي خارج إطار دائرة الفكر غير أن الإرادة السامية تبقى ضعيفة بحكم كون الوعي يقع تحت مستوى دائرة الفكر ، أي تحت الخط المستقيم (L)...

وللتذكير، فإن الإرادة هنا لا نقصد بها ما هو متداول عن الإرادة، مثال الإرادة تجاه الغرائز مثلاً، أو القدرة على الامتناع عن التدخين أو عن أطعمة معينة، فهذا كلّه عمل الفكر. إنما الإرادة التي نقصدها هنا، والتي تنطلق من الوعي هي إرادة القوة، أو إرادة الوصول أو الطموح إلى تحقيق أهداف معينة... والأشخاص العمليون بالإجمال راضون على حياتهم ومكتفون إلى حدّ ما، وغالباً ما يكونون بعيدين عن الأحزان العميقة وقليلي التوقف عند المآسي، أما الشعور السلبي الغالب لدى هذه الفئة فهو الغضب الذي يهدف إلى تصويب الأمور كما يرى هذا العقل..

نادراً ما تجد فنانين أو كتاباً أو شعراء ضمن هذه الفئة من العقول، وإن وجد فغالباً ما لا يلاقون من الصدى والأثر ما يتركه غيرهم من العاطفيين. فهذه الفئة من العقول حكر على الموظفين والعمال. غير أن هذا لا يعني أن الموظفين والعمال لا يتواجدون ضمن فئات أخرى، غير أن هذه الفئة تبقى حكراً عليهم ويبرع هؤلاء متى كانوا ضمن هذه الفئة...

***

الفئة 3: العقل العاطفي

العقل العاطفي هو العقل الذي يتموضع فيه الوعي ضمن الشكل ML1L3γ. والعقول العاطفية تتأثر كثيراً بالذنب والموت بحكم وقوع هذين الجانبين ضمن دائرة الشعور. وإذ كان القلق سمة العقل المتوازن، فإن الحزن سمة العقل العاطفي. فالعقل العاطفي شديد التأثر، شديد الانفعال وسريع الشعور بالذنب.

تميل العقول العاطفية إلى الفنون والجمال وتمقت الأعمال المادية. غالباً ما تجد ضمن هذه الفئة الممثلين والرسامين والفنانين. وقد تجد ضمنهم أساتذة أيضاً ومربين وكتاباً وشعراء...

وفكر العقل العاطفي يرهق إذ غالباً ما يجهد لإبعاد الشعور عن الذنب والموت، وهما، أي مركزا الذنب والموت، أبداً ضمن دائرة الشعور. فكلّما نأى عنهما الفكر وجدهما من جديد...

يقع وعي بعض العقول العاطفية ضمن الشكل ML1L3، وهؤلاء

لديهم حكمة فطرية إذ لوعيهم قدرة على رؤية بعض الفكر بحكم كونه خارج دائرة الفكر وخارج دائرة الشعور أيضاً، غير أن عامل الإرادة يبقى ضعيفاً لبعد الوعي أوّلاً، وبحكم كون الوعي تحت مستوى دائرة الفكر...

كثيراً ما يعاني العقل العاطفي من المشاعر المتطرفة، كالقلق والحزن الشديدين، وقد يميل إلى الكآبة في كثير من الأحيان، وقد يعاني من كآبة مزمنة في فترات معينة من حياته. غير أنهم شديدو الفرح في أحيان كثيرة وشديدو الاستمتاع بحياتهم إذ يميلون إلى اللهو والفرح وينشدون المتعة في الحياة...

***

الفئة 4: العقل العملي المتطرّف

العقل العملي المتطرّف هو العقل الذي يقع وعيه ضمن الشكل L4ββ1L6. والعقل العمليّ المتطرف بعيد جدّا عن التأثر بالذنب والموت وبالتالي فإن ما تراه العقول الأخرى مدعاة ذنب لا يأبه له العقل العملي المتطرّف أبداً...

وهذا العقل غالباً ما لا يعير اهتماماً لمشاعر الآخرين، ويتميز بشجاعة شديدة ويتفنن بخرق الأعراف والقوانين وحتى القوانين التي يفرضها اللاشعور الجماعي... ويقع ضمن هذه الفئة المجرمون بامتياز.

فلا عجب إذن لمن لا يأبه للذنب ولا يخاف الموت أو لا يراه أن

يكون عقلاً عملياً متطرّفاً. وهذا العقل قد يفعل أي شيء ببرودة أعصاب لا مثيل لها. وسهل له جدّاً الإفتاء لأي شيء يفعله حتى يتناسب مع الذي يراه مناسباً. فقد يسرق أو يقتل أو يفعل ما يحلو له ويراه منسجما تماماً مع قناعاته. وإن امتنع عن ذلك فلحسابات أخرى بعيدة شديد البعد عن شعور بالذنب أو الخوف... وهو، أي العقل العملي المتطرّف، وإن شعر بالذنب فخفيفه، وإن شعر بالخوف فبسيطه بشكل لا يعكّر عليه مراده...

إن العقل العمليّ المتطرّف إنما هو نتاج أحداث سابقة تفاعل معها فكره فتكوّن عقله على هذه الشاكلة وتطوّر. أحداث في الطفولة أثقلت الفكر وجنحت بالوعي لهذا الاتجاه فأخذ العقل شكله على هذا النحو...

وكما أسلفنا في فصول سابقة، فإن الفكر إنما يجنح بالوعي ويشدّه إليه، ويسهم ثقل الأفكار في منطقة معينة من لولب الفكر في جذب الوعي وتحديد تموضعه بالنسبة إلى مركزي الشعور والفكر...

تتمتع بعض العقول العملية المتطرّفة بإرادة قوية جدّاً وبشيء من القدرة على رؤية الفكر، أي بعض من الحكمة، غير أن هذه الحكمة ترى ما لا يستحسن أن تراه من الفكر، إذ إنها ترى الأفكار التي إلى يسار دائرة الفكر والتي هي الأفكار الحسنة وغير المؤذية للعقل البشري... فلا عجب إذن أن تقطع هذه الأفكار الصحية بتدخل الوعي الذي يكمن أصلاً في مكان غير صحي...

فالوعي في هذه الحالة لديه القدرة على رؤية الأفكار الصحية ويتدخل لتخطيها ليكمل الفكر دورته تجاه الأفكار التي يظن بها العقل العملي المتطرف صالحة. وهذه الفئة التي نتحدث عنها هنا تحديداً هي التي تقع ضمن الشكل β1 L4L6.

وإذ أسلفنا أن لهذه الفئة تحديداً إرادة قوية جداً، فلكونها تنطلق من أعلى ومن مسافة قريبة جدّاً من دائرة الفكر، وبالتالي فإن أثر الإرادة والاستجابة لها قويّ جداً وفعّال تماماً...

أما بقية هذه الفئة، والتي تقع ضمن الشكلβ1 β L4 فلا تتمتع بإرادة قوية جدّاً ويسيرها الفكر المؤذي دوماً.

العقل العمليّ المتطرّف لا يتوانى عن فعل أي شيء يناسب مصالحه ولا يرى في ذلك ذنباً ولا حرجاً، وهو شديد الشجاعة قويّ الإرادة جدّاً وغالباً ما يصل إلى أهدافه، ونادراً ما يفكر بالموت والذنب إذ يراهما شديدي البعد عنه...

***

الفئة 5: العقل العاطفي المتطرّف

العقل العاطفيّ المتطرّف هو الذي يتموضع وعيه ضمن الشكل γ1L5 γ L3. وهذا العقل شديد التأثر بالذنب والموت اللذين يقعان تماماً ضمن دائرة الشعور لديه. وهو يتميز بشعور غالب بالذنب والخوف في أكثر الأحيان، وهو كثير الحزن شديده.

يتسم العقل العاطفيّ المتطرّف بنظرة للحياة تغلب عليها السلبية،

وهو أقل العقول حكمة إذ إن وعيه غارق تماماً وراءه. والعاطفي المتطرّف غالباً ما ينتج عن نظرة سلبية للذات دمغت فكره وأثقلته عبر الزمن، وكثيراً ما يشعر هؤلاء بالفشل وتراودهم أفكار عن الموت والانتحار...

والعقل العاطفي المتطرّف عرضة للاكتئاب الحاد والمزمن، وشأنهم شأن العقول العملية المتطرّفة بحاجة للارتقاء بوعيهم وإعادة تموضعه بشكل أقل تطرّفاً وأكثر سمواً...

وإذ أسلفنا بأن تموضع الوعي هو نتيجة الفكر وجاذبية الأفكار ونمط تموضعها على لولب الفكر، فإن العقل العاطفي المتطرّف لا ريب تكوّن نتيجة تراكمات فكريّة عتيقة قدم الطفولة، ولا حلّ إلا بسمو الوعي وارتقائه حتى يتم تصويب العقل. فمع غرق الوعي يصعب إقناع العقل العاطفي المتطرّف أو يستحيل تصويب عقله، فهو مقتنع تماماً بفشله حتى لو أخفى هذا، ولا إيمان لديه بقدرته، ولديه قناعة تامّة بذنوبه مهما بعدت عن الواقع، والذنب نسبيّ تماماً...

وبالتدريب على الارتقاء العمودي للوعي يتغيّر العقل العاطفي المتطرّف وإن احتاج إلى بعض الدعم والمساعدة، غير أن المشكلة تكمن في إقناع العاطفي المتطرّف بضرورة التغيير؛ فالعقول البشرية الفردية دائمة الاقتناع بوضعها، وقلّما تريد تغييره لأن الصواب خاضع لمقاييس الذنب والموت، وليس إلى الواقع الموضوعي. فلا سبيل إذن إلا بارتقاء الوعي عمودياً، وذلك حتى يمكن إعادة تموضعه أفقياً

ودفعه إلى اليسار أكثر مع الرقابة المتاحة على الفكر وتصويب الأفكار حول دائرة الفكر...

***

الفئة 6: العقل المتوازن الحكيم

قد يكون العقل المتوازن الحكيم عقل الفلاسفة والعلماء الكبار، غير أن هذا لا يعني أنه لا يمكن لغير الفلاسفة والعلماء أن يكونوا عقولاً متوازنة حكيمة. فكل إنسان يمكنه أن يترفع إلى هذه الفئة عبر السمو بوعيه وارتقائه إلى فوق دائرتي الفكر والشعور...

والفلاسفة والعلماء الكبار يرتقون إلى هذا المستوى من العقل، غير أن فكرهم وسيع وبالتالي فإن دائرة وعيهم تكون أكبر (أنظر «الرسم 9»)...

والعقل المتوازن الحكيم هو العقل الذي يتموضع وعيه ضمن الشكل L1L2W2W1. وشأنه شأن العقل المتوازن الذي غصنا في تفاصيله سابقاً، فالعقل المتوازن الحكيم ميّال إلى المثالية في تفكيره، وتواق إلى الكمال...

ولأنه حكيم، فإن لهذا العقل القدرة على رؤية الفكر، وبالتالي فإن له سلطاناً على حركة الفكر فوق قوس معين. والعقل المتوازن الحكيم له خاصية القدرة على رؤية الأفكار السلبية وتخطيها بسهولة، أي الانتقال بالفكر إلى مكان آخر على دائرته.

والعقل المتوازن الحكيم ينقسم إلى فئتين، الأولى يتموضع وعيها ضمن الشكل WW1L1L، وهم من العاطفيين الكثيري الاهتمام بشؤون الناس وهمومهم. والموت لديهم قريب من دائرة الشعور قليلاً إذا لم يكن الوعي في قمة السمو، وبالتالي فقد يكون لديهم بعض القلق على ذاتهم وصحتهم، فتراهم ينشدون الحياة الصحية، ويولون اهتماماً كبيراً لذلك...

أما الفئة الثانية فهي التي يقع وعيها ضمن الشكل WW2L2L، وهذه الفئة من العقول المتوازنة الحكيمة غالباً ما تكون كثيرة الانغماس في عملها وفي سعيها إلى الكمال. ويقع عدد كبير من العلماء والفلاسفة الماديين ضمن هذه الفئة من العقول. وهذه الفئة، أي العقل المتوازن الحكيم العملي، يبعد الذنب والموت عن دائرة فكرها غير أن قدرتها على رؤية الفكر تجعلها تميّز المصالح الاجتماعية العليا والمشتركة بين الناس فلا تجنح في طغيانها. ثم إن هذه العقول تتأثر بالذنب والموت أكثر من غيرها من العقول العملية غير المتوازنة كالعقل العملي الحكيم، والعقل العملي المتطرّف الحكيم...

عاملان أساسيان يميزان العقل المتوازن الحكيم عن العقل المتوازن العادي. العامل الأول هو سمو الوعي وبالتالي قدرة الوعي على رؤية الفكر والتحكم به وخصوصاً الأفكار السلبية...

أما العامل الثاني فهو قوة الإرادة. فـإرادة العقل المتوازن الحكيم

في انحناءة قوية نزولاً نحو دائرة الفكر، وتتمتع بقوة كبيرة وسلطان قوي على الفكر الذي يدور حول مركزه...

***

الفئة 7: العقل العملي الحكيم

العقل العملي الحكيم هو الـذي يتموضع الوعي فيه ضمن الشكل W2L2L4W4. والعقل العملي الحكيم هو عقل رجال ونساء الأعمال، أو الذين يتعاطون بهذه العقلية حتى لو أتوا من خلفية أخرى...

والعقل العملي الحكيم عقل لا يتأثر كثيراً بالذنب والموت بحكم وقوعهما في مكان بعيد عن دائرة الشعور. وهو، وإن لا يجنح إلى تطرّف العقل العملي المتطرّف، غير أن العقل العملي الحكيم ماهر في استغلال الآخرين لمصلحته، وهؤلاء هم حكّام العالم اليوم...

فالعالم اليوم هو تحت سلطة العقول العملية الحكيمة التي تتحكم بمقدرات الدنيا وتستغل الشعوب دونما شعور بالذنب. والقلق الأساسي الذي يساور أولئك من العقول هو قلق خسارة ما حققوه، بالتالي فإن الذنب لديهم يرتكز على هذه الفكرة مرتبط بها، قريب منها، أي من مكانها فوق دائرة الفكر...

والعقل العملي الحكيم يتمتع بإرادة قوية جدّاً وشغف بالوصول، إذ إن حكمته لا ترى أفكار الطموح والوصول إلى الأهداف فوق دائرة الفكر فيغوص بها بشكل كلّي فتتملّكه تماماً...

ويتميز العقل العملي الحكيم عن العقل العملي العادي بعاملين

أساسيين إذن. العامل الأول هو عامل الحكمة أو ارتقاء الوعي ليرى جزءاً من دائرة الفكر. ولأن الوعي يتموضع ضمن الشكل W2L2L4W4، فإن بإمكانه أن يرى كلّ الأفكار التي تعرقل سعيه في الوصول إلى الأهداف التي رسمها في فكره، وبالتالي فإن قدرته بتخطيها وعدم الوقوف عندها هائلة كبيرة...

أما العامل الثاني فهو إرادة الوصول، أي قوة الإرادة التي تظهر لدى هذا العقل وتميزه عن العقل العملي العادي. وهذه القوة التي تنطلق من الوعي وتعطي الدفع الكبير للعقل العملي الحكيم إنما يفقدها العقل العملي العادي الذي يسيره فكره بشكل تام. فالأخير قد يتوقّف أو يحبط، أو تعرقله هموم ومصاعب غالباً ما يتخطاها العقل العملي الحكيم نحو أهدافه البعيدة الأمد...

وكما أسلفنا، في يومنا هذا العقل العملي الحكيم هو المسيطر على المجتمع وعلى العالم برمته، وإن نازعه فيها العقل العملي المتطرّف الحكيم كما سنرى لاحقاً، لكن سرعان ما يستعيد زمام الأمور عبر تسخير كلّ شيء لمصلحته وعبر استغلال الآخرين. وهذه الفئة من العقل البشري نجحت تماماً في فرض ثقافتها على المجتمع، ثقافة الاستغلال والإفتاء بصوابيته كجزء من سنّة الحياة وطبيعتها وسيرها...

وكما هو الحال بالنسبة إلى العقل المتوازن الحكيم، فالعقل العملي الحكيم قد يختلف باختلاف اتساع دائرة الفكر. فهناك رجال ونساء أعمال ورأسماليون كبار وصغار يختلفون باختلاف اتساع دائرة الفكر...

فالرأسمالي الكبير مثقف متمرّس بثقافة السوق وله كبير الخبرة بها وبتفاصيلها. وقد يكون له سعة فكرية هائلة يسخرها لمصالحه الشخصية التي تتناقض دائماً مع مصالح المجتمع...

نجحت العقول العملية الحكيمة في السيطرة على زمام الأمور في كلّ المجتمعات، ونمط الإنتاج الرأسمالي هو أساس قوتها ومصدر نموّها. ولأنه قائم على الاستغلال أسمته «العالم الحر» وجعلته مصدراً للثقافة السائدة التي تخدم هذا المفهوم.. اسم جذاب بالفعل قد يجعل حتى أكبر ضحاياه يهبون للدفاع عنه.

في «العالم الحرّ»، الحرية الأساسية هي حرّية استغلال الآخرين، أما بقية الحرّيات فلتزيين هذه الحرّية الأساسية وهندمتها، ولإعطائها المشروعية والاستمرارية...

أما العقل العملي العادي الذي هو أكبر ضحية لاستغلال العقل العملي الحكيم فيسيره فكره تماماً، وجزء عظيم من هذا الفكر يتأثر بثقافة المجتمع الذي يحكمه العقل العملي الحكيم. فيظن أن لا حياة إلا على هذه الشاكلة، ولا مجتمع إلا في ما يراه، ولا تغيير إلا على مستوى الفكر الذي يحويه عقله...

***

الفئة 8: العقل العاطفي الحكيم

العقل العاطفي الحكيم هو العقل الذي يتموضع وعيه ضمن الشكل W3L3L1W1. والعقل العاطفي الحكيم هو عقل الفنانين

الكبـار وعظـام الشـعراء. ورغـم أن وعـي هـؤلاء أعلـى مـن مسـتوى دائـرة الفكر، غيـر أنـه غيـر قـادر دائمـاً علـى رؤيـة الأفـكار المؤذيـة للعقـل والإنسـان. وكثيـراً مـا يقعـون فريسـة للحـزن والتعاسـة، وكذلـك، فإنهـم كثيـراً مـا يؤثـرون الفـرح...

وحكمة العقل العاطفي الحكيم تتسم بقدرته على رؤية الأفكار ذات الطابع العملي والتساؤلات التي تقود إلى القيام بأعمال ما مادية أو عملية، وبالتالي فإن العقل العاطفي الحكيم يتخطى هذه الأفكار بسرعة ليتجه إلى الغوص في إبداعه...

وشعور العقل العاطفي الحكيم ليس بعيداً عن الذنب والموت، وكثيراً ما يتأثر بهذين العاملين، غير أنه يتسلح بإرادته حتى ينجز ويبدع.

وإرادة العقل العاطفي الحكيم قويّة نوعاً ما بحكم انحنائها منطلقة من وعيه إلى دائرة الفكر غير أن بعد الوعي عن الفكر واقترابه من الشعور يجعل الإرادة أضعف من تلك التي لدى العقول العملية وغالباً ما ينعكس ذلك مزاجيةً أو تخلّياً عن بعض القضايا فجأة نتيجة للقنوط أو اليأس.

والعقل العاطفي الحكيم عقل متعاطف مع الناس لقرب الذنب من شعوره، متمسك بالحياة لقرب الموت من شعوره كذلك الأمر.

***

الفئة 9: العقل العملي المتطرّف الحكيم

العقل العمليّ المتطرّف الحكيم هو العقل الذي يتموضع وعيه ضمن الشكل W4L4L6. ويتسّم هذا العقل بابتعاده الكليّ عن الشعور بالناس وهمومهم، فالذنب والموت بعيدان جداً عن دائرة الشعور... الذنب والموت قريبان من دائرة فكره أو ضمنها، فلا ذنب ولا خوف إلا ضمن ما يفكر العقل العملي المتطرّف الحكيم...

ويسود هذه الفئة من العقول زعماء الحرب والدكتاتوريون في هذا العالم ممن يقمعون ويقتلون دون أن يرف لهم جفن. وقد نازعت هذه الفئة عبر العصور الفئة التي تسيّر العالم اليوم، ولاتزال تنازعها في كثير من الأحيان. والفئة هذه، أي العقول العملية المتطرّفة الحكيمة، إنما تفعل أي شيء وتستغلّ أي شيء وأياً كان حتى تبقي على سيادتها.

والعقل العمليّ المتطرّف الحكيم يتمتع بإرادة قوية جداً وبالتالي فإنه غالباً ما يصل إلى أهدافه مستغلاً كلّ الفئات الأخرى.

ولأن الذنب والموت قريبان من دائرة فكره أو يقعان ضمنها أحياناً، وبالتالي بعيدان تماماً عن الشعور، فإن قدرة الإفتاء بصلاحية الأفعال غالباً ما تكون فعّالة تماماً لدى أصحاب هذه العقول... فالعقل العمليّ المتطرّف الحكيم لا يرى ذنباً في ما يفعله، ودائماً ما يكون مقتنعاً بصوابية ما يفعل لأنه يعتبر الآخرين الذين يقمعهم أو يقتلهم يستحقون ذلك، فلا ذنب إذن ولا خوف ولا رادع أبداً... فالذنب والموت هما ضمن ما يفكر به لا ما يشعره.

ويتسّم هذا العقل بقدرة وعيه على رؤية الأفكار الصحيّة،

وبالتالي يسهل عليه تخطيها إلى ما يخدم أهدافه، فلا يلهيه أي فكر عن ذلك. والعقل العمليّ المتطرّف الحكيم عقل شديد الإيمان بقدراته. وإذا كان هذا الإيمان من عمل الفكر، غير أن هذه الأفكار حول الذات والقدرات الشخصية التي تراكمت حول لولب الفكر عبر الزمن هي من العوامل التي تساهم في تكوين هذا العقل على هذه الشاكلة...

***

الفئة 10: العقل العاطفي المتطرّف الحكيم

العقل العاطفي المتطرّف الحكيم هو العقل الذي يتموضع الوعي فيه ضمن الشكل W3L3L5. ويتميّز هذا العقل، شأنه شأن العقل العاطفي المتطرّف، بتأثره كثيراً بالذنب والموت اللذين يقعان ضمن دائرة شعوره، غير أن لوعيه قدرة على رؤية بعض الأفكار المؤذية والتي تعمق الشعور بالذنب أو الخوف من الموت مما يمكنه من تخطي هذه الأفكار...

والعقل العاطفي المتطرّف الحكيم هو عقل فنيّ بامتياز، شديد التعاطف مع البشر وقضاياهم. وهذه العقول تشكل فئة يغلب فيها الكتّاب الكبار والعظام من الروائيين الذين يتعاطفون مع هموم الناس وشجونهم.

ويتمتع هذا العقل بالحكمة والإرادة، وقوة الإرادة لديه، وإن لم ترتق إلى مقدار قوة غيرها من الفئات الحكيمة بحكم بعدها عن دائرة الفكر كثيراً وبساطة انحنائها، فهي فعّالة بشكل يمنع العقل العاطفي

المتطـرّف الحكيـم مـن الغـوص كثيـراً فـي أفـكاره المؤذيـة للصحـة العقليـة بشـكل يمنعـه مـن الدفـق والإبـداع...

والعقل العاطفي المتطرّف الحكيم عقل يريد الفرح ويسعى إليه، وهو وإن غلب على مظهره مسحة من الحزن، غير أنه ينشد الفرح وغالباً ما يصل إليه...

تجد لدى هذا العقل قدرة وصفية كبيرة، وقدرة هائلة على تجسيد ما يرونه كتابة أو رسماً أو شعراً. وهو عقل يحب ويحب كثيراً، وشديد التأثر وإن قدر على تخطي أزماته بواقع كونه عقلاً حكيماً...

يمقت العقل العاطفي المتطرّف الحكيم الأعمال والأمور المادية وهو شديد التوجه إلى الجمال والطبيعة والخيال الذي يقع في النصف السفلي لدائرة الفكر. فمن خلال اتجاهه للخيال يبتعد قدر الإمكان بشعوره عن الذنب والموت، وذلك يفسّر تماماً امتلاك كبار المبدعين عقولاً عاطفية حكيمة...

***

لقد غصنا فيما سبق بالتمايز بين العقول وأصبح لدينا بالتالي فهم أوضح للعقول المختلفة ولدورها في الحياة والمجتمع. وإذ تكوّن لدينا هذا الفهم، فإن عدة أسئلة قد تتبادر إلى أذهاننا.

سأحاول فيما يلي استباق بعض الأسئلة التي قد تساور القارئ والبحث يطول ويستمرّ إلى ما بعد هذا الكتاب...

***

هل الناس عشر فئات فقط؟

بالطبع لا.. فهذه الفئات عامة جداً، وضمن الفئة الواحدة هناك عدد لامتناه من الاحتمالات بقدر ما يمكننا وضع نقاط للوعي ضمن الشكل الواحد. ثم أنه هنالك عوامل أخرى كثيرة جداً تؤثر في العقل وتكوّن الشخصية. فالتجارب في الحياة تختلف بين إنسان وآخر. فما من إنسان خضع للتجارب نفسها كالآخر بالضبط. فتنطبع هذه التجارب الخاصة في فكره وتكوّن شخصيته وطبعه وتسهم في خلق تمايزه الأفقي لتموضع الوعي... وهناك النظرة إلى الذات والتراكم الفكري فوق لولب الفكر للتجارب الشخصية التي ترسّخ نظرة الإنسان إلى ذاته. ثم إن سعة الفكر لها دورها كذلك الأمر. باختصار، ما من إنسان كالآخر، وما من عقل مطابق لعقل، فكلّ العقول مختلفة تماماً عن بعضها البعض لاختلاف التجارب والتاريخ الفكري...

***

هل العقل له دائماً المقاربة نفسها للأمور في كلّ مرّة؟

بالطبع لا... فالوعي، وإن تموضع في مكان ما محدّد اعتاد على التواجد فيه مع تكوّن العقل والشاكلة التي أخذها، غير أنه كثيراً ما يتحرّك ضمن نطاقه نتيجة لظروف خارجية معينة، لكنه سرعان ما يعود إلى تموضعه الأساسي. فقد يتصرّف الإنسان أو يفكر في لحظة معينة أو ظرف معين تصرّفاً أو تفكيراً مخالفاً لعقله، وذلك لأن الوعي كان

متمركزاً في غير مكانه المعتاد. غير أنه يعود إلى تموضعه الأساسي لاحقاً حيث اعتاد أن يكون وحيث أملت عليه نقاط الجذب التي يحويها العقل.

***

هل من الممكن أن يتغيّر العقل؟

بالطبع نعم.

وهناك عدة عوامل قد تؤدي إلى تغير العقل، خارجية وذاتية، مثلاً عامل الصدمة. فالصدمة القويّة قد تؤدي بالإنسان إلى التفكير في أمر معين كثيراً مما يخلق ثقلاً كبيراً في منطقة معينة وبالتالي يؤدي إلى تغيّر تموضع الوعي... وقد تكون الصدمة سلبية أو إيجابية، غير أن التفكير بها بشكل كبير لا شك يؤثر في تموضع الوعي وبالتالي في تغيّر العقل...

ثم أن هناك إمكانية لارتقاء الوعي عبر تدريبه. فبإمكاننا أن ندرب وعينا على الارتقاء وعلى الإبقاء عليه في تموضعه الجديد والمسألة تحتاج إلى الوقت غير أن النتيجة حتمية. وبارتقاء الوعي يتغيّر العقل عمودياً حيث يبلغ الحكمة. ثم إنه كلما سما الوعي أمسى من الأسهل تحريك الوعي أفقياً فيتغيّر انتماؤه الفئوي تماماً. من المستحيل أن يتحرّك الوعي ذاتياً إذا ما كان تحت مستوى دائرة الفكر إلا بفعل صدمة معيّنة أو حدث كبير، أما إذا كان الوعي سامياً مترفعاً، فبإمكانه تغيير تموضعه بسهولة أكبر.

***

أليس هنالك غير الذنب والموت؟

هناك عدة هموم أخرى غير أنها ترتكز على هذين المفهومين. الفشل مثلاً مرتبط تماماً بالذنب. فالذنب ليس شعوراً تجاه الغير فقط، بل هو مفهوم ترتكز عليه عدة مفاهيم أخرى. فالذنب شعور تجاه الآخرين، وتجاه الذات، وتجاه المجتمع. هو الإحساس بالخطأ بمعنى آخر. إذن فالعقل يخاف الموت، ويخاف الذنب، وبالتالي فهذان العاملان هما أساس هموم العقل وكلّ الهموم الأخرى إنما تنطلق من هذين المفهومين...

بإمكاننا أن نتبين أن العقل كلما تطرّف في «عمليته»، ابتعد الوعي عن الشعور واقترب من الفكر، والعكس صحيح، إذ كلما تطرّف في «عاطفيته» ابتعد الوعي عن الفكر واقترب من الشعور. وبإمكاننا أن نتبيّن أيضاً أن العقل العاطفي يتأثر وعيه بشكل كبير بالشعور ومركز الشعور، والعكس هو الصحيح بالنسبة إلى العقل العمليّ إذ يتأثر أكثر بجذب الفكر ومركز الفكر...

******

الحكمة

أنت غارق بأفكارك تائه وسطها، وتتسلسل التفاصيل مترابطة ترابطاً يبدو هائلاً بمنطقيته قاطعاً الشك باليقين. والإنسان يصدّق ما يفكّر به دوماً. وإذ بشيء ما يعترضك، ويقطع مسلسل تفكيرك. تعود لتكمل ما كنت تفكّر به، فتذهل لضلاله، وتضحك على منطقك وعلى كيفية ربطك للأمور بعضها ببعض. فحين كنت تفكّر، كنت مسترسلاً بفكرك مستسلماً له، فلم تر ضلال أفكارك إلا حين فرغت منها.

فما بالك أن تراها أثناء تفكيرك لها؟

*

الحكمة هي قدرة الوعي على رؤية الفكر أثناء تفكيره بفكرة معينة، وليس بعد انقضائه من التفكير بها. فأن نرى ما فكّرنا به قبل قليل أمر عادي، أما أن نرى ما نفكر به الآن، فهذه هي الحكمة بعينها...

قلة من الناس تمتلك الحكمة، والبعض يمتلكها لكنه لا يدري تماماً بأنها الحكمة بالمفهوم الذي نسعى لإرسائه من خلال هذا الكتاب. فيستخدمونها لتحقيق غاياتهم دون أن يدروا بأن لديهم الحكمة وسمو الوعي وارتقائه...

وإذا كان الفكر يـدور حول مركزه دائرياً، فإن الوعي السامي يقدر

على رؤية الأفكار التي ضمن نطاق رؤيته. ومن الجميل أن الوعي لا يقدر على رؤية الأفكار الجميلة المرتكزة على الخيال إذ نفكّرها، بحكم كونها تقع في القسم السفلي من دائرة الفكر، فلا يقطع الوعي الفكر الجميل ولا يخطو به إلى ما عداه...

والحكمة درجات لامتناهية في عددها صعوداً حتى آخر مدى قد يبلغه الوعي على دائرته، ومتى بلغت الحكمة علياءها إذ يصل الوعي عليّه ومداه الأقصى، شعر الإنسان بصفاء لا مثيل له ينعكس لطفاً وصحة على جسده وأعصابه ودماغه...

والحكمة تكتسب اكتساباً، فما من مرء يولد حكيماً، وما من عقل تنشأ معه حكمته. وقد تكتسب الحكمة عبر الحياة والتجارب، و عبر التدريب. فكلّما زادت الرقابة على الفكر، تكوّنت الحكمة وترسّخت...

وهنالك من الحكمة ما يبدأ من الصغر. فقد يفرض مرء نوعاً ما من الرقابة على فكره منذ الطفولة، وقد يكون ذلك مردّه تقاليد معينة تنبذ الضعف مثلاً أو المشاعر القوية التي تولّدها أفكار معينة. فالمرء لا يمكنه أن يمنع المشاعر من أن تتولّد نتيجة أفكار معينة، لكنه يقدر بكلّ تأكيد على تخطّي أفكار تؤدي إلى مشاعر محدّدة يريد تجنّبها...

وهنالك من أوجه الحكمة ما يكتسب من التجارب الحياتية مع الزمن. فالمرء إذا ما أولى اهتماماً معيّناً لأفكاره ولطبيعتها عوض الغوص بها وتلقي أثرها قد يستنتج بسهولة أن الأفكار دائماً ما لا

تعكس الواقع، إنما هي نظرة ذاتية للأمور تخضع لأحكامنا ورؤيتنا لها... هي انطباع يتكوّن لدينا عن الدنيا وعمّا نبصره بوعينا، وليست الوعي بعينه ولا الإدراك الصحيح...

فمقاربتنا المختلفة لموضوع ما معيّن قد تطرح تساؤلات حول ماهية الأفكار التي ولّدت لدينا انطباعاً مختلفاً، وأحكاماً مختلفة على أمور متشابهة. هذه التساؤلات قد تتبلور نوعاً من الحكمة أو درباً من الإبصار الموضوعي للأمور. والحكمة هذه، وإن لم تكن الحكمة العليا التي لا يرقى الوعي إليها إلا من خلال الممارسة والتدريب، غير أنها قادرة على إبصار الفكر وإدراكه وتوجيهه ضمن نطاق محدّد...

أما الحكمة العليا السامية، فلا تكتسب إلا بالتدريب والممارسة. وهنالك طرق شتى لتدريب الوعي على الارتقاء عن دائرة الفكر لكنها ترتكز بمجملها على تركيز الوعي الموضوعي المجرّد الخالي من الانطباعات على شيء معيّن، وإهمال الأفكار التي تتمخض عن الشيء نفسه أو أية أفكار أخرى. وكثيراً ما نرى وسائل ترتكز على تركيز الوعي على عملية التنفس بعمق، وفي ذلك فائدة مضاعفة جرّاء الأثر الكبير للهواء المنعش المحمّل بالأوكسجين على الدماغ والأعصاب. لن نغوص في تفاصيل ذلك الآن لأنه خارج عن موضوعنا بعض الشيء. ثم إن ذلك لا ريب يحتاج لكتاب مستقلّ، كتاب قائم بذاته حول أساليب التأمل...

*

الوصول إلى الحكمة السامية إذن يستوجب التأمل وتركيز الوعي مترافقاً مع إفراغ الفكر. وإفراغ الفكر هذا يتم عبر إهمال الأفكار وتخطيها، أي تسهيل مرورها على دائرة الفكر دون الغوص في تفاصيلها، والتركيز عوض ذلك على عملية محدّدة أو شيء محدّد كالتنفس العميق مثلاً. إن هذا من شأنه بعد وقت قصير أن يكوّن لولباً فكريا فارغاً من الأفكار، وينعكس ذلك الفراغ على الشعور صفاء لا يمكن الوصول إليه بأية وسيلة أخرى... سيشعر الإنسان عندها بوحدته مع الطبيعة، بانتمائه إليها واتحاده معها وسط سكون تام للفكر وسموّ للوعي الموضوعي المجرّد... شعور خالص نقي كثيراً ما يصفه البعض بالوصول إلى الله أو الاتحاد مع الله...

ومع الوقت وتراكم الممارسات، فإن ثقل الأفكار السلبية يخفّ كثيراً مع تراكم الفكر الصافي مما يبعد تأثير ثقل الأفكار السلبية فوق كاهل الإنسان، فوق لولبه الفكري... ثم إن ارتقاء الوعي يبعد الذنب والموت ويرفعهما عن دائرة الشعور كما وأنه يسمح للوعي برؤية الفكر، وبالتالي يقدّره على تخطّي الأفكار المؤذية في كلّ مرة ودون الحاجة إلى ممارسة طقوس تأملية معيّنة...

*

من المهم أن تترافق الحكمة مع نموّ الفكر واتساعه... فالحكمة التي تترافق مع ضآلة الفكر إنما تقود إلى التنسّك وإلى الابتعاد عن

شؤون الحياة وشجونها، وليس في ذلك فائدة للمجتمع ولا أثر دنيوي أبداً...إن أي عملية تغييرية إنما لا تحتاج إلى تنسّك، بل إلى اندماج كلّي في المجتمع والحياة وفهم كبير لماهية الأمور التي تتحكّم بالدنيا والمجتمعات. إن التنسّك عوضاً عن الاندماج في المجتمع وفي صلب النضال من أجل إنهاء الاستغلال لا ريب يبعث البهجة والاطمئنان في نفوس المستغِلّين في هذا العالم كونه يبعد عنهم شبح ذوي الحكمة القادرين على التأثير في المجتمع وتأليبه ضدّهم...

ليس المطلوب هو التنسّك، بل الحكمة المترافقة مع سعة الفكر، وفي ذلك فرق كبير...

وإذا كان للحكمة وارتقاء الوعي فائدة اجتماعية، فبتمكينها البشر من التطور في حياتهم ومن الإدراك الموضوعي للأمور بشكل يسمح لهم القيام بتغيير حقيقي يؤسس لمستقبل أفضل ولمجتمع أكثر إنسانية...

أما إذا كانت الحكمة مترافقة مع ضآلة فكرية وابتعاد عن الحياة والواقع، فلا طائل من ذلك أبداً...

***

الرسم 9:

مركز الوعي :α

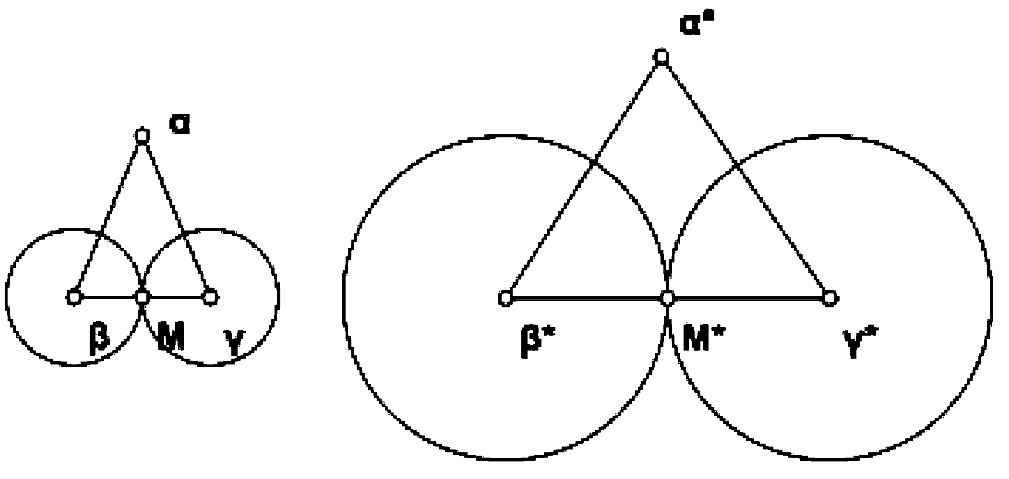
مركز الفكر : β

مركز الشعور : γ

الذنب :G

الموت :D

نقطة الوسط :M



******

المصير

كان مصير الإنسان ولا يزال محطّ اهتمام وتساؤل وقضية مهمة تستجلب الفرضيات والنظريات. وأنعشت فكرة مصير الإنسان بعد الموت عقول الفلاسفة والمنظرين وتمحورت حول هذه الفكرة جميع الأديان...

ومصير الإنسان ما بعد الموت موضوع مقلق مفزع، فهو يطرح الكثير من الأسئلة حول الغرض من الحياة برمتها... ولذلك، فإن معظم الفلسفات اللاإلحادية إنما رسخت فكرة وجود حياة أخرى ما بعد الموت، حياة ثانية أبدية... فقليلة هي الفلسفات التي أفضت إلى نهاية الإنسان بنهاية وجوده الجسماني على الأرض. حتى الفلسفات المادية التي أفضت إلى النهاية هذه، فإنها لم تلغ التساؤلات التي يحملها الإنسان خلال حياته حول نهايته ومصيره مما جعل تبنيها من الصعوبة بمكان، وحكراً على فئة معينة من الناس...

ولأن العقل قد كان ما زال مبهماً، فإن الحياة الأخرى في العالم الآخر تسيّدت دنيا التنظير وفق مفهوم الروح التي تنتقل إلى السماء. وقد ربطت هذه الفلسفات اللاإلحادية بين الحياة الدنيوية ومبدأ

انتقال الروح استناداً إلى مفهوم الحساب والآخرة، فكان أن تسيدت هذه الفلسفات الكثير من المجتمعات في هذا العالم لما لها من تأثير على العقول نتيجة «امتلاكها» إجابات حاسمة على أصعب التساؤلات وأكثرها رعباً وإبهاماً. وهنالك من الأديان ما طرح مفهوم تطهير الروح عبر انتقالها من جيل إلى جيل، ومن جسد إلى جسد...

وهندمت الفلسفات اللاإلحادية مصير الإنسان ورسمت ملامح حاسمة لآخرته، فتضاءل قلقه وقلّت تساؤلاته على نحو كبير لم يعكّره إلا ظهور بعض الفلسفات المادية التي أعادت النقاش حول مصير الإنسان إلى نقطة البداية...

تتحدّث بعض الفلسفات عن أن «الروح» تنتقل من جسد إلى جسد ومن جيل إلى جيل... وفكرة الانتقال فكرة راسخة لدى العديد من الشعوب وفي الكثير من المجتمعات. ومع ازدياد تعداد الأشخاص الذين يذكرون تجارب شخصية لهم مع هذه الفكرة مرفقة بتفاصيل وتأكيدات ومعاينات، يصبح تجاهل هذا الموضوع مسألة غير مقبولة، وأكثر، غير علمية...

هناك العديد من الديانات والفلسفات والمذاهب الفكرية والدينية تقول بانتقال الروح، بـ«التقمّص» كما يسمّونه. كما وأنّه بإمكاننا أن نجد العديد من الأبحاث الموثّقة لا تقتصر فقط على تلك التي وثّقها أيان ستيفنسون. أنا شخصياً أجزم بأني أعرف والتقيت أشخاصاً يتذكرون «حياتهم الماضية» كما يقولون، وبتفاصيل مذهلة تؤكدها المعاينة.

غير أن الفكر الذي يستند إليه المفهوم السائد للانتقال هو محط التساؤل وليس مبدأ الانتقال بذاته؛ فكرة «الروح» أو وجود شيء اسمه «الروح» بادئ ذي بدء... ثمّ إنّ جميع المذاهب الفكرية التي تقول بـ«التقمّص»، كالدّروز أو بعض المذاهب الفكرية الشرق آسيوية أو غيرها، هي في النهاية ديانات، سائر مقارباتها خطّية غير جدلية، مفعمة بالطابع الروحاني.

وانطلاقاً من موضوعنا الأساسي ضمن الإطار الذي نبحث فيه، فإن كلّ بحث حول مصير الإنسان، أي مصير العقل، لا ريب سيرتكز على كون الإنسان هو العقل بذاته، هذا العقل الذي هو النقيض لتلقائية الطبيعة اللاإرادوية...

***

أوّلاً: انتقال العقل الفردي

فلنستعرض الفرضيّة التالية:

العقل كما أسلفنا، هو شكل معقّد جدّاً من الطاقة العاملة ضمن الدماغ البشري. وإذا كان الدماغ البشري الحيّ قادراً على حمل هذه الطاقة، فلأن الجسد يؤمن الحياة لهذا الدماغ عبر تزويده بكلّ ما يلزم ليبقى الدماغ حيّا عاملاً قادراً على احتواء العقل الطاقويّ. وبعد موت الجسد والدماغ، فإن الدماغ لا يعود قادراً على نقل الطاقة بعد موت الأعصاب، وبما أن الطاقة لا تزول، فإنها تخرج من الدماغ. غير أن العقل إذا ما كان خارج الدماغ لا يقدر على العمل، وبالتالي فإنه بحاجة

للرسوخ في دماغ بشريّ آخر حتى يستأنف العمل وحتى يكون قادراً على التطوّر...

ودماغ طفل صغير يكون فارغاً تماماً من أي عقل، وفي تلك المرحلة من تكوّنه العقليّ فإنه يشكل البيئة المثالية لاجتذاب العقل المنتقل واستقباله.

إذن يموت الدماغ بموت الجسد،، وبذلك تخرج الطاقة منه وقد يلتقطها عقل آخر في دماغ آخر، عقل خالٍ من الأفكار كعقل مولود جديد. وعند ذاك تترسّخ به على شكل ذكريات تشكّل أساساً لحياة هذا الإنسان فيما بعد...

من البديهي هنا أن يتساءل المرء وأن تساوره شكوك معيّنة حول هذا الطرح... لماذا إذن لا يكون الطفل الذي يستقبل دماغه عقلاً آخر على مستوى مماثل في إدراكه وفكره للإنسان الذي التقط عقله؟

إن الوعي والفكر العامل لدى الإنسان هو ملك للعقل الجديد، وهو يكون لا يزال في طور التكوين وبداية التطور. أما العقل المكتسب فهو عبارة عن ذكريات ومشاعر التقطها العقل الجديد، وستشكل أساساً وخزاناً لتطوره فيما بعد... إذن، فالعملية تصبح أشبه بعملية فك طلاسم ورموز. ولمزيد من التوضيح حول هذه النقطة بالذات، فلنستحضر مثالاً قد يوضح هذه المسألة بشكل أفضل.

من الطبيعي مثلاً أن جـزءا مهماً من ذكريات وذاكـرة العقل يرتكز على الجنس الآخـر، وإلـى العملية الجنسية تـحـديـداً... إن عقلاً جديداً

كعقل طفل لا يعرف ولا يستوعب العملية الجنسية، وبالتالي فإنه لا يمكنه أن يستسقي جزءاً مهماً من ذاكرته إلى أن يأتي الوقت الذي يفهم ويستوعب به العملية الجنسية. فالتفاصيل والمشاهدات الحسّية تحتاج إلى أن تكتسب من جديد من خلال الحواس والوعي حتى تتمكّن الأفكار من التجسّد في العقل والذكريات من جديد.

وهنالك أمثلة أبسط بمفاهيم وأمور أقلّ تعقيداً وحجماً من مسألة العلاقة الجنسية. فلنفرض مثلاً أن جزءاً من الحياة السابقة له علاقة بالطائرة على سبيل المثال فإن العقل الجديد لا يمكنه استقاء الذكريات التي في الحياة السابقة والمتعلقة بالطائرة حتى يتعرّف العقل الجديد، ومن خلال الحواس والوعي، على الطائرة ودورها وعملها. إذن الأمر كذلك، وعدّد ما شئت من الأمور والذكريات التي تحتاج أن يتذكّر الوعي ما تلقّنه حتى يتمكن الفكر من استحضار الذكريات. والأمر سيّان بالنسبة إلى الأماكن والأشياء والتفاصيل والبشر.

ثم إنه هنالك عامل آخر هو عامل الزمن. فالإنسان إذا لم يستخدم ذكرياته السابقة تبتعد أكثر فأكثر مع مرور الزمن، وكثيراً ما ينساها المرء بعد وقت، وقد تكوّنت فوقها ذكريات جديدة من الزمن الحالي للعقل. فالمرء قد ينسى ذكريات حصلت معه في الزمن الآني للعقل، فكيف بذكريات من حياة أو حيوات سابقة؟!

أخيراً في هـذا الموضوع، يجب عـدم إغفال موضوع إدراك وفهم ورسـوخ فكرة أن العقل ينتقل بعد مـوت الجسد... فأنت تـرى أنـه في

المجتمعات التي تؤمن بالحياة الجديدة، كنظرية التقمص مثلاً لدى بعض الأديان، فإن الناس كثيراً ما يتذكّرون حياة سابقة لأنه هنالك قناعة راسخة بأن الإنسان سيعود يوماً إلى الحياة من جديد. وهذه القناعة متجذّرة في العقل الفردي والجماعي، وهي جزء من ثقافات هذه الشعوب. فترى الأهل يستنطقون ويستفسرون حول كلّ كلام غريب يصدر عن أولادهم، وبالتالي يسهمون باجترار الذكريات من «حياة سابقة» كما يسمّونها... أما في المجتمعات التي لا يشكّل هذا الموضوع ثقلاً أو لا ذكر له حتى في ثقافتها، فترى أنه غالباً ما تهمل هذه الأمور فينسى الطفل وتطمس ذكرياته وتبنى ذاكرته من جديد، وعلى أساس جديد...

***

ثانياً: وحدة العقل البشري

ولنستعرض فرضيّة ثانية:

إن العقل البشري واحدٌ، العقل الجماعي لجميع البشر على وجه الأرض. إن وحدة العقل البشري الجماعي هي المنطلق الأساسي من أجل فهم شامل وموضوعي لعلاقة العقل بالطبيعة والوجود ودوره في عملية التطور والارتقاء...

والعقل البشري الجماعي، وإن توزّع على مليارات العقول الفردية في أصقاع الأرض كافة، فإنه بوحدته مالك التاريخ المعرفي

البشري بمجمله ومالك الأحداث والذكريات كما انطبعت في هذا العقل.

تتحدّث العديد من الفرضيات والنظريات والأبحاث عن التخاطر الفكري وانتقال الأفكار بين الناس. وانطلاقاً من أن العقل البشري واحد، فإن هذه المسألة تصبح مفهومةً تماماً. فالعقل الفردي للميت هو جزء من العقل الكلّي لجميع البشر، يتحرّك ضمنه وينتمي إليه. وبالتالي فإن انتقال العقل الفردي بعد الموت بذكرياته وأفكاره إلى مكان آخر ضمن تلك الوحدة الشاملة، أي العقل البشري الجماعي، تصبح مسألة مفهومة تماماً أيضاً...

***

التخاطر

نقطة أخيرة، وعلى هامش هذا المحور المتعلّق بمصير العقل الفردي، وبالحديث عن التخاطر.

كثيراً ما يحدث معنا أن نشعر بتناغم فكري بيننا وبين شخص آخر إذ نتحدّث عن موضوع معين. قد نشعر بانسيابية في الحديث وسلاسة في الانتقال وتناغم نعجز أحياناً عن تفسيره... فقط نفكر به ونشعره... إن هذه العملية إنما تحدث عندما تتطابق أفكارنا مع الشخص الآخر تماماً في موقعها على دائرة الفكر وفي الوقت ذاته أيضاً... فقد نتحدّث مع أشخاص ولكن ليس بالضرورة أن تكون الأفكار نفسها. فقد

يتحدّث كل شخص من منظور مختلف، فيقع الموضوع ذاته في أمكنة مختلفة من دائرة الفكر دونما تطابق في المكان. أو أننا نفكّر الأفكار نفسها ومن المنظور نفسه لكن بفارق زمني معيّن. غير أنه إذا فكرنا الأفكار نفسها وفي الوقت نفسه، فإن التناغم الفكري يبلغ أوجه لأن العقل البشري واحدٌ، وفي هذه الحالات يحدث التخاطر الحيّ...

******

III ـ إضطرابات العقل

1. مقدمة
2. الإحباط
   i. أعراضه
   ii. كيف يحدث
   iii.كيف نتخطاه
3. القلق
   i. أعراضه
   ii. كيف يحدث
   iii. كيف نتخطاه
4.الفصام الذهني – اغتراب الوعي
   i. أعراضه
   ii. كيف يحدث
   iii. كيف نتخطاه

مقدمة

تتعدّد اضطرابات العقل وتتنوّع غير أن أساسها واحد... سوء تموضع الوعي بالنسبة إلى مركزي الفكر والشعور.

واضطرابات العقل تختلف في مضمونها وأعراضها وفي طبيعة المشاعر التي تنتج عنها. وفي بحثنا هذا سوف نلقي الضوء على ثلاثة اضطرابات عامة تشكل أساساً لاضطرابات متفرّعة...

والاضطرابات العقلية التي سنتناولها ها هنا هي الاكتئاب المزمن، والقلق المزمن، والفصام الذهني وهو من الاضطرابات الذهانية التي تتّسم بنوع من الاحتيال على العقل لتخليصه من الكآبة الشديدة أو القلق الشديد وإبعاد الذنب والموت عن دائرة الشعور.

وحتى ضمن هذه الاضطرابات تجد اضطرابات متفرّعة تختلف فيما بينها بدرجة حدّتها ومضمونها وأعراضها، غير أنها ترتكز على حالة واحدة من سوء تموضع الوعي في العقل...

الوسواس القهري مثلاً، وهو أحد اضطرابات القلق، فإنّه يشتمل على طقوس معيّنة يمارسها العقل المضطرب حتى يشعر بالراحة كذكر

كلمـات معيّنـة، أو عـدّ الأشـياء أو ترتيبهـا فـي نسـق معيّـن، أو القيـام بعـدّة ممارسـات تهـدف إلـى التيقّـن...

*

واضطرابات العقل قديمة قدم الإنسان لكنها أخذت حيّزاً مهماً من البحث في القرنين الأخيرين على وجه التحديد لما لها من تأثير على حياة الإنسان ووجوده. وقد دأب العلم والطب النفسي العيادي على اجتراح الوسائل والأساليب العلاجية، والتي ارتكزت، إذا نجحت، على شيء واحد بقصد أو بغير قصد؛ سموّ الوعي ورقابته للأفكار السلبية...

فمشكلة الإنسان المضطرب أنه لا يعي اضطرابه، ويولي اهتماماً وتركيزاً على الأفكار السلبية التي يتداولها فكره أكثر بكثير مما يولي اهتماماً وتركيزاً على فهم اضطرابه. واضطرابات العقل تتسم بأن العقل المضطرب دائماً ما يكون مقتنعاً تماماً بأفكار معيّنة كالفشل مثلاً، أو أن أذىً ما سيلحق به من شيء معيّن، أو ألا معنى للحياة على سبيل المثال. هي أفكار لكنّ العقل المضطرب دائماً ما يعتبر أنّه مالك للحقيقة المطلقة فيما يتعلّق بهذه الأفكار وبأنها صحيحة تماماً.

وكثيراً ما نجد درجات من الاضطراب واختلافاً في مستوى حدّة الاضطراب الذهني بين شخص وآخر. وكما سنرى لاحقاً، فإنّ ذلك يحدث تبعاً للتموضع العمودي للوعي. وفي الواقع، فإنّ حدّة الاضطراب العقلي قد تتغيّر تبعاً للعوامل المؤثرة وضغوط الحياة.

لقد دأب الطب الحديث، وخصوصاً ذلك المرتبط بما يسمى «الأمراض النفسيّة والعصبية» والطب النفسي وما إلى ذلك، على تصوير وضع الإنسان الذي يعاني من كآبة مزمنة، على سبيل المثال، بأنه يعاني من خلل طبيّ معيّن في كيميائيات دماغه. وكثيراً ما يعمد الأطبّاء إلى إفهامه بأن لا ذنب له بالمشاعر التي تتولد لديه لأن سببها خلل أو عدم توازن في كيميائيات دماغه. لا ريب في أن هذا الكلام وحده كفيل بإبعاد الذنب عنه وإن بطريقة ملتوية، فيلجأ إلى تناول الأدوية التي غالباً ما تحمل آثاراً جانبية سلبية على الجسد والدماغ حتى. أما الفعل الحقيقي فليس لها بالواقع، إنما فعل مجموعة عوامل ذاتية أخرى لا علاقة لها بمفعول الدواء بشكل مباشر.

أوّلاً، لا شك بأن للأدوية أثراً على بعض الأعراض الجسدية والمحسوسة للاضطرابات النفسية، خصوصاً وأنّ الوعي عندها يكون غارقاً في وضع غير سليم. غير أن هذه الأدوية لن تعمل على تغيير نمط الأفكار المنتجة للمشاعر المضطربة كالكآبة والإحباط والقلق. إن التخفيف من الأعراض الجسدية لا شكّ يؤثر في نظرة «المريض» إلى «مرضه» وقد ينعكس ذلك إيجاباً عليه لشعوره بنتائج ملموسة وقد كان قبل ذلك فاقداً للأمل من تحسّن حاله.

ثانياً، إن الشعور بأن الأمور هي تحت السيطرة من خلال حبّة الدواء هو لا شك عامل أساسي ومهم في تحسّن حال «المريض» وقد كان قبلاً يظن أن الأمور خارج السيطرة خصوصاً في ظل شعوره بالضّعف الشديد.

أما النقطة المحورية في هذا الإطار فهي حديث الطبيب بألا «ذنب» للمريض في كآبته أو قلقه، وفعل تركيز وعي المريض على حالته والتعاطي معها على أساس أنها مرض نفسيّ يحتاج للأدوية حتى يتعافى. وعند ذلك، فإن كل فكرة سلبية لدى الإنسان «المريض» ترتبط تلقائياً بواقع أن «مرضه» يسبب هذه المشاعر، فيطمئن ويتحسن حاله. إن تناول الدواء بلا شكّ يعطيه دفعة من الاطمئنان قد تدوم طوال اليوم، غير أن الفعل الحقيقي هو للابتعاد عن الذنب... إن ذلك ليس بالأمر السيئ، لكن بالإمكان التوصل لنتائج أفضل بكثير عبر طرق أسلم وأفضل وأكثر دواماً ومن دون احتيال على العقل...

*

واضطرابات العقل، شأنها شأن جميع أوجه الحياة، هي نتاج تراكمات تؤسّس لها. غير أن اللحظات التي تسبق الإغفاء مباشرة، وأثناء النوم وما بعده لربّما تكون من المراحل الأساسية جدّاً والمفصليّة في بدء اضطراب العقل. فالنوم إنما هو نوم الوعي، يشهد غرقه إلى ما دون الحدّ الفاصل ما بين الواقع والخيال. وأثناء النوم، يفلت الفكر من عقال الوعي تماماً. وبالتالي، فإن التفكير المركّز على أفكار مقلقة أو محزنة مثلاً قبل الإغفاء مباشرة ستعزّز ثقل الأفكار هذه حول لولب الفكر... وعندما يصحو العقل، ويبدأ الوعي بالصعود إلى ما فوق الحدّ الفاصل بين الخيال والواقع، يبدأ الاضطراب، إذ ستلتقط الأفكار المثقلة بوهج الذنب أو الموت الوعي وهو في مرحلة منخفضة في بدايات صعوده فيبدأ الاضطراب.

وبالتالي، فإن الإصرار على التفكير بأشياء مريحة قبل النوم، أفكار لا تبعث على القلق أو الحزن، مسألة مهمّة وأساسية لتفادي اضطرابات العقل.

*

أخيراً، إن ضغط الحياة هو عامل أساسي في تقدّم اضطرابات العقل تعزّزه منهجية معيّنة في التفكير ومقاربة الأمور.

إن نمط العلاقات الاقتصادية الاجتماعية السائد اليوم في العالم جعل همّ الإنسان الأساسي تأمين سبل العيش والحياة الكريمة، وجعل مجمل المفاهيم مرتكزةً على هذا الموضوع؛ حتى الطموح أمسى تام الارتباط بالمادة والأموال. وعيش الإنسان الذي هو حقٌّ له، أمسى همّاً عليه؛ إنها لمهزلة حقيقية...

إنّ الوعي هو الحاضر، هو قوة «الآن» في العقل. وفي الواقع، إنّ النمط الاقتصادي المسيطر دائماً ما يستجلب إفراطاً في التخطيط، إفراطاً من العيش إمّا في الماضي وإمّا في المستقبل، إفراطاً في استخدام الفكر على حساب الوعي، ولعلّ هذا من أهمّ العوامل المؤثرة في غرق الوعي واضطرابات العقل. أمسينا متعوّدين على التفكير إمّا بالمستقبل فنمارس القلق وإمّا بالماضي فنمارس الحزن. هذا ما قادتنا إليه الحياة والنّمط الاقتصادي الاجتماعي المسيطر؛ علينا أن نعيش الحاضر، أن نستمتع به... أن نعيش «الآن»...

لقد طوّر العقل آلياته الدفاعية على مرّ الزمن من خلال تجاربه

مع الطبيعة، تلك الآليات التي تحفظ وجوده وتحميه من الأخطار، والخوف أحد أهمّها. غير أن نمط الحياة الذي انتهجه العقل البشري ونمط العلاقات الاقتصادية الاجتماعية بين البشر خلقت هموماً إضافية لم تكن موجودة قبل ظهور الاستغلال. لقد أمست حياة الإنسان هماً بذاته... إن مجرّد فكرة أن لكل شيء ثمناً وشتّى الواجبات التي على المرء إتمامها كي يستمرّ في الحياة مخيفة تماماً. وبعد أن كان الإنسان سيّد الكائنات أمسى عدوّ نفسه وعدو الطبيعة والوجود على السواء.

ويضاف إلى ذلك أثر الموروثات الفكرية والثقافية. إنّ الشعور هي نتاج الفكر، أما مختلف المشاعر التي تنتابنا فهي نتاج سيرورة ارتقاء العقل وتطوّره، ومشاعر كالحزن والقلق تطوّرت لتحمينا. ينتابنا الخوف فنتفادى المخاطر، ويؤلمنا الحزن فنتعلّم من أخطائنا. غير أنّ الموروثات الفكرية والثقافية حوّرت المشاعر لتصبح ردّ فعل على أمور تتعلّق بهذه الموروثات تحديداً، فعبثت بالتالي بمحتوى الأفكار والمشاعر وفق تطوّرها وارتقائها الطبيعي. فمثلاً أمسى الحزن يرتبط بمواضيع اجتماعية وليس أموراً طبيعية كالشرف مثلاً، والسمعة، وما إلى هنالك...

******

الإحباط

أوّلاً: أعراضه

الإحباط أو الاكتئاب هو أحد أكثر اضطرابات العقل شيوعاً في أيامنا هذه، وضغط الحياة، كما أسلفنا، هو أحد أهم العوامل التي تؤدي إلى الإحباط...

والإحباط الذي نتحدث عنه هنا هو ليس ذاك الذي قد يراود المرء من فترة لفترة. فكل إنسان معرّض لأن يحبط جرّاء مسألة ما، أو تعقيدات معينة قد تولّد شعوراً بالاكتئاب لا ريب اختبره كل إنسان على وجه الأرض...

إنما الإحباط الذي نتناوله هنا هو ذاك المزمن الذي يرافق الإنسان على مدى طويل من الزمن بشكل شبه دائم، وبشكل يؤثر على حياته اليومية، وعلى كيفية ممارسته لمهماته ونظرته للحياة عامة... وغالباً ما يكون الإحباط المزمن نتاج سيرورة تاريخية للمرء عمرها عمر تكوّن عقله، ومنذ تعرّفه إلى تفاصيل الحياة، ومنذ بدء فهمه واستيعابه للضغط الحياتي...

أما أعراض الإحباط فتختلف وتتنوّع بين امرئ وآخر تبعاً لظروف حياته ولتكوين عقله وتمايزه العقلي عن غيره من البشر...

يميل الناس إلى إدراج الحزن كسمة ملازمة للإحباط المزمن، غير أن ذلك ليس بدقيق تماماً. فمن الوارد جدّاً أن يعاني العقل من الإحباط دون أن يترافق ذلك مع حزن عميق. إن الصورة النمطية المتسمة بالكآبة والحزن المرافقة للإحباط قد تكون بحكم كون «العقول العاطفية» التي تحدثنا عنها سابقاً، تلك العقول الحساسة التي تميل إلى الحزن، هي أكثر العقول تعرّضاً للإحباط المزمن، غير أنه ليس حكراً عليها بطبيعة الحال...

ومن البديهي أن يشعر الإنسان الذي يعاني من الإحباط من القنوط. ويترافق الإحباط مع شعور بعدم الاكتراث والاهتمام والمتعة بأمور قد كانت ممتعة مسلية في السابق ومحط اهتمام كبير بالنسبة إليه. ويميل الإنسان المحبط إلى رؤية الأمور بشكل قاتم، وكثيراً ما يميل للتفكير بسلبية، فيظن بأن الأمور لا حلول لها. وهذا النمط في التفكير هو أحد عوارض الإحباط المزمن رغم أن الإنسان المحبط يظن أن تفكيره هذا حقيقي جداً ويعبر تماماً عن الواقع. وقد يفكر أيضاً ألا قيمة ولا أهمية له، وحتى المهمات تبدو أمامه صعبة، أو هكذا يظن، فيميل إلى التقاعس والهروب. وقد يفكر بأن الناس لا يحبونه، حتى أقرب المقربين إليه، فيفسّر أي تصرّف أو عدم اكتراث منهم كدليل على عدم محبتهم واهتمامهم. ثم إن المحبط قد تضعف شهيته أو تزيد

تبعاً لشخصه ولتكوين عقله مما يترك حتماً أثراً على بنيانه فيقلّ وزنه أو يزيد... وإذا كان المحبط إنساناً مدخناً، فكثيراً ما يسرف بالتدخين مؤذياً صحته مراكماً سوءاً فوق سوء...

أخيراً، وسنرى كيف في المقطع التالي، يطفو شعور الذنب وقد تراود الإنسان المحبط أفكار عن الموت، وذلك لاقتراب الذنب والموت كثيراً من مركز الشعور. أما الشعور العام الذي يرافق الإنسان المحبط هو عنوان هذا الاضطراب العقلي... وهو شعور مختلط بالقصور والهبوط والقنوط... الإحباط...

***

ثانياً: كيف يحدث

الإحباط هو حالة من غروب الوعي أو غرقه نتيجة ظروف معينة وكيفية معينة لتكوين العقل وعوامل أخرى قد تعود إلى عمر الطفولة. وهو نتاج نمط معيّن في التفكير تدرّب عليه العقل لفترة غير محدّدة قد تعود أعواماً طويلة إلى الماضي أو لفترة موجزة نتيجة حدث أو طارئ معيّن. غير أن مقاربة الأمور وتموضع الوعي عندها، وكذلك تأثير مراكز الجذب والثقل في العقل على تموضع الوعي بالنسبة إلى مركزي الفكر والشعور هو العامل المباشر الذي يؤدي إلى حالة الإحباط المزمن...

والإحباط درجات يحدّدها مدى غرق الوعي وضمور العقل عمودياً. وهو يخلّف مشاعر سلبية قويّة جدّا ومؤثرة بشكل كبير على

حياة الإنسان فتتداخل مع رؤياه لشتى الأمور وأبسطها، ودائماً ما تلعب الذكريات والذاكرة دوراً مغذياً للإحباط مما يطيل أمده...

فوعي الإنسان المحبط غالباً ما يأتي منكّهاً بمشاعر معينة تتأتّى في كلّ مرّة يتذّكر الوعي شيئاً كان قد تلقّنه إبّان إحباطه مما يعيد ذكريات معينة أو مشاعر سلبية تدمع العين وتدمي القلب...

كثيراً ما يقول المحبطون أو يصفون بأن ستارة ما تسدل أمام عقلهم، ومرّد ذلك هو حالة الغرق التي يعانيها الوعي ضمن دائرة الشعور. فما هذه الستارة إلا ستارة الشعور أمام وعي الإنسان المحبط...

إن الإحباط غالباً ما يظهر لدى الأشخاص الحساسين العاطفيين، وحالة غروب الوعي في الإحباط تحدث في الجانبين أكثر منه في الوسط، إذ إن غروب الوعي في الوسط هو شكل العقل الذي يعاني من القلق المزمن، حتى لو ترافق مع شعور بالكآبة كما سنرى لاحقاً.

الإحباط إذن هو حالة غروب الوعي وتموضعه إلى مسافة قريبة من خط مركزي الفكر والشعور ميّالاً إلى مركز الشعور في غالب الأحيان، وبشكل كبير. وإذاك يتمركز الذنب والموت ضمن دائرة الشعور في مكان قريب من المركز مما يؤثر على مجمل المشاعر المتوّلدة حول دائرة الشعور، منعكساً على الوعي وبالتالي على الفكر وهكذا دواليك...

ولا عجب إذن في أن الإنسان الذي يعاني من الإحباط المزمن كثير الشعور بالذنب، كثير التفكير في الموت وأحياناً بالانتحار.

*

الرسم 10:

مركز الوعي :α

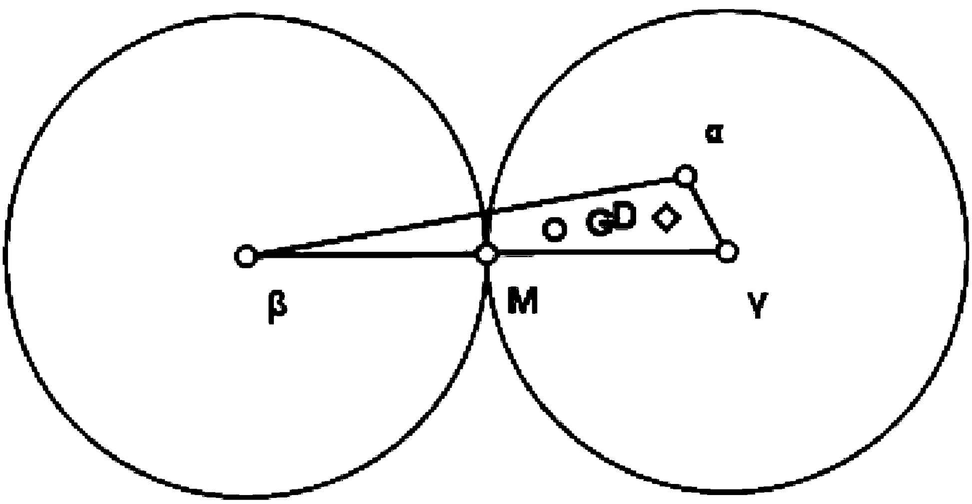
مركز الفكر : β

مركز الشعور : γ

الذنب :G

الموت :D

نقطة الوسط :M



*

كما في الرسم 10، فإن الذنب والموت داخل دائرة الشعور على مسافة قريبة جداً من مركز الشعور، وبالتالي من معظم المشاعر التي قد تراود المرء خلال معاناته مع الإحباط...

وكلّما اقترب الوعي من مركز الشعور زاد تأثره بجذبه نحوه، فغرق الوعي أكثر... وتتكاثر الأفكار السلبية على القوس الداخلي

لدائرة الفكر ويزيد ثقلها فتجذب الفكر أكثر فأكثر إلى هذا المكان تحديداً يقابلها مشاعر قوية جداً ووهاجة بحكم قربها من مركزي الذنب والموت تؤثر بالوعي أكثر فأكثر وتجذبه نزولاً فيغرق أكثر فأكثر...فتسود العقل مشاعر ملؤها الكآبة والقنوط مترافقة مع إحساس كبير بالذنب وأفكار حول الموت وحتى الانتحار...

وكما أسلفنا، الإحباط درجات، فكلّما غرق الوعي زاد الإحباط وارتفع منسوب الكآبة. أما الحالة القصوى من الإحباط والاكتئاب هي عند وصول الوعي إلى ما بين مركز الشعور (γ) والنقطة (γ´) عند طرف دائرة الشعور الأقصى إلى اليمين. وما يتعدّى ذلك يدخل في إطار اضطراب ذهاني كالفصام الذهني، وسنرى ذلك في قسم آخر. وفي الحالة القصوى من الإحباط هذه، سيقع الذنب والموت تماماً في مركز الشعور، فيصاب العقل عندها بحالة من الجمود التام قد يوقف المرء عن الحركة والكلام غارقاً في الذنب تماماً (Catatonia). فيقع عندها مركز الشعور فوق أو أمام الوعي، فلا يرسل الوعي إلى الفكر إلا أفكار الذنب والموت والكآبة...

وقد يسقط الوعي فيما بين نقطة الوسط ومركز الشعور، وعند ذاك تحدث حالة من الجمود التام مشابهة لكن مع فقدان تام للمشاعر أو ضياعها، فلا يحرّك عندها المرء ساكناً حتى لو أنبئ بكارثة وكأنه فقد شعوره بالوجود...

*

والعقول العاطفية أكثر عرضة للإحباط كما ذكرنا، ودائماً ما تغلب على مشاعرهم الكآبة الشديدة وشعور كبير بالذنب...

والإحباط المزمن إذن هو حالة من غروب الوعي أو غرقه متأثراً بثقل الأفكار والمشاعر السلبية، المتأثرة بدورها بالذنب والموت، فينجذب الوعي نزولاً وإلى مركز الشعور يميناً...

وهناك حالات من الإحباط تصيب بالإجمال الأشخاص العمليين ولا تترافق مع شعور عام بالكآبة والذنب... وفي تلك الحالة يحدث أن يغرق الوعي بشكل قويّ ضمن دائرة الفكر فيشعر المرء عندها بالإحباط وفقدان الأمل وذلك نتيجة خضوع تام للأفكار التي تتسيد العقل وتسيطر عليه، وكما نعلم، الأفكار لا تعكس الواقع أبداً...

وحتى الأشخاص العمليون قد يصابون بالكآبة إذا حدث إحباطهم نتيجة حدث معين مؤلم جداً... فيحدث أن يفكر الإنسان العملي بأفكار سلبية على القوس الداخلي لدائرة الفكر، تتكامل هذه الأفكار مع الذنب والموت جاذبة الوعي يميناً مع هبوطه...

وفي أحيان كثيرة يكون لهذا الموضوع أثر كبير على حياة الإنسان العملي فيما بعد، فتتغيّر نظرته إلى الأمور، ويميل إلى العاطفية في طبعه ويتغيّر تمايزه وتموضع وعيه الأفقي حتى ما بعد تخطيه الإحباط... وكثيراً ما نشهد انقلاباً كبيراً في طبائع البشر نتيجة حدث ما معيّن، فالعقل بإمكانه أن يتغيّر..

***

ثالثاً: كيف نتخطاه

دائماً ما يفكر العقل المحبط بأن هذا هو قدره، وبأنه لن يخطو خطوة فيما يتعدّى حاله، وبأنه سيبقى أو قد يبقى على هذه الحال لوقت طويل، أو ربما مدى العمر. بالطبع هذا غير صحيح أبداً، لكن إذا كان الإنسان محبطاً، فمن الطبيعي أن يفكّر على هذا النحو...

*

غالباً ما ننغمس في خضمّ محاولتنا تخطي الإحباط المزمن، كما بقية اضطرابات العقل، في تحليل الأسباب والغوص بالتفاصيل. غير أنه كما بتنا نعلم، فإن ما من سبب محدّد لأي مظهر من مظاهر الحياة، وإن غوصنا في الأسباب لن يؤدي إلا إلى حلقة مفرغة ما من خروج منها. فضلاً عن أنه بغوصنا في الأسباب رجوع إلى الوراء، إلى الماضي بينما الواقع هو حكرٌ على الحاضر، على الآن... فالماضي عندما أمسى واقعاً كان في وقتها «آناً»، كان «الحاضر» في ذلك الزمن. والحاضر الآن هو الذي سيبني المستقبل.

إن فهم الزمن مسألة أساسية في تخطي الإحباط المزمن، ولتحقيق ذلك يجب الانطلاق من الآن وليس الرجوع إلى الوراء، إلى الماضي.

*

مسألة أخرى تعيق التقدّم في مسيرة تخطي الإحباط هي فكرة: «أريد أن أعود كما كنت قبل أن يصيبني الإحباط».

إن هـذه الفكرة خاطئة تماماً، ولـن تسهم إلا في تعقيد الأمـور.

أوّلاً، الزمن لا يعود إلى الوراء ولا بأي شكل من الأشكال. ثانياً، لماذا نريد أن نعود كما كنا، إلى نمط فكري قادنا إلى هذه المعاناة مع الإحباط؟ ثالثاً، إن تجربتنا مع الإحباط المزمن هي جزء من تاريخنا ومن حياتنا، وهذا واقع سنعيش معه دائماً وأبداً... هي تجربة سننطلق منها لاستكمال تكوين شخصيتنا وكياننا، وهي الحاضر الذي سنبني فيه مستقبلنا، والحياة عبارة عن تجارب لا نهاية لها.

*

يضاف إلى ذلك معيق آخر غالباً ما نرتكبه في مسيرتنا لتخطي الإحباط، هو تعاطينا مع الموضوع كامتحان يجب أن ننجح فيه. إن ذلك لا يفعل شيئاً إلا إضافة هم جديد فوق همومنا المتراكمة. فتخطي الإحباط مسيرة وتدريب وتطور تدريجي، فيه صعود وهبوط ونجاح وفشل، ولا يمكن التعاطي معه كامتحان بأي شكل من الأشكال...

*

وانطلاقاً مما سبق، وفي سياق فهم أفضل للزمن والماضي والحاضر، فإن الوعي هو «الآن». ومسألة تمييز الوعي عن الفكر هي مسألة محورية في مسيرة تخطي الإحباط.

ففكرنا دائماً ما سيتمحور حول مضمون الأفكار وتفاصيل المشاكل، ومجمل الأفكار السلبية التي ستراودنا ومن ضمنها الأفكار التي تقول بأننا لن ننجح في تخطي الإحباط، وأفكار التشكيك بأنفسنا وبالآخرين... أما الوعي، فهو ما سنلاحظ به هذه الأفكار ونهملها

ونركز على أفكار أخرى ستغير التوازنات مع الوقت في لولب الفكر...

إذن، إن ما سنغيره هو ليس ما نظنه «الواقع»، وليس مضمون الأفكار السلبية، بل علاقتنا مع هذه الأفكار، علاقة وعينا مع هذه الأفكار تحديداً. وإذا دربنا وعينا على رقابة أفكارنا، فسنلاحظ أن الأفكار ما هي إلا أفكار، ولا تعكس الواقع أبداً (راجع الفكر والوعي في فصل سابق).

*

إن عملية تدريب الوعي على الارتقاء بحيث يقدر على رؤية الأفكار هو النقطة الحاسمة في مسيرة تخطي الإحباط. عند ذاك سنكتسب شيئاً فشيئاً القدرة على فهم علاقتنا بأفكارنا، علاقة الوعي بالفكر، والقدرة على تمييز الأفكار ومراقبتها. وبالتالي سنقدر على إبعاد الوعي عن التأثر بالمشاعر المغموسة بالذنب والموت، وعندها سنتمكن من تحريك وعينا بسهولة أكبر أفقياً إذ نكتسب الحكمة.

سيطلب منا الإحباط أن ننعزل... بالمقابل سنخرج ونتعرّض للحياة خصوصاً إذا كنّا نشعر بأن لا مزاج لنا في الخروج ورؤية الناس. فخروجنا وتعرّضنا للحياة سيسمح لأفكار ايجابية بالنشوء على دائرة الفكر عوض الغرق في دوامة السلبي من الأفكار. والأفكار الإيجابية نتاج الأفعال الإيجابية تسحب الوعي يساراً وبالتالي الذنب والموت عن دائرة الشعور...

وإذ نعانـــي مـــن الإحبـــاط المزمـــن، مـــن الطبيعـــي أن نفقـــد الاكتـــراث

بأمـور كنّـا نجدهـا مصـدراً لسـعادتنا ومتعتنـا ومبعثـاً لاهتمامنـا فـي السـابق. لكـن إذا فعلنـا مـا كنـا نفـرح بـه فـي السـابق حتـى لـو لـم نعـد نشـعر بذلـك الآن، فسـنعاود الفـرح بـه لاحقـاً وسنسـتعيد المتعـة بـكل مـا كنـا نجـده ممتعاً...

باختصار، وفي مسيرة تخطينا للإحباط، يجب أن نفعل ما نعتقد أنه مصدر للسعادة حتى لو كنا لا نشعر بذلك، لأننا حين نكون محبطين لا نشعر بسعادة في أي شيء. وحين نكون محبطين مكتئبين سنكون بعيدين أشدّ البعد عن الاستمتاع بأي شيء، بعيدين عن التحدّي وعن خوض الحياة بشؤونها وشجونها، وهذا أمر بديهي.في الواقع، هذا ما يفترض أن نعيشه ونفكر به أثناء مرورنا بتجربة مع الإحباط. لكن إذا زرعنا أفكاراً إيجابية عن الحياة وعن أنفسنا، حتى لو كنا لا نصدّقها، فسوف نصدقها فيما بعد. إن هذه الأفكار الإيجابية هي التي ستجذب الوعي يساراً وستعيد التوازن للعقل... وقد يكون التفكير والتخطيط للمستقبل أبعد ما يكون عنا حين نعاني مع الإحباط، لكننا إذا أدركنا وفهمنا عامل الزمن، وشرعنا بالتفكير بالذي يجب أن نفعله عوض التفكير بالذي حصل، فإن ذلك حتماً سينعكس إيجاباً على حالنا... فالمطلوب هو التركيز على الأفكار المنتجة، تلك الأفكار التي تطلب منا الشروع بأمر ما عوضاً عن الأفكار التي لا تنتج شيئاً ولا دور لها إلا في جعلنا محبطين كئيبين.

قـد نظـن أن مشـاكلنا كبيـرة جـداً، لكـن فـي الواقـع مـا مـن شـيء أهـم مـن صحتنـا العقليـة... فحتـى لـو كانـت مصائبنـا كوارثيـة حقـاً، كالإفـلاس

أو المـوت أو فقـدان أحدهـم أو مـا شـابه، لكـن شـتان مـا بيـن أهميـة هـذه المصائـب وأهميـة صحتنـا العقليـة.

*

أخيراً، ثمة أمور أساسية جداً فيما يتعلّق بالصحة العقلية كالصحة والمأكل والمشرب والنوم الكافي والنظافة الشخصية. فالإحباط غالباً ما سيجذبنا لإهمال هذه المسائل مما سيزيد حالنا سوءاً. إن الحياة الصحية والمظهر المرتب هي مكونات أساسية للصحة النفسية، فضلاً عن أنها تحسن من نظرتنا إلى ذاتنا، وستسمح بنشوء الكثير والكثير من الأفكار الإيجابية في لولب الفكر.

من المستحيل أن يكون المرء سعيداً، إذا كان يريد التفكير بسلبية ويهمل صحته ومظهره وينعزل ويتجنب الناس... هذا ببساطة ليس شيئا معقولاً...

******

القلق

أوّلاً: أعراضه

كثيراً ما نشعر بالقلق وأي إنسان عرضة للقلق بين الفينة والفينة. والقلق قد ينتابنا جرّاء الخوف من شيء ما، أو من حالة معيّنة ترتّب شعوراً بالقلق الذي ينتهي بمجرّد تخطي المسألة التي قلقنا جرّاءها...

إذن أن نشعر بالقلق، فهذا أمر عاديّ؛ أما حالات القلق المزمنة فهي شكل من اضطرابات العقل وذلك أمر مختلف...

والقلق يسبب العديد من الاضطرابات الجسدية وبالتالي فإن أثره على الجسد مباشر وواضح... فالجسد لا يميّز ما يتلقّاه إذا كان خطراً حقيقياً أو وهمياً، وبالتالي فإنه يتخذ ما يأمره به الدماغ من إجراءات دفاعية وتلك الإجراءات تسبب أعراضاً جسدية واضحة ومحسوسة تماماً...

فما إن يفكر عقلنا بالخطر، فإن الدماغ الذي يعمل فيه العقل يرسل إشارات إلى الجسد وأوامر حتى يتخذ وضعاً دفاعياً. فيتقوس الظهر قليلاً أو تنحني الأكتاف إلى الأمام، وتتشنج العضلات والأعصاب في الجسد والمعدة والأمعاء حتى ويرتفع السكر في الدم وتتكاثر

الإفــرازات التــي يدرّهــا الجســم فــي وضعيــة الدفــاع عــن النفــس. وتتســارع الأنفـاس بغيـة أخـذ كميـة أكبـر مـن الهـواء وتتسـارع دقـات القلـب. إن كلّ هـذا وأكثـر هـو جـزء مـن تصـرّف أوتوماتيكـي يقـوم بـه الجسـد للدفـاع عـن النفـس إزّاء الخطـر المحـدق...

وفي حالة القلق المزمن، فإن الأخطار دائماً ما تكون غير حقيقية وترتكز على فرضية تقترح الأسوأ، وما ردّ فعل الجسد إلا الشيء الطبيعي الذي يقوم به إبّان الشعور بالخطر. وغالباً ما تضاعف العوارض الجسدية حالة الخوف، وتسبب الارتباك وتزيد من منسوب القلق لأن الإنسان لا يعرف أن هذه العوارض هي ما يفترض أن يحسّ به عندما يقلق أو يخاف...

والقلق يرتب أيضاً أعراضاً ذهنية بحسب طبيعة القلق ونوعه. فهناك القلق العام الذي يتميّز بالقلق إزاء الصغيرة والكبيرة، وبأفكار غير منتجة تنتج شعوراً بالقلق والاضطراب... وهنالك ضروب الوسواس القهري التي تتميّز بالتفكير بأن شيئاً ما سيحصل جرّاء خوف محدّد، ويرتب ذلك أعمالاً وطقوساً يظنّ بها الإنسان الذي يعاني من الوسواس القهري خلاصاً من محنته، لكن الواقع هو أن هذه الطقوس، وإن رتبت شعوراً بالارتياح لفترة معيّنة، لكنها لم تعالج لبّ المسألة الذي هو الوسواس بذاته. وهناك الهلع الذي يرتّب مشاعر قوية وأعراضاً جسدية عنيفة في بعض الأحيان...

تختلف اضـطرابـات القلق وتـتـنـوّع، لكن أساسها واحــد، الأفكار غير المنتجة والسعي إلـى اليقين والاثـنـان ثقافة خاطئة يتلقنها العقل

ويتدرب عليها خلال حياته، لكن بإمكانه تخطيها بالتلقين والتدريب أيضاً...

***

ثانياً: كيف يحدث

إن القلق المزمن هو حالة من غروب الوعي بجذب من الأفكار والمشاعر المتأثرة بالذنب والموت. وإذا كان الإحباط المزمن المترافق مع الاكتئاب هو حالة اقتراب الذنب والموت من مركز الشعور، فإن القلق هو نتاج أثر الأفكار والمشاعر وثقلها، والتي تتعلق تحديداً بالخوف من الشعور بالذنب أو الموت... وبالتالي فإن الأفكار والمشاعر التي تسبب القلق المزمن هي تلك التي ترتكز على الخوف من الموت أو الخوف من الذنب، وفي غالب الأحيان من الاثنين معاً...

القلق العادي أو العرضي الذي قد ينتابنا في وقت معين محدود هو نتاج أفكار مقلقة في أية لحظة وأي زمن، لكن القلق المزمن هو نتاج ثقل الأفكار في منطقة معيّنة وثقل المشاعر المتولّدة في المنطقة المقابلة. عند ذاك يتأثر الوعي ويغوص بشكل يجعل العقل غير قادر على تمييز ضلال هذه الأفكار... أما في حالة الوسواس القهري، فإن هذا الثقل يرتكز على فكرة محدّدة تبدأ من مكان ما وتنتهي بكارثة يظنها المرء ستولّد عاقبة وخيمة تسبب الذنب أو تسبب الموت، أو الاثنين معاً...

*

وفي حالة القلق المزمن، يكون غرق الوعي إجمالاً في المنطقة المتوسطة ما بين دائرتي الفكر والشعور وغالباً داخل دائرة الشعور مع انحياز نحو الجهة اليسرى من الدائرة... ولأن القلق كما كلّ الاضطرابات العقلية هو نتاج ثقل الأفكار في مكان معيّن، فإن هذا الثقل يجذب الفكر نحوه، نحو هذه المنطقة وهذه الأفكار، وبالتالي فإن قوة جذب الأفكار القلقة غير المنتجة تتضاعف مع مرور الزمن وتعظم، وبالتالي فإن التدخل لإصلاح الوضع وتخطي هذه الحالة يصبح مسألة ضرورية...

*

الرسم 11:

مركز الوعي :α

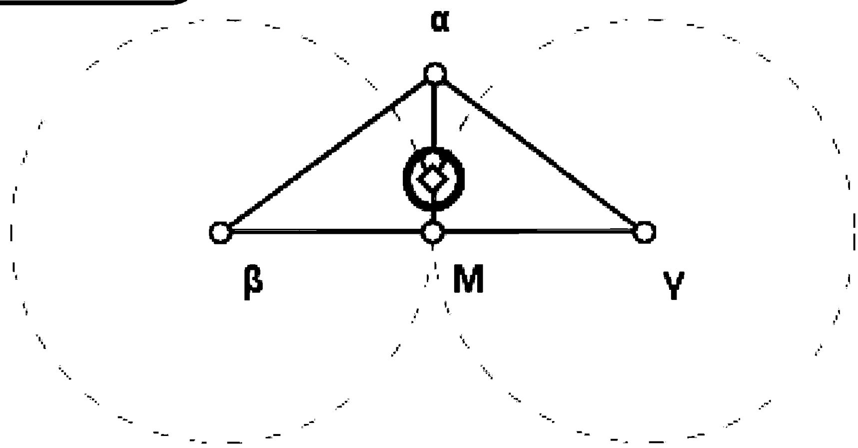
مركز الفكر : β

مركز الشعور : γ

الذنب :G

الموت :D

نقطة الوسط :M



كما في الرسم 11، فإن الأفكار والمشاعر التي في الدائرة في الوسط هي تلك التي تترافق مع القلق المزمن، وبالتالي فإن تركز الأفكار فوق لولب الفكر في تلك المنطقة بالذات ينتج تأثيراً على الوعي فيغرق، وعلى الفكر الذي يجتذبه الثقل إلى تلك المنطقة تفسها فيعاود الكرة لينتج الأفكار هنالك...

ومن هذا الرسم نتبيّن أن الأفكار الواقعة ما بعد تلك المنطقة تولّد شعوراً قريباً جدّاً من الذنب. إزاء ذلك لا عجب إذن بأن الذي يلي تلك الأفكار شعور محزن وكآبة تترافق مع شعور بالذنب، وذلك يفسّر سبب ترافق القلق المزمن في كثير من الأحيان مع حزن ومع شعور بالذنب والكآبة إزاء الحال الذي وصل إليه المرء جرّاء اضطرابه. وهذه الأفكار تقع على القوس الذي يلي ذاك الذي تتركز عليه الأفكار المقلقة...

وكما نتبيّن من الرسم 13، فإن القلق الفكري إنما يأتي مباشرة بعد نقطة الوسط، وهي التي تمثل قمة الحيرة مع تلامس الفكر والشعور، تلك الحيرة التي تسبق القلق... ومن الطبيعي أن الوعي سيغرق أكثر فأكثر متأثراً بجذب الشعور والأفكار المفعمة بالخوف من الذنب والموت، وبالتالي يتولّد القلق على القوس الأدنى، ويصبح مجرّد الاقتراب من تلك الأفكار السابقة يولّد القلق، وقد ينسى المرء عند ذاك حتى جذور قلقه ومخاوفه...

إن المدى الأقصى الذي يبلغه الوعي هو نقطة الوسط أو ما

يقترب منها، وما يتعدّى يصبح في خانة اضطراب عقلي مختلف، الفصام الذهني، وسنبحث في ذلك في الفصل التالي من هذا الكتاب. إذن، القلق لا يمكن أن يتخطى الوعي فيه الخط الفاصل ما بين الواقع والخيال...

الفكر بطبيعة الحال لا يولي أهمية للقلق كحالة بقدر ما يولي أهمية لمضمون قلقه. والواقع أن تخطي القلق المزمن أهم بكثير من أية صعوبات أو مآس قد يخشاها المرء. فأثناء معاناتنا مع القلق، ستبدو لنا مخاوفنا حقيقية جداً، وسنفكّر بها كثيراً، وسنوليها بالغ الأهمية، ونعتبر أن ما من شيء أولى منها بالاهتمام، لأن عقلنا سيكون عندها خاضعاً للفكر العابق بالقلق والخوف.

لكن بعد التقدّم بمسيرة تخطي القلق، فإننا سنشعر بتغير كبير في نظرتنا للمشاكل والأمور، وسيسهل علينا حلّها وتخطّيها...

***

ثالثاً: كيف نتخطاه

«**ملاحظة**: إن الفقرات الأربع الأولى من هذا الباب هي تلك نفسها التي بدأنا فيها حديثنا في باب تخطي الإحباط المزمن».

فكما مع الإحباط، فإن العقل الذي يعاني مع القلق دائماً ما يفكر بأن هذا هو قدره، وبأنه لن يخطو خطوة فيما يتعدّى حاله، وبأنه سيبقى أو قد يبقى على هذه الحال لوقت طويل، أو ربما مدى العمر. بالطبع

هــذا غيــر صحيــح أبــداً، لكــن إذا كان الإنســان قلقــاً فمــن الطبيعــي أن يفكّــر علــى هــذا النحــو...

*

غالباً ما ننغمس في خضمّ محاولتنا تخطي القلق المزمن، كما بقية اضطرابات العقل، في تحليل الأسباب والغوص في التفاصيل. غير أنه كما بتنا نعلم، فإن ما من سبب محدّد لأي مظهر من مظاهر الحياة، وإن غوصنا في الأسباب لن يؤدي إلا إلى حلقة مفرغة ما من خروج منها. فضلاً عن أنه بغوصنا في الأسباب رجوع إلى الوراء، إلى الماضي بينما الواقع هو حكرٌ على الحاضر، على الآن... فالماضي عندما أمسى واقعاً كان في وقتها «آناً»، كان «الحاضر» في ذلك الزمن. والحاضر الآن هو الذي سيبني المستقبل.

إن فهم الزمن مسألة أساسية في تخطي القلق المزمن، ولتحقيق ذلك يجب الانطلاق من الآن وليس الرجوع إلى الوراء، إلى الماضي.

*

مسألة أخرى تعيق التقدّم في مسيرة تخطي القلق هي فكرة: «أريد أن أعود كما كنت قبل أن يصيبني القلق».

إن هذه الفكرة خاطئة تماماً، ولن تسهم إلا في تعقيد الأمور. أوّلاً، الزمن لا يعود إلى الوراء ولا بأي شكل من الأشكال.

ثانياً، لماذا نريد أن نعود كما كنا، إلى نمط فكري قادنا إلى هذه المعاناة مع القلق؟

ثالثاً، إن تجربتنا مع القلق المزمن هي جزء من تاريخنا ومن حياتنا، وهذا واقع سنعيش معه دائماً وأبـداً... هي تجربة سننطلق منها لاستكمال تكوين شخصيتنا وكياننا، وهي الحاضر الذي سنبني فيه مستقبلنا، والحياة عبارة عن تجارب لا نهاية لها.

*

يضاف إلى ذلك معيق آخر غالباً ما نرتكبه في مسيرتنا لتخطي القلق، هو تعاطينا مع الموضوع كامتحان يجب أن ننجح فيه. إن ذلك لا يفعل شيئاً إلا إضافة هم جديد فوق همومنا المتراكمة. فتخطي القلق مسيرة وتدريب وتطور تدريجي، فيه صعود وهبوط ونجاح وفشل، ولا يمكن التعاطي معه كامتحان بأي شكل من الأشكال...

*

وانطلاقاً مما سبق، وفي سياق فهم أفضل للزمن والماضي والحاضر، فإن الوعي هو «الآن». ومسألة تمييز الوعي عن الفكر هي مسألة محورية في مسيرة تخطي القلق.

ففكرنا دائماً ما سيتمحور حول مضمون الأفكار وتفاصيل المشاكل، ومجمل الأفكار السلبية التي ستراودنا ومن ضمنها الأفكار التي تقول بأننا لن ننجح في تخطي القلق، وأفكار التشكيك بأنفسنا وبالآخرين... أما الوعي، فهو ما سنلاحظ به هذه الأفكار ونهملها ونركز على أفكار أخرى ستغير التوازنات مع الوقت في لولب الفكر...

إذن، إن ما سنغيره هو ليس ما نظنه «الـواقـع»، وليس مضمون

الأفكار السلبية، بل علاقتنا مع هذه الأفكار، علاقة وعينا مع هذه الأفكار تحديداً. وإذا دربنا وعينا على رقابة أفكارنا، فسنلاحظ أن الأفكار ما هي إلا أفكار، ولا تعكس الواقع أبداً (راجع الفكر والوعي في فصل سابق).

*

ومن الصعوبات والتحديات الأساسية التي تقف في وجه عملية تخطي القلق تكمن في أن العقل القلق غالباً ما يصدّق أفكاره لحظة تفكيره بها... وهو وإن قدر على تبيان ضلالها فيما بعد، فإنه أثناء التفكير بها يصدّقها تماماً... ومردّ ذلك هو عدم قدرة الوعي على رؤية الأفكار في لحظات التفكير القلق. ولولا هذه الصعوبة، لأمكن الإنسان تخطي القلق بسهولة كبيرة. وغالباً ما تقف مشاعر الإنسان وأفكاره تجاه القلق حجر عثرة في طريقه، إذ إن هذه الأفكار غالباً ما تكون سلبية، وبالتالي فإن أثرها على رفع الوعي معدوم تماماً أو ضئيل جدّاً في أفضل الأحوال...

وإذا كان الحلّ إزاء القلق المزمن يستوجب ارتقاء الوعي حتى يتمكّن من رؤية الأفكار القلقة، فإن ذلك يستلزم تدريباً وتلقيناً للفكر. وحتى وإن كانت الدرب طويلة قليلاً، غير أن النتائج في المتناول، ثم إن الدرب تصاعدي تماماً وإن شابته بعض المطبّات والهبوطات...

*

الإنسان دائماً ما يكره قلقه، وذلك الكره إنما يضاعف القلق

ويسيء إلى حال العقل المضطرب إذ إن كلّ الأفكار السلبية تقع ضمن القوس الداخلي لدائرة الفكر وبالتالي فإن أثرها على رفع الوعي وتخطي القلق معدوم...

إذن، فإن مسيرة تخطي القلق تبدأ «بصداقة» معه وتعلّم منه وفي ذلك فائدة أكيدة. فكرهنا للقلق إنما يزيده قوة، ثم إن الإنسان دائماً ما يتجنب مواجهة الأمور التي تشعره بالقلق إذا ما كان يعاني من القلق المزمن، وفي ذلك خطأ كبير، فذلك يضاعف القلق ويقويه...

فتخطي القلق يتطلّب تدريباً على مواجهة المخاوف، إلى الذهاب إليها ومواجهتها وممارسة تقنيات مواجهة القلق هناك، في قلب النار، وسنجد أن ذلك سيعود علينا بالفائدة الكبيرة، لا أن ننتظر مخاوفنا حتى تأتي إلينا بل أن نذهب إليها نحن بملء إرادتنا...

تصطدم الطرق العلاجية الحديثة بعثرة ليست دائما بالحسبان وهذه العثرة تتمثل بانتظار النجاح كما أسلفنا في الفقرات الأولى... وانتظار النجاح هو ضرب من التيقن، وهذه الأفكار تقع أيضاً على القوس الداخلي من دائرة الفكر، وتستتبع قلقاً إضافياً يضاعف القلق الأساسي. إذن يجب التعاطي مع علاج القلق كتدريب لا كاختبار.

*

إن تقبل «عـدم اليقين» في القلق وفـي الحياة بشكل عـام مسألة محورية وقيمة حياتية أساسية ومهمة جـداً. فبدون قبول اللايقين يصبح التقدّم والتطوّر في الحياة مسألة شبه مستحيلة. والسبيل إلى ذلك هو أن

نسبق الفكرة إلى نهايتها، وأن نقبل النهاية تلك، وأن نتخطاها إلى مكان أرحب وأعلى دون السماح للفكرة بإنتاج التفاصيل ومراكمة الأفكار ومضاعفة الثقل المتعب للأفكار القلقة فيزداد جذب الوعي نزولاً...

الحلّ إذن بتدريب الفكر وإنتاج ثقل لأفكار جديدة في مكان مرتفع عن القوس الذي تقع فيه الأفكار المقلقة. والحلّ الأمثل يتمثل بسؤال بسيط: هل هناك ما يمكن أن أفعله حتى أتخلص من قلقي؟

فكّر دائماً بالحلول... إن هذا السؤال يرفع الفكر إلى مكان أعلى حول دائرة الفكر. وبالتالي، فإذا كان هناك ما يمكن فعله، نفعله... وإذا لا، فإن الفكر سينجذب مجدداً إلى مركز الثقل، وسنعاود الكرّة مراراً وتكراراً... وسنرى مع مرور الوقت أن فكرنا سيتدرّب على الانجذاب إلى أماكن جديدة حيث أنتج ثقلاً جديداً وعامل تأثير جديداً... ثم إنه بهذه الطريقة، فإن وعينا سيتدرب على مراقبة الأفكار، وبالتالي سيسمو ويسمو ليصبح تعاملنا مع الأفكار المقلقة أمراً أسهل... وسنتعلّم أن القلق ليس شيئاً مزعجاً أو معرقلاً لنا، وسنتخطاه.

أخيراً، يجب أن نعلم ونتقبّل أنه حتى بعد تطورنا في مسيرة تخطي القلق، فإن عدم الشعور بالقلق بتاتاً أمر مستحيل. فالقلق جزء من تطورنا العقلي «حتى الساعة»، وجزء من عوامل استمراريتنا كبشر على وجه الأرض، وجزء من حياتنا. أن لا يكون القلق مسيطراً على حياتنا هو شيء بالمتناول، أما أن يختفي تماماً فذلك غير معقول.

******

الفصام الذهني - اغتراب الوعي

أوّلاً: أعراضه

الفصام الذهني أو الشيزوفرينيا هو اضطراب عقلي حاد يشتمل على تهيؤات وهلوسات سمعية وبصرية وحسّية بشكل يجعل العقل المفصوم بعيداً عن عالم الواقع، فيفقد تماسه مع الحياة ويظهر وكأنه يعيش في عالم آخر من صنع خياله وتهيؤاته.

وهناك أنواع واختلافات في أعراض الفصام الذهني الذي يعيش المرء خلاله حالة يتخللها اضطراب فكري وشعوري. فالعقل المفصوم قد يعيش مشاعر مختلفة شأنه شأن العقل العادي، غير أن مشاعره غالباً ما تكون غير منطقية نظراً لوقوعها ضمن الخيال ولا تماس لها مع الواقع أبداً...

لكل إنسان خيال، والخيال يقع كما أشرنا في السابق، ضمن النصف السفلي لدائرة الفكر. والخيال العامل لدى الإنسان الطبيعي يختلف تمام الاختلاف عن الفصام بواقع أن الوعي في حالة طبيعية وفي تموضع صحيح... لكن كيف يحدث الفصام الذهني؟

***

ثانياً: كيف يحدث

الفصام الذهني هو حالة من غروب الوعي وغرقه إلى ما دون الخط الفاصل بين الواقع والخيال، أو بين العقل الواقعي والعقل الخيالي. أي إلى ما دون الخط الذي يقع عليه مركزا الشعور والفكر...

وإذا كان الوعي لا يتأثر بتاتاً بالأفكار والمشاعر التي تقع ضمن النصف السفلي من دائرتي الفكر والشعور، غير أنه يتأثر بهما تماماً إذا ما سقط إليهما، فتنعكس الآية بشكل كلّي من جميع النواحي...

واغتراب الوعي هذا تسهم فيه عدّة عوامل وتشتمل على أو قد تشتمل على حادث مأسوي ذي تأثير كبير مترافق مع قلق شديد أو إحباط قويّ جدّاً بالإضافة إلى نمط معيّن من التفكير تدرّب الفكر عليه بالتزامن مع الوحدة والإحجام عن رؤية الناس والعالم الواقعي. كلّ ذلك يجذب الوعي حتى يصل إلى الحدّ الفاصل ما بين الواقع والخيال مدفوعاً بتراكم الأفكار وضغط ثقلها مع ثقل المشاعر المتولّدة حول دائرة الشعور، بالإضافة إلى جذب الأفكار والمشاعر المتوهجة بتأثير الذنب والموت. وإذ يصل الوعي إلى الحدّ الفاصل يصبح بإمكانه التأثر بالأفكار المتركّزة في الخيال والمشاعر المتولّدة هنالك فيسقط إلى ما دون ذلك الحدّ...

*

لكن لماذا يشتمل الفصام الذهني أو اغتراب الوعي على تهيؤات وهلوسات سمعية أو بصرية أو حسّية أو كلّها معاً؟

إن التهيّؤات قد تحدث لأي كان في حالة مختصرة من غروب الوعي. فالوعي كما أسلفنا قد يتحرّك ضمن نطاقه بشكل مختصر، لكنه

يعـاود التموضـع فـي مكانـه المعتـاد مـن مركـزي الفكـر والشـعور. لكـن فـي حالـة الفصـام، فإنـه بسـقوط الوعـي إلـى مـا دون الحـدّ الفاصـل مـا بيـن الواقـع والخيـال تختلـف دورة العقـل...

فلأن العقل دائم العمل إلى اليسار بعكس اتجاه عقارب الساعة، فإنه يتبع المسيرة التالية :

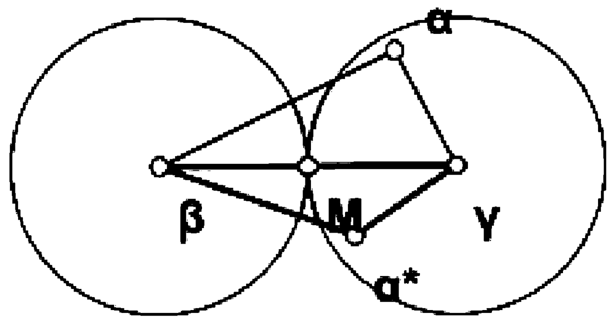
الوعي ß الفكرß الشعور. ومع اغتراب الوعي، فإن تلك الدورة تختلف بحيث تصبح على الشكل التالي: الفكرß الوعيß الشعور.

وذلك حالة مشابهة للأحلام بشكل أو بآخر، وبالتالي فإن الفصام هو حالة من الحلم الحي...

*

الرسم 12:

مركز الوعي في العقل الطبيعي : α
مركز الوعي في العقل المفصوم :* α
مركز الفكر : β
مركز الشعور : γ
نقطة الوسط :M



كما في الرسم 12، فإن الوعي يرى الدنيا من خلال الفكر وفي ذلك اضطراب كبير في دورة العقل، وذلك هو مردّ التهيؤات والهلوسات الحسّية...

*

واضطراب الفصام الذهني يختلف باختلاف تمايز الأشخاص وطبائعهم وشخصياتهم. ولا ريب في أن العقول التي تميل إلى الخيال أكثر عرضة للإصابة باغتراب الوعي، فقط إذا وصل وعيهم إلى الحدّ الفاصل ما بين الواقع والخيال، إذ إن الوعي لا يتأثر أبداً بثقل الأفكار الخيالية إلا ببلوغ الوعي ذلك الحدّ الفاصل وما يتعدّاه...

وتجد أن الأشخاص العمليين المتطرّفين يتخذ فصامهم منحى جنون وارتياب إذا أصيبوا بهذا الاضطراب، بينما يعاني العاطفيون المتطرّفون من اضطرابات شعورية حادة، وحالات من الوحدة الشديدة والانسلاخ عن العالم الخارجي.

*

كان الفصام فيما مضى يسمّى جنوناً، ولايزال... وفي بعض المجتمعات لا نزال نسمع عن أشخاص مسكونين بالجنّ أو منازل مسكونة. وثقافة الجنّ والأرواح هي مظهر من مظاهر هذا الاضطراب العقلي الحادّ. وكثيراً ما نسمع عن أشخاص يقولون إنهم يتواصلون مع الله، أو إنه قد أوكلهم بمهمة، أو أشخاص يدعون النبوة أو الاصطفاء

وما إلى هنالك من ضروب تختلف أسماؤها غير أن جوهرها واحد... اغتراب الوعي.

***

ثالثاً: كيف نتخطاه

تختلف حدّة الفصام الذهني بتأثرها بشكل أساسي بالعمر الذي بدأ فيه اغتراب الوعي. فتجد أن الأشخاص الذين لديهم تماس أطول مع الواقع ولزمن أطول، يكون فصامهم أقلّ حدّة، وكثيراً ما يتأرجح الوعي لديهم بين الواقع والخيال، وبالتالي فإن علاجهم لا ريب أسهل من الأشخاص الذين أصيبوا بالفصام الذهني في عمر صغير.

ثم إن ثقل الأفكار على الخيال الفكري شديدة التأثير في حدّة الفصام وصعوبة تخطيه بحكم تأثيرها الكبير على اغتراب الوعي...

أما الصعوبة الكبرى التي تواجه عملية تخطي الفصام العقلي فهي تعاون العقل المفصوم. فالإنسان ذو الوعي المغترب يعيش وكأنه في عالم آخر مقتنع بفصوله وتفاصيله تماماً، وبالتالي فإن تعاونه وبالنتيجة تجاوبه مع مساعي تخطيه للفصام لأمر معقّد وليس بالأمر السهل بتاتاً...

والعلاج إذن يبدأ بالغوص في عالم العقل المفصوم والصعود بوعيه، ضمن عالمه، إلى الحدّ الفاصل ومن ثم تخطيه صعوداً حتى يتم تصويب الأمور وإعادة دورة العقل إلى صوابها. وذلك مع الأخذ في الاعتبار أن التلقين يجب أن يكون من خلال الفكر لا الوعي لواقع أن دورة العقل مضطربة ومقلوبة...

*

إن مسيرة الارتقاء بالوعي تختلف بين عقل وآخر تبعاً لظروفه وتمايزه وخاصياته وتجاربه، غير أن ما سبق يشكل ركيزة للمسيرة التي تحتاج إلى تجارب ووقت واستيعاب، مع الأخذ في الاعتبار والانطلاق من واقع أن الفكر يسبق الوعي لدى العقل المفصوم، وبالتالي فإن هذه الدورة المضطربة للعقل يجب أن تؤخذ في الاعتبار في أية عملية علاجية...

*

قد يرى الإنسان ذو الوعي المغترب شوكة في يدك، وإذا كان فصامه يرتكز على الارتياب، فإن فكره يرسل ارتيابه إلى الوعي فيرى الشوكة في يدك آلة حادة قد تطعنه بها، فيتولّد شعور بالخوف والهلع وهكذا. وبالتالي، فإن مسيرة تخطي الفصام ستبدأ حتماً من هذا الفهم لعلاقة العقل المفصوم بالواقع، وعلاقة الوعي بالفكر. فهذا مثال على أن العقل المفصوم يتغذى وعيه من الفكر وليس العكس.

الفصام عالم آخر بأبعاد أخرى، وعلينا بالدخول فيه وفهمه حتى نتمكن من المساعدة على تخطيه...

*

أخيراً، من المهم أن نعرف أن الوعي قد يغرق نتيجة صدمة معيّنة تولّد تراكماً فكرياً وشعورياً قوياً يجتذب الوعي نزولاً بالترافق مع الذنب والموت. من البديهي إذن أن تخطي الفصام في هذه الحالة

أسـهل بكثيـر مـن عمليـة تراكميـة عمرهـا سـنين طـوال أنتجـت تراكمـاً فكريـاً وشـعورياً لـه مـن القـوة والثقل ما يصعّـب عملية النهـوض بالوعي مـن جديد. ثم إن الصعـود بالوعـي يجـب أن يمـر بمراحـل مـن القلـق أو الكآبـة نتيجـة الاقتراب مـن الذنـب والمـوت أو وقوعهمـا ضمـن دائرة الشـعور، وفـي ذلك إشـارة إيجابية تبشـر بتحسـن فـي حالـة العقـل المفصـوم واقترابـه مـن الحـدّ الفاصـل مـا بيـن الواقـع والخيال...

******

IV ـ الفكر الروحاني

1. مقدمة
2. الفكر الروحاني والعقل
3. الفكر الروحاني والمجتمع
4. عالم بلا فكر روحاني؟

مقدمة

نشأت العبادة منذ القدم ولربّما عمرها من عمر البشرية، من عمر العقل... والروحانية ضرب من ضروب الفكر الذي يسعى إلى تفسير مظاهر الدنيا وأساس الخلق ليحتوي جهل الإنسان وشعوره بالضعف إزاء عظمة الطبيعة...

عبد الإنسان مظاهر الطبيعة واجترح الآلهة التي تجسدها، حتى إذا ما أمسى بإمكانه تفسيرها، اتجه للتوحيد بصيغة الغائب... الله... والغائب قويّ عصيّ على الشك ويقوى على الفكر بمخاوفه وأحزانه. ومع تطوّر البشرية وتقدّم العقل، أمسى الفكر الروحاني عائقاً أمام ارتقاء البشرية، ومنها ما بقي تحت ستارته عصياً على التطوّر...

*

والفكر الروحاني الذي نتحدث عنه هنا، والذي يدخل في سياق هذا المحور من بحثنا، هو ذاك المستند إلى السببيّة وفرضية الخلق. وهو بالتالي يختلف أشدّ الاختلاف عن الفلسفات التي ترتكز على فكرة وحدة الوجود كبعض «ديانات» الشرق الأقصى على سبيل المثال. فالمأخذ الأساسي على الأخيرة هي نزعتها أوّلاً للعصبوية وبشكل يجعل منها خياراً وليس عاملاً يضرم النار في مسيرة تطور المجتمع

البشري. وثانياً النزعة التنسكية السائدة التي تعزل هذه الفلسفات عن المجتمع الواقعي وتحد من تطورها ومن تأثيرها في المجتمع البشري.

أما الفكر الروحاني الذي يرتكز على فرضية الخلق السببيّة فإنه شأن آخر، وهو عصي على التطور والاندماج في سيرورة التقدم والارتقاء البشري والاجتماعي لأنه محدود بسقف فكري يقضي على كل عملية تطورية ضمن العقل الفردي والجماعي، أي ضمن الفرد والمجتمع.

*

وعند البحث في علاقة الفكر الروحاني بالعقل والمجتمع، يجب الفصل ما بين جانبين:

الفكر الروحاني كمنظومة فكريّة وسياسية تعبّر عن مصالح فئة معيّنة، فئة مسيطرة متنفّذة

الروحانية كملجأ للفرد، كممارسة يومية ذات حيّز مهم من عقل الفرد وحياته اليوميّة

******

الفكر الروحاني والعقل

إنّ الفكر الروحاني هو إجابة لمعظم هواجس الإنسان الأساسية ومخاوفه في الحياة. الخوف من الموت ومن الذنب فضلاً عن المغزى من الوجود في هذه الحياة أسئلة لا ريب تراود كل عقل في هذا العالم، وفي بعض العقول تصبح أسئلة دائمة ومتواصلة وحاضرة أبداً. إن هذه الأسئلة لا ريب سترتب شعوراً من القلق الشديد والكآبة والقنوط، وما الروحانية إلا إجابة عليها؛ تلك الإجابة الحاسمة التي تبعد شبح الخوف والحزن وفقدان معنى الحياة. هي بمثابة صك براءة وعرفان التزام للإنسان بتعاليم «خالق الوجود» وطمأنة له بأنه يقوم بواجبه.

إن الفكرة السابقة لا ريب تبعث على الانشراح والراحة والاطمئنان، فضلاً عن أن الإنسان بذلك سيكسب معنى لوجوده ودوراً في الحياة: إرضاء «الخالق» وعبادته.

*

تبرز نقطة أساسية في خضمّ بحثنا في علاقة الفكر الروحاني والعقل، إذ يميل العديد من الروحانيين وغير الروحانيين على السواء إلى اعتبار اللجوء إلى الروحانية نوعاً من الالتزام بعقيدة. وهنا تبرز عدة نقاط تدحض هذا الموضوع تماماً. فالروحاني يعتبر أنه يملك

الحقيقـة المطلقـة وهـو أمـر محسـوم تمامـاً بالنسـبة إليـه سـواء أمـام الغيـر أو أمـام ذاتـه حتّـى، وهـو مقتنـع بذلـك تمامـاً. وعلـى الرغـم مـن أننـا نجـد هـذا الموضـوع أيضـاً لـدى العقائدييـن، غيـر أنّـه دائمـاً مـا يكـون علـى مسـتوى مختلـف. فالعقائـدي دائـم الخـوف مـن أن تكـون عقيدتـه خاطئـة، فيسـعى دائمـاً إلـى إثباتهـا إمّـا عبـر البحـث أو القـراءة وإمّـا عبـر النقاشـات التـي كثيـراً مـا تبلـغ مسـتوى حـاداً جـدّاً. بينمـا العقـل الروحانـي يخـاف مـن التشـكيك أكثـر مـن أي شـيء آخـر، وهـو علـى ثقـة وإيمـان تـام بـأن التزامـه الروحانـي هـو الصـواب.

ثم إنّه في العقيدة لا توجد مستويات من الالتزام العقائدي، فمثلاً من المستحيل أن تجد شخصاً ماركسياً قليلاً أو ماركسياً جدّاً. قد تجد من يختلف مع ماركس بأشياء ويختلف بأخرى مثلاً، لكنّك لا تجد درجات من الماركسية. بالمقابل، فإنّك تجد في الروحانية درجات، وفي الالتزام الروحاني مستويات خاضعة دائماً لعوامل ذاتية واجتماعية مختلفة. حتّى لدى عقل واحد، تجد منسوب الالتزام يختلف تبعاً لظروف الحياة والضغوط النفسيّة والحياتيّة...

وأخيراً، إن العقيدة لا تفرض طقوساً يمارسها العقائدي حتى يشعر بالرّاحة، بينما تجد الالتزام الروحاني يستلزم طقوساً حتى يشعر العقل الروحاني بالارتياح، طقوساً كالصلاة أو ذكر اسم الله أو أية طقوس أخرى...

*

إنّ المشكلة الأساسية للروحانية مع العقل هي في كونها نوعاً من خداع للعقل لتخليصه من أزماته عبر إبعاد الذنب والموت عن دائرة الشعور، وذلك من خلال الإفتاء الصرف والتسليم للخالق والإيمان بالحساب والآخرة. فاللجوء للروحانية كثيراً ما تظهر كإجابة على المعاناة، كترجمة خلاصية للكآبة والخوف والقلق. وكثيراً ما يكون الانغماس في الروحانية نتيجة لكآبة وإحباط شديدين أو قلق بالغ. وعند البحث في علاقة الروحانية بالعقل، فإنه من الخطأ مقاربة الموضوع من زاوية واحدة وبشكل ميكانيكي وفق منهجية خطية. فثمة علاقة جدلية وتفاعل وترابط دائمان ما بين الروحانية من جهة وأزمات العقل من جهة أخرى. فترى هذا التلازم عبارة عن دوامة تنطوي على تعاسة، فروحانية، فمزيد من التعاسة، فمزيد من الروحانية وهكذا دواليك؛ فالاثنان يؤثران في بعضهما البعض بشكل مستمرّ وبديمومة لا هوادة فيها... ومع مزيد من التعمّق بعلاقة الروحانية بالعقل نجد أنّ العملية تصبح بمثابة استبدال هواجس أساسية عميقة لدى الإنسان لا قدرة له على الإلمام بها والسيطرة عليها، بمنظومة فكرية وطقوس قابلة للممارسة يبعث تطبيقها على الارتياح. وبذلك، فإن العملية تصبح استبدال المخاوف الأصلية بمخاوف جديدة تتعلّق بتطبيق الأفكار والطقوس، فيتحوّل وجوب تطبيقها هاجساً إضافياً يعرقل سيرورة العقل ويتحوّل ضغطاً متعلقاً بجواب الحياة اليومية كافة.

ثم إن هذه المنظومة الفكرية سترتب غرقاً إضافياً للوعي أكثر مما

كان عليه قبل الانغماس في الروحانية. والهاجس الذي كان يرتب قلقاً معيناً نتيجة تموضعه على دائرة الفكر ومن مركزي الذنب والموت، أمسى يشتعل بمجرّد الاقتراب منه قبل بلوغ هذا الهاجس. بمعنى أن مركزي الذنب والموت أصبحا أقرب إلى الأفكار والطقوس السابقة للهواجس الأصلية قبل الارتفاع إلى هذه الهواجس على دائرة الفكر.

ثم إن الروحانية قد تؤدّي إلى جنوح الوعي إلى اليسار ليسهم بالتالي كثيراً بتكوين شخصيات عملية أو عملية متطرّفة قد تبلغ حدّ الإرهاب والقتل... وإذا كانت فئة المبدعين تتسيّد العقول العاطفية والمتوازنة، فلا عجب إذن في أن المجتمعات الروحانية قلّما تحوي مبدعين وفنانين، وغالباً ما ينمّط الإبداع في تلك المجتمعات ويتنكّه بالفكر الروحاني السائد ويقتصر على إطاره فحسب. وحتى وإن وجدت مبدعين في المجتمعات الروحانية، فإنك ستجدهم متحرّرين ثائرين على المجتمع والقيود، فالفكر الروحاني سقف للإبداع قاتل للحرّية.

*

لا حدود أبداً لتطوّر العقل، وما عملية تطور العقل إلا مسيرة مفعمة بالتجارب والأخطاء، بالفرح والكآبة، بالارتياح والقلق. إن هذه التجارب هي التي تهندم العقل وتسويه وترسمه على هذه الشاكلة أو تلك. وفي هذا السياق، فإن اللجوء إلى الرّوحانية سيصبح بمثابة اعتداء على هذه السيرورة واعتراض لها. فتصبح الحياة اليومية للإنسان

وتساؤلاته وأفراحه وأتراحه ومخاوفه عرضة لأجوبة معدة سلفاً لمظاهر الحياة كافة. فالإنسان الروحاني لا يختبر الحياة ولن يختبرها أبداً، بل يعيش أسيراً لمستقبل مفترض في يوم الحساب.

وتطوّر الانسان لا يقتصر على تطوّر عقله، بل يشتمل أيضاً على تطوّر بنيانه وجسده ومظهره، سيرورة تنزع نحو الكمال دوماً. وعلى سبيل المثال، فمن البديهي إذن أنّ اللباس الجريء والمكشوف يستلزم مقاييس جمالية مرتفعة، مقاييس ستستمرّ بالارتقاء والتطوّر تبعاً لمتطلّبات الواقع والتي بدورها ستنعكس على الوعي البشري الجمالي والمعايير الجمالية في أذهاننا. هذه المعايير التي بدورها ستخلق متطلبات جديدة ومقاييس أكثر ارتفاعاً ستؤثر بدورها في تطوّر الجمال الجسماني في جدلية سيرورة أزلية تنزع أبداً نحو الكمال ولا تصله. وبطبيعة الحال، فإنّ الاحتشام الزائد الذي يفرضه الفكر الروحاني سيرتّب العكس تماماً. وكما يعترض الفكر الروحاني تطوّر العقل الذي لا حدود له، يعترض التطور الجمالي الجسدي للإنسان.

إن تداخل الالتزام الروحاني مع حياة الإنسان وفي أحيان كثيرة بشكل يمنعه من عيش حياة طبيعية تماماً، وأثره الكبير على تموضع الوعي، كل هذا يجعل منه حالة تستحق التوقف عندها والبحث فيها مطولاً...

******

الفكر الروحاني والمجتمع

لطالما كان السّعي وراء الحقيقة دافعاً أساسياً في عملية تطوّر المجتمعات. هذا العامل الذي يغيب تماماً عن المجتمعات التي يسيطر عليها الفكر الروحاني. مجتمعات تعتبر أنّها واصلة للحقيقة، قابضة عليها، مدركة لها ولجميع أبعاد الوجود وكلّ ذلك بالاستناد إلى النصّ الفكري الروحاني. إنّ هذه المجتمعات لا ريب ستفقد القدرة على التطوّر إلى أن تسقط المنظومة الفكرية السائدة ليستأنف السعي للحقيقة دفعه لعجلة التاريخ...

*

إن علاقة ومدى ارتباط الفكر الروحاني بالمجتمع تتفاوت تبعاً للتطور التاريخي للمجتمعات المختلفة في هذا العالم. فقد نجد مجتمعات ذات ارتباط سطحي بالثقافة الروحانية المسيطرة بينما نجد مجتمعات أخرى ذات ارتباط عميق بالفكر الروحاني، فنجده متجذراً في معظم جوانب الحياة اليومية للناس. غير أن الواضح هو أن مدى تجذر الفكر الروحاني في مجتمع معيّن يعبّر بشكل أساسي عن بنيته

الاقتصادية-الاجتماعية، كمدى انتشار رقعة الفقر والتهميش أو كصون لمصالح فئوية وذكورية وما إلى هنالك...

*

والمظاهر الروحانية كثيراً ما تسود البيئات الفقيرة وتنمو على ضعف الناس وبؤسهم وتعاستهم. فكلما ازداد خوف الناس وارتفع منسوب بؤسهم ازداد توجههم نحو الفكر الروحاني والعبادة هرباً من مرارة الحاضر. يلجأون إلى عزاء يسهل مرارة العيش ويلطف بؤس الواقع. إن هذه الفكرة وحدها تجعل الفكر الروحاني نفسه محاطاً بعلامات استفهام كبيرة.

*

ولطالما كان الفكر الروحاني وسيلة للفئات المسيطرة حتى تؤبد سيطرتها على مقدرات المجتمع، والفكر الروحاني يستند إلى أساس سلطوي يسعى إلى تعزيز العصبوية لدى الشعوب. وما مسألة التوبة والغفران إلا الأداة التي يستخدمها الإكليروس لتعزيز نفوذهم وسيطرتهم. وبالتالي فإن الأساس يصبح الامتداد العصبوي السلطوي على حساب ما تدعيه الفلسفات الروحانية من إصلاح للمجتمع. ويصبح الإكليروس سلاطين زمانهم، يعيشون عالة على المجتمع، ويستمدون حياتهم واستمرارهم وقوّتهم من تخويف الناس. والعقل إذ يميل إلى تصديق ما يتكرّر أمامه وإلى تصديق أفكاره وما ينطق به، يفسح المجال أمام غلاة الفكر الروحاني من التأثير في المجتمع

بشكل كبير. ينطلقون من مخاوفهم الشخصية ومن هواجسهم وعقدهم ليعمّموا ما يبعدهم عنها على المجتمع وبشكل فيه الكثير من المبالغة والمغالاة...

*

ودائماً ما كان الفكر الروحاني أداة ذكورية لتأبيد سلطان الذكور على المجتمع البشري. فالمرأة التي لطالما كانت رمزاً للجمال والخصب؛ جعلها الفكر الروحاني رمزاً للعار والشهوات يجب قمعها وإسكاتها... والمرأة التي تحفظ قلباً ينبض في رحمها، تلد وتمنح الحياة؛ جعلها الفكر الروحاني فرعاً من ضلع آدم... والمرأة التي هي الأم والحبيبة ومصدر السعادة والعطف والحب في الحياة؛ جعلها الفكر الروحاني كائناً شريراً مسؤولاً عن طرد الإنسان من الجنة ولاتزال حتى اليوم تدفع ثمن الخطيئة الأولى التي اخترعها الفكر الروحاني أصلاً...

مررت بدراسة مؤخّراً، دراسة تفيد بأن معدّل الذكاء عند المرأة أصبح أعلى من ذاك الذي عند الرجل بعد أن كان الرّجال متقدّمين بأشواط في السّابق. لقد كان الرّجل منشغلاً بالحفاظ على سلطته الذكورية، بينما طوّرت المرأة قدراتها سواء عبر نضالها لإثبات كفاءتها مقارنة بالرّجل، أو عبر إسهامات الذكورية نفسها التي رتّبت أعباء كبيرة على المرأة فأنتجت منها كائناً كفوءاً ذا قدرة استثنائية على تعدّد المهام والقدرات.

*

والفكر الروحاني كما أسلفنا يعترض سيرورة تطور وارتقاء العقل البشري الفردي والجماعي. إنه ليختصر الطريق التي سيسلكها العقل إنما نحو استنتاجات وأجوبة معدة سلفاً والتي لا تستند إلى تجربة حياتية واجتماعية. إن هذا سيرتب حتماً إقلالاً من التفكير والاستنتاج المنطقي. وهذا دائماً ما يطبع الشعوب والأمم ليتحول حالة سائدة ومنهجية جماعية في التفكير وفي استشفاف جميع مظاهر الحياة وتحدياتها؛ حالة من التخلّف والقبول المطلق بالواقع وغياب الإرادة الفردية والجماعية للتقدّم.

والمجتمع الذي يحكمه الفكر الروحاني يخلق قلقاً دائماً حول الممنوع والمسموح، المستحب والمنكر، الخطأ والصواب، والنتيجة ضغط نفسي إضافي يزيد فوق شؤون الحياة وشجونها همّاً إضافياً. إن هذا الضغط لا شكّ يعرقل تطور المجتمع ويسمح بالتراجع والتخلف والتقهقر الاجتماعي ويسهم بإشاعة الفوضى والإهمال رغم أنه يدعو إلى عكس ذلك. إن مجتمع يقضي الكثير من وقته ويبذل الكثير من فكره على الخطأ والصواب مجتمع عصي على التقدّم والتطوّر والارتقاء. فالخطأ والصواب مفهومان نسبيان وذاتيان تماماً. هما نتاج سيرورة اجتماعية مليئة بالتجارب والاستنتاجات الواقعية، ولا يمكن أن تكون خاضعة لقوانين عصيّة على التغيير. إن إمكانية التنبؤ بما سيكون عليه العقل والمجتمع البشري وحتى ملامح الناس وأشكالهم بعد مئات أو حتى آلاف السنين من اليوم مسألة مستحيلة. إن وضع العقل الفردي

والجماعي هو دائماً نتاج حركة التاريخ، وبالتالي فإن اعتراضها غاية في التخلف. وكما أنه لا يمكن اليوم وضع أنظمة وقوانين تنطبق على المستقبل إذ إن العقل سيكون حتماً قد تخطى فصولها وارتقى إلى ما عداها، فإن قوانين الماضي السحيق لا يمكن أن تنطبق على اليوم.

*

إن جدلية الحياة والموت هي من المرتكزات الأساسية لمسيرة تطور العقل البشري الجماعي وارتقائه. إن هذه الجدلية يُفترض أن تنتج دفعاً عظيماً لمجمل العمليات الإنتاجية الفكرية والإنجازات الاجتماعية والفردية. وبالتالي فإن الفكر الروحاني، باعتراضه سياق تطور هذه الجدلية في عقل الإنسان وإجاباته الحاسمة إزاءها، يعترض بذلك جانباً أساسياً من جوانب تطور العقل الجماعي في مجتمع ما. وبدلاً عن ذلك الجدل الفكري الأفقي، يظهر تناقض عمودي قوامه التخويف من الموت والآخرة، تناقض بين السلطة الروحانية وبقية الناس... تناقض على مستوى العقل.

وفي الفكر الروحاني المعرفة ليست ملك الناس، بل هي حكر على «العارفين» الذين يحق لهم الإفتاء بما يجوز وما لا يجوز. هذا يعزز ذلك الانقسام العمودي على مستوى العقل فضلاً عن أنه يقلل من دور التجربة في سيرورة تطور العقل الفردي والجماعي كما أشرنا سابقاً.

ثمة مسألة أساسية إضافية متعلقة بأثر الفكر الروحاني في

المجتمع. وهي تندرج أيضاً ضمن سياق تحوّل بعض السمات الأساسية في طبيعة علاقة العقل بالفكر الروحاني إلى نمط في التفكير ومقاربة الأمور. نمط يطبع حياة الفرد والمجتمع برمته، ويسود جوانب الحياة كافة. فالفكر يعمل كما ندربه أن يعمل؛ وإذ يشيع الفكر الروحاني مبدأ التسليم «للخالق» وللنص الروحاني، فإن التسليم سيصبح سمة عامة والنمط السائد في التفكير ومقاربة الأمور لدى الفرد والمجتمع. ثمة حالة من الخمول الفكري ما فتئت تخلق في جميع المجتمعات الروحانية. وإذا كان ثمة لا نهائية في آفاق العقل ومسيرة تطوره، فإن الفكر الروحاني سيكون بما لا يدعو للشك سقفاً للعقل ولسيرورة ارتقائه التي يقبع الشكّ كمكوّن أساسي من مكوناتها. وعلى الرغم من أن العقل الذي يتسيّده الفكر الروحاني لن يعجز عن استخدام المنجزات العلمية والتكنولوجية على سبيل المثال؛ فالعقل الروحاني معتاد على التطبيق والعمل ضمن إطار محدّد؛ لكنه حتماً سيجد صعوبات جمّة في الاختراع والاجتراح الذي يعوزه الشكّ ويحتاج عقولاً لا حدود لآفاقها. وذلك قد ينطبق أيضاً على مجال الأعمال الاقتصادية، فتجد الكثير من المجتمعات التي يتسيّدها الفكر الروحاني مجتمعات متخلفة متقهقرة في هذه المجالات كذلك الأمر. وتجد غياب الإبداع والنزعة إلى التميّز واضح تماماً، فتسقط الأعمال الناجحة التي تدرّ أرباحاً على أصحابها لأن غياب الإبداع وانغلاق الآفاق سيجعل الجميع يتجهون نحو الأعمال التي يرونها مربحة. إن

المنطلق الأساسي لكل هذا هو أن العقل، الفردي والجماعي، المعتاد والمتدرب على العمل بآفاق لا حدود لها فإن سعة الآفاق ستنسحبُ على جميع مجالات عمله وتطوره. والعكس صحيح تماماً، فالعقل المدموغ بالتسليم والمحدود بالنصوص والقواعد، فإنّ محدودية آفاقه ستنسحب على سائر مجالات عمله حتى تلك التي تبدو بعيدة إلى حدّ شعورنا بأنها قد لا تنطبق، أو أن لا ترابط بينها وبين محدودية العقل أو سعة آفاقه. إنها منهجية التفكير وتلقّف ومقاربة جوانب التجربة الحياتية كافة. وضمن السياق نفسه يمكن ذكر العديد والعديد من المسائل المتعلقة بحياة الفرد والمجتمع. كالقدريّة مثلاً، وأثرها على المصلحة الفردية والمجتمعية وعلى جوانب مرتبطة بكيفية حياة المرء واعتنائه بصحته ومظهره. هذا فضلاً عن حالة الزهد بالحياة وإهمال الكثير من جوانبها المشرقة مما ينعكس سلباً على أبسط الظروف الحياتية من نظام وترتيب ونظافة وهندام...

وثمة مسألة أخرى تتعلق بالنصوص التي يستند إليها الفكر الروحاني والاتجاهات الفكرية المختلفة. فنجد أن المدارس أو المرجعيات الروحانية غالباً ما تناقض بعضها البعض، وهي بالإجمال تتراوح من الاتجاهات المتطرّفة إلى الاتجاهات المعتدلة بغض النظر عن اختلاف المدارس والمرجعيات الفكرية والأساس الفلسفي الذي تنطلق منه. لكن السّمة المشتركة بين جميع هذه الاتجاهات هي بادّعاء كل منها أنه الخيار الصحيح، وأن هذا هو النهج الحقيقي للفكر

الروحاني هذا أو ذاك، فنجد أن المتطرفين يقولون إن «المعتدلين» لا يمثلون ولا يطبقون النص الروحاني، كما وأن «المعتدلين» يقولون الأمر نفسه عن المتطرّفين. إن هذا النقاش كثيراً ما يتخذ منحى شديد الحدّة يصل حدّ التكفير والاتهام بالخروج على النص الروحاني وعن جوهر الفلسفة الروحانية التي ينتمون إليها، والأمر سيان بالنسبة إلى الاتجاهات كافة.

إن الاستنتاجات التي يمكن الإشارة إليها هنا هي أوّلاً ألا فرق بين الاعتدال والتطرّف في الفكر الروحاني، إنما الذي يختلف هو منسوب الوضوح. فالمتطرفون واضحون يعبرون عما يريدون فعله بالضبط، بينما المعتدلون غالباً ما يستخدمون وسائل غير مباشرة، ويدعون الاعتدال والانفتاح، بينما الواقع دائماً ما يختلف. وحتى أولئك الذين ينتمون إلى اتجاهات فكرية دينية معتدلة ممن «يعتقدون» أن النص الروحاني قابل للتطبيق بدون الحاجة إلى فرضه فرضاً سيجدون استحالة في ذلك على أرض الواقع، وسيعمدون إلى اعتماد إجراءات مماثلة لتلك التي يتبناها المتطرفون. فمشكلة الفكر الروحاني هي في جوهره ومنطلقاته كافة، كما في كونه يعبر عن حالة سلطوية تنطلق من مخاوف متجذرة في العقل البشري. إن إمكانية تأويل النصوص الروحانية تثبت الأساس الذاتي واللاموضوعي الذي تنطلق منه جميع الفلسفات الروحانية. بمعنى أنها خاضعة تماماً للبنية العقلية الذاتية للأشخاص الذين يحملون لواءها. فتتغير وتعتدل وتتطرف بناء على

النزعات الفكرية الذاتية والشخصية المختلفة. وبالتالي فإن أي نجاح نسبي لتجربة معينة سيرجع إلى كفاءة أو عدل أو تسامح أو «تنوّر» الأشخاص الذين قادوا التجربة وليس إلى المرتكزات التي استندت إليها والمنطلقات التي بدأت منها.

أخيراً، فإن فكرة وجود نص ديني شأنه شأن أي نص سلطوي قد يتيح أمام مجموعة من الأشخاص مهما بلغ جهلهم وتخلفهم أن يمتلكوا سلاحاً قوياً لا حدود لسلطته ولا سلطان عليه، فيحكمون باسمه ويخوّنون ويكفّرون، ويعيثون بالمجتمعات تخلّفاً وجهلاً وتقهقراً...

******

عالم بلا فكر روحاني؟

عند البحث في علاقة الفكر الروحاني وأثره في المجتمع يصبح من الخطأ فهم الموضوع ومقاربته من زاوية واحدة وبشكل ميكانيكي وفق منهجية خطية. فثمة تفاعل دائم وعلاقة جدلية بين الفكر الروحاني من حيث هو فلسفة سائدة في مجتمع ما وبين البنية والوضع الاقتصادي الاجتماعي للمجتمع نفسه. فالنحو باتجاه الفكر الروحاني يتأثر تماماً بالوضع الاقتصادي الاجتماعي وبالعكس، فالوضع الاقتصادي الاجتماعي يتأثر بالفكر الروحاني. إن هذا التفاعل هو الذي يحكم حركة تطوّر المجتمع الخاضع للفكر الروحاني...

إن اشتداد الفقر والتخلف وانعدام الآفاق سيخلف مزيداً من اللجوء إلى الفكر الروحاني الذي بدوره سيخلف مزيداً من التخلف والفقر وانعدام الآفاق والتسليم بالواقع، وهكذا دواليك. وبالعكس، فإن الرفاهية الاقتصادية ستجعل العقل الجماعي لمجتمع معين يبحث عن مكتسبات جديدة، عن الحرّيات والديمقراطية والتحرّر والعكس صحيح؛ والنضال من هنا يبدأ...

*

إن النضال من أجل تحرير البشرية من الفكر الروحاني يجب ألا يتخذ شكلاً أفقياً أبداً، شكلاً يسمح بتجذير العصبويّة في عقول الروحانيين، بل يجب أن يكون النضال مركزاً على مصالح هؤلاء الناس ومن أجلهم بشكل يجعلهم يلحظون البنية العمودية والجوهرية لنضالهم اليومي من أجل حقوقهم، من أجل العدالة الاجتماعية ضدّ جميع أشكال الاستغلال؛ استغلال الرأسماليين والإكليروس وسلطتهم على السواء. فأيّ نقاش مع الروحانيين سيجعلهم يلتفون حول خياراتهم الفكرية بشكل عصبويّ مما سيحرفهم عن النضال من أجل حقوقهم وقضاياهم الأساسية لمصلحة الإكليروس والأغنياء المتحالفين معهم.

إن حرية الفكر والتعبير قيمة إنسانية كبرى وعامل لا غنى عنه في سيرورة التطور العقلي الجماعي للبشر. وبالتالي فإن مطلق نقاش فكري سيسهم دوماً في توسيع الآفاق الذهنية وفي تطوير المعرفة والمنطق في المجتمع. ومن هذا المنطلق، فإنّ الفكر الروحاني كخيار فكري ضمن نقاش فكري على مستوى الفكر الجماعي مسألة مهمة وضرورية. فالنقاش الفكريّ الأفقي بين الروحانيين واللاروحانيين موضوع لا مفر منه في عملية التطور المنطقي والمعرفي للعقل الجماعي. لكن عندما يُفرض الفكر الروحاني على المجتمع كسلطة فكرية وقانونية، فإن النضال ضدّ هذه السلطة، شأنه شأن النضال ضدّ أية سلطة، سيتخذ

شكلاً عمودياً ضدّ فئة تستغل الفكر الروحاني من أجل ترسيخ سلطتها ومصالح طبقية أو فئوية أو ذكورية...

*

ينشط الحديث في هذه الأيام حول الثورات العربية ووصول القوى الروحانية إلى السلطة. وفي وقت يكتسب الخيار الروحاني العديد من المؤيدين في الشارع العربي، تبرز بطبيعة الحال فئات معارضة متخوفة متوجّسة. في الواقع، تبرز لدى سائر الممانعين لوصول القوى الروحانية إلى السلطة حالة من الارتباك والتشوّش إنما تعكس نظرة خاطئة لحركة التاريخ والتطوّر التاريخي للمجتمعات.

فالقوى الروحانية إنما تنمو على ضعف الناس وشعورهم بالذل، تقتات من مجتمع يعمّه الفقر والقهر والكآبة، فلا عجب أن الحركات الروحانية تقوى كلما اشتد قمع الأنظمة، ولا عجب من أنها تنتعش مع تعاسة الناس.

إن وصول القوى الروحانية إلى الحكم في الدول التي انتهت الثورات فيها مسألة حتمية لا مفرّ منها، وهذا جزء من المسار الثوري، من حركة التاريخ... هي العصور الظلامية التي سيتعمّد بها الشرق، القرون الوسطى خاصتنا، وهي مرحلة من مسيرة التطور التاريخي لمجتمعاتنا، ومن يقف في وجه حركة التاريخ يفنَ مقهوراً...

*

لطالما ركبت القوى الروحانية قضايا الناس ولطالما كانت

«حليفة» الفقراء والمقهورين، غير أنها في النهاية قوى توّاقة إلى السلطة، هدفها الوصول إلى الحكم. وهو المكان الوحيد الذي سيفصلها عن الشعب، وسيجعلها في موقع النقيض الطبيعي للناس بواقع وجودها في السلطة. وبالتالي، فإنها الفرصة الوحيدة التي سيسقط جراءها الخيار الروحاني إلى الأبد. إن الشعوب في الشرق يجب أن تتحمل المسؤولية عن خياراتها، أن تصنع تاريخها، أن تتذوق مرارة الحكم الروحاني، أن تعيش تعاسته، حتى تبتعد عنه إلى الأبد بواقع كونه خياراً نقيضاً للحياة والإبداع والفنون والفرح...

إن نظام حكم يستند إلى الأحكام الروحانية سيصطدم بحتمية الفشل مهما طال الزمن، ووجودها في السلطة سيفضحها تماماً. في الواقع، إن منظومة الطقوس وسائر المحرّمات والضوابط الاجتماعية التي يفرضها النظام الروحاني إنما تخضع لها الفئات الشعبية وحدها بينما تحيا الفئات المسيطرة التي يخدم النظام الروحاني مصالحها حياة طبيعية تماماً خالية من القيود. تستخدم الروحانيات وسيلة لتخدير المقهورين حتى لا ينتفضوا ضدّ القهر والظلم والاستغلال.

والقوى الروحانية التي تعتاش من ضعف الناس وفقرهم ستجد نفسها أمام معضلة حكم عاجلاً أم آجلاً... فإذا لجأت إلى تحقيق الرفاهية الاقتصادية، فإن الناس سيتجهون إلى البحث عن مكاسب اجتماعية جديدة كالحرية والديمقراطية والتحرّر، مبتعدين عن الخيار الروحاني فيصطدمون بالنظام القائم وينتفضون عليه.

أما إذا استمرّ التردّي الاقتصادي، فإن الشعوب ستنتفض مجدّداً

ضد نظام لم يلتزم قضاياها وهمومها. نعم، عندها سوف تلجأ القوى الروحانية الحاكمة إلى شدّ عصب شعوبها بقضايا ومعارك ترتكز على الاستهداف الثقافي، وستستخدم شتى الوسائل الاجتماعية والسياسية والروحانية والذكورية، لكنها في النهاية ستسقط، ولن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً مع سرعة التبادل الثقافي وانتقال المعلومات.

******

V ـ التناقضات والعقل

1. مقدمة
2. التناقض على مستوى العقل
3. التناقض على مستوى الفكر
4. الحجج الذاتية والحجج الموضوعية

مقدمة

لقد بحثنا في فصل سابق في أشكال التناقضات التي تحكم الوجود وعملية تطوّره، والتي حدّدناها بشكلين: تناقضات أفقية وتناقضات عمودية. وكما أشرنا، فإن التناقضات الأفقية هي تناقضات غير بنيوية بين مكونات راسخة في الوجود، هي تلك العلاقة الجدلية بين مكونات مكتملة ترتكز عليها السيرورة التطورية لكل منها دونما تغيّر بنيوي في التركيبة. أما التناقضات العمودية فهي تناقضات بنيوية بين مكونات غير راسخة، تناقضات ترتكز على القطبية المجرّدة، لتنتج عنها أشكال جديدة منهية الشكل السابق الذي كانت عليه أطراف التناقض الأساسية. وانطلاقاً من هذا، فإن عملية الارتقاء والتطوّر لا يمكن أن تتقدّم إذا ما وجد تناقض عمودي بنيوي في أحد مكونات أو أطراف التناقض الأفقي.

فلنحاول الاستعانة بمثال يوضح الفكرة موضوع الشرح، ولنأخذ عملية تبخير الماء وتحوله من حالة السيولة إلى حالة البخار. إن هذه العملية لا تؤثر في تركيبة الماء بنيويّاً، فالماء سيحتفظ بتركيبته الكيميائية غير أن ما سيتغيّر هو حالته بعد التفاعل مع الحرارة المرتفعة؛ وبطريقة معكوسة فإن الماء يتحوّل من بخار إلى سائل دونما تغيير بنيوي في

تركيبتـه. إن هـذه العمليـة هـي عبـارة مثـال بإمكاننـا أن نلحظـه كونـه يتـم فـي زمـن قصيـر نسـبياً، وهـي ترتكـز علـى تفاعـلات أفقيـة بيـن مكونـات راسـخة ومكتملـة. لكـن إذا كان أحـد مكونـات هـذا التفاعـل يشـتمل علـى تناقـض عمـودي بيـن أجزائـه، كأن تكـون مكونـات المـاء مجـزّأةً (لـو كان ذلـك ممكنـاً) وفـي تناقـض عمـودي فيمـا بينهـا، فـإن عمليـة التبخيـر لا يمكـن أن تحصـل إلا بعـد إنهـاء التناقـض العمـودي بحيـث يكـون المـاء فـي وضعـه الراسـخ المكتمل. وانطلاقـاً مـن هـذا، وإذا كان تحـوّل المـاء مـن السـيولة إلـى حالـة البخـار هـو مثـال بسـيط علـى التناقض الأفقي، فـإن التحليـل الكهربائـي للمـاء (Electrolysis) مثـلاً، والـذي سـينتج مـواد أخـرى غيـر المـاء هـو مثـال علـى التفاعـل العمـودي الـذي أنتـج شـكلاً جديـداً بتركيبـة مختلفـة تمامـاً.

إن الوجود هو في حركة دائمة وتطوّر وارتقاء مستمرّ، تطوّر يشتمل على علاقات أفقية لا سبيل لتعدادها بين جميع مكوناته. وإذا كان المثال البسيط الذي استعنّا به لتوضيح التناقضات الأفقية يمكن لحظه كونه يتمّ في زمن قصير نقدر على استيعابه، فإن عملية ارتقاء مكونات الوجود وتطوّرها بالارتكاز على التناقضات والتفاعلات الأفقية فيما بينها حدثت منذ الأزل ولاتزال تحدث وستستمرّ إلى ما لا نهاية وضمن نطاق زمني هائل لا حدود له.

وذهننـا مطبـوع بالسّـببية، معتـاد علـى نظـرة خطيـة غيـر جدليـة للوجـود، نظـرة تعجـز عـن أن تلحـظ وحدتـه. لقـد تـدرّب عقلنـا علـى هـذه

النظـرة الضئيلـة لآلاف السـنين، وعزّزتهـا الثقافـات والفلسـفات والأديـان والعـادات والأعـراف والمناهـج التدريسـية لجميـع شـعوب الأرض. غيـر أن الوجـود واحـد، كلّ متكامـل، وانطلاقـاً مـن وحدتـه هـذه فإن جميـع المكونـات الراسـخة المكتملـة فيـه هـي فـي تناقـض أفقـي دائـم، وفـي علاقـة اعتماديـة مسـتمرة تحكـم سـيرورة تطـوّر الوجـود والطبيعـة.

******

التناقض على مستوى العقل

العقل هو أحد مكونات الوجود. وهو هنا العقل الكلّي الجماعي، العقل البشري الذي تنتمي إليه جميع العقول الفردية. والعقل كما أسلفنا في تناقض أفقي مستمرّ مع الطبيعة، في علاقة جدليّة ترتكز عليها سيرورة تطوّر العقل البشري وتطوّر الطبيعة وكمالها. غير أن الواقع اليوم هو غير ذلك، إذ إن العقل البشري منقسم على ذاته فاقد لوحدته، مشوب بتناقض عمودي بنيوي، تناقض يرتكز على الاستغلال. فسيرورة ارتقاء العقل وتطوّره انطلاقاً من تناقضه الأفقي مع الطبيعة لا يمكن أن تكون في ظلّ وجود تناقض بنيوي عمودي ضمن العقل البشري نفسه، تناقض على مستوى العقل.

والنتيجة؟ دمار الطبيعة ودمار العقل وتوقفه عن التطوّر.

*

قبل ظهور الاستغلال، والذي يرتكز بطبيعة الحال على الملكية الفردية لوسائل الإنتاج، كان العقل البشري يتمحور حول التعايش مع الطبيعة وكيفية تطويع قواها وطاقاتها ومكوناتها الطبيعية لاستمرار الإنسان. وبالفعل، فقد حقّق الإنسان تطوراً بيولوجياً واجتماعياً كبيراً من خلال تعايشه مع الطبيعة وتفاعل العقل الأفقي في تناقضه مع

الطبيعة. إن هذا التناقض سمح للعقل بالارتقاء في سيرورة قطع خلالها أشواطاً وحقّق قفزات نوعية من جميع النواحي. لقد كانت كلّ الأرض للإنسان، كلّ الطبيعة، يتفاعل معها ويتعلّم ويتطوّر ويرتقي. غير أن الوضع اختلف مع بدء ظهور الاستغلال، وتحوّل تركيز العقل من التمحور حول التعايش مع الطبيعة والتطوّر معها وضمنها إلى استغلال العقل للعقل واستغلال الطبيعة لتعميق هذا التناقض العمودي ضمن العقل البشري. ووحدة العقل البشري الكلّي التي كانت في تناقض أفقي متناغم مع الطبيعة والتي جعلت العقل يتطوّر أشواطاً هائلةً ونوعيةً تمزّقت في خضم استغلال الإنسان للإنسان في تناقض عمودي بنيوي ضمن العقل نفسه. ومذّاك توقف تطوّر العقل البشري الجماعي، وعوض وحدته وسيرورة تطوّره بعلاقته الجدلية مع الطبيعة، أمسى غارقاً في تفاصيل التناقض العمودي المرتكز على استغلال العقل للعقل حتّى أمست وحدة العقل تبدو أقرب إلى الخيال. ولقد بينّا في فصل سابق حين تحدّثنا عن فئات العقل كيف أن العقول العليا تستغلّ العقول الدنيا، وكيف أن العالم اليوم تتسيده العقول العملية الحكيمة، والتناقض العمودي على مستوى العقل يحدث وفق هذه الكيفية.

*

هناك ميل اليوم لتمجيد تطوّر العالم، ويقاس هذا التطور بمقدار الإنجازات العلمية في جميع المجالات من وسائل الراحة إلى النقل إلى الصناعة إلى تكنولوجيا الاتصالات والمعلوماتية والإلكترونيات

وسـائر المجـالات العلميـة والطبيـة ومـا إلـى هنالـك. غيـر أن هـذا التطـوّر يبقـى نسـبياً ضمـن حـدود مـا تسـمح بـه علاقـات الإنتـاج القائمـة فـي عالمنـا اليـوم، وبالتالـي فـإن هـذا التطـور «الكبيـر» إنمـا يشـتمل علـى تطـورات هائلـة تصاعديـة لكنهـا ليسـت تطـورات نوعيـة علـى مسـتوى العقـل، بمعنـى أن العقل لـم يكتسـب قـدرات جديـدة نوعيـة نتـاج جدليـة علاقتـه بالطبيعـة. وهـذا التطـوّر الحاصـل لـم يتناغـم مـع الطبيعـة ويسـتغل طاقاتهـا الموجـودة أصـلاً، إنمـا جـزّأ مكوناتهـا وفككهـا ودمرهـا واسـتغلها علـى هـذا النحـو وكلّ ذلـك مـن أجـل تسـخير مكونـات الطبيعـة لتحقيـق أربـاح أكبـر وتعميـق وترسـيخ التناقـض العمـودي الـذي يتمحـور حـول الاسـتغلال كالمكـوّن الأساسـي فيـه.

وإذا أخذنا توليد الطاقة على سبيل المثال، فإن هذه العملية تشتمل على استغلال موارد الطبيعة لتوليد الطاقة وليس استخدام الطاقة التي تولدها الطبيعة نفسها وذلك لأهداف اقتصادية بحتة، أهداف تخدم التناقض العمودي القائم على الاستغلال. وفقط اليوم يتم الحديث عن استخدام ما يسمى بالطاقة البديلة النظيفة والطبيعية، وذلك لدرء خطر التلوث والدمار الذي أنتجه نمط إنتاج الطاقة القائم. وتتعدّد الأمثلة في هذا الإطار، وكلّها تسهم في تعميق التناقض على مستوى العقل، تناقض الاستغلال الذي يمنع العقل الكلّي من التطوّر لأنه مشغول بتناقضاته العمودية. كلها عمليات تشتمل على استغلال موارد الطبيعة لا استغلال طاقاتها الكامنة، وهي بالتالي عمليات تقوم

على تجزئة مكونات الوجود وتفكيكها وتدميرها بما يشمل ذلك من إنتاج تناقضات بنيوية عمودية بين العقل والطبيعة، وفي الطبيعة نفسها مما يدمرها ويدمّر الوجود ويوقف التطوّرات النوعية للعقل الجماعي والطبيعة على السواء.

*

لربما كان «النطق» هو آخر مكتسبات العقل البشري الكلّي وآخر قفزة نوعية في سيرورة ارتقائه من خلال جدليته الأفقية مع الطبيعة، ومذّاك فإن سائر التطورات كانت ضئيلة محدودة ضمن النطاق الذي يخدم الاستغلال. والواقع هو أننا لا نعلم ما سيكون عليه حال العقل بعد ردح هائل من الزمن، ولا فكرة لدينا عما قد يكتسب من قدرات خلال سيرورة ارتقائه. وعلى سبيل المثال، فلنفترض أن العقل سيكتسب القدرة على التخاطر مثلاً، كالتواصل بين العقول الفردية عبر التخاطر دون الحاجة إلى وسيلة اتصال معينة. إن هذه القدرة لا يمكن أن تكتسب من خلال الواقع الذي نعيشه اليوم حيث يعم استخدام وسائل الاتصالات المتاحة التي ستنتج كسلاً في هذا المضمار وتعيق عملية تطوّر العقل في هذا الجانب. والواقع أن تطوّر العقل إلى اكتساب القدرة على التخاطر مثلاً لم يكن ليحقّق مكاسب مادية لفئة من فئات العقل المسيطرة على مقدرات العالم والمجتمع والطبيعة.

وفـي الإطـار نفسه، فلنفترض مثلاً أن مستقبل الإنـسـان في مجال النقل يكمن في وسائل نقلل ترتكز على الطاقات الموجودة في الطبيعة

ولا حاجة لإنتاجها. وكذلك إلى قوى معينة موجودة أصلاً كالجاذبية على سبيل المثال وذلك من أجل إنتاج مضادّ لها يبطل مفعولها كبعض المركبات التي نراها في أفلام الخيال العلمي دونما الحاجة إلى إنتاج طاقة من خلال استغلال موارد الطبيعة وتجزئتها وتدميرها. أو فلنتوسع في خيالنا ولنفترض أن مستقبل الإنسان في مجال النقل هو مجال النقل الفضائي (Teleport)، أو أي شيء آخر. إن سيرورة ارتقاء العقل من أجل الوصول إلى هكذا قدرات وحلول ووسائل، يعترضها ويسقفها الواقع اليوم. الواقع الذي يسهم في تكاسل هذه السيرورة وتباطؤها وتوقفها عن أداء تفاعلها الأفقي مع الطبيعة في خضمّ غوصها في التناقض العمودي ضمن العقل ومع الطبيعة، وفي تجزئة الوجود وتدميره من أجل استغلاله أحسن استغلال لمنفعة فئات العقل المهيمنة على العالم.

إن هذه لا تعدو كونها أمثلة نحاول من خلالها توضيح الفكرة موضوع الشرح، وقد لا تنطبق هذه الأمثلة أبداً. وهي بالتالي ليست بأي شكل من الأشكال في معرض الدعوة للتخلي عن استخدام وسائل الاتصال أو النقل المتاحة مثلاً. وبأية حال، وفي حال تحليل ونقد واقع معين، فإن المطلوب دوماً هو التطوّر عن هذا الواقع وتخطّيه وليس إنهاءه وإبطاله.

وهنـاك قـدرات عظيمـة تظهـر عنـد بعـد الأشـخاص، قـدرات عقليـة اسـتثنائية. لا أنسـى مثـلاً الرسّـام التركـي الضريـر أشـرف إرماغـان، أو

روديغــر غــام، الرجــل الألمانــي الشــهير الــذي يملــك قــدرات هائلــة فــي الرياضيـات والأرقـام. إن النمـط الفكـري المسـيطر اليـوم يدمغهـا بالذاتيـة، غيـر أنّ هـذه الأمثلـة وهـذه القـدرات الاسـتثنائية التـي تظهـر عنـد بعـض الأشـخاص تشـي بـأن هـذه القـدرات موجـودة بالفعـل، ولكـن العقـل البشـري الجماعـي، العقــل الكلّــي، لــم يدركهــا بعــد بواقعــه المنقســم غيرالقــادر علــى التطــوّر الجدلـي مـع الطبيعـة، فيسـتعيض عـن هـذه القـدرات بوسـائل أخـرى تمنعـه مــن الارتقــاء.

*

إنّ العلاقات الاقتصادية الاجتماعية السائدة عمّقت من الفردانية وزادت من تعميق تقسيم العقل وتجزئته وتفتيته. لقد أمست الإنجازات الفردية فردية تماماً، تمحي أو تكاد البعد التاريخي والوحدوي للعقل البشري الذي هو عمر العقل الكلّي وسائر الثقافات والعلوم التي أنجزها عبر التاريخ. ولقد عزّزت المنظومة الفكرية والثقافية السائدة النزعة الفردية للإنسان، وأسهم الفكر الروحاني في ترسيخ هذا الأمر. ذلك الفكر الذي دائماً ما يتحدّث عن مصير «الفرد» وحسابه قبل وأثناء وبعد الحياة. إن هذه النزعة عزّزت الجنوح الأناني للعقل الفردي عن وحدة العقل البشري الكلّي، ليتضاءل شعور العقل الفردي بالانتماء للطبيعة والوجود ويتضاءل ردّ فعله إزاء التدمير الممنهج الذي يقوم به الإنسان للطبيعة خصوصاً وأنّ فكرة لانهائية العقل البشري الفردي والجماعي بعيدة تماماً عن الفكر اليوم. ففي لاوعينا الجماعي أنّ

حياتنا الإنسانية على الأرض هي عمر الوجود الجسدي المادّي وليس عمر العقل الطاقوي الأزلي.

لا سبيل إذن لاستكمال سيرورة تطوّر العقل وارتقائه إلا بإنهاء التناقض العمودي القائم، بإنهاء الاستغلال... وإننا إذ نرى أن البشرية تطوّرت أشواطاً هائلة، فلأننا نتعاطى مع العالم اليوم ومع الاستغلال كأمر واقع لا سبيل لتغييره.

******

التناقض على مستوى الفكر

إذا كان التناقض على مستوى العقل هو تناقض بنيوي يستند إلى الاستغلال فإن التناقض على مستوى الفكر هو تناقض أفقي، وهو ذاتي غير موضوعي يعبّر عنه التنوّع والجدال الفكري.

ولقد غصنا في فصل سابق في خضمّ بحثنا وتفصيلنا للعقل في كيفية عمل العقل ودور الفكر. ولقد بينّا كذلك كيف أن الفكر ذاتي غير موضوعي ولا يعبّر عن الواقع بتاتاً. والتنوّع الفكري قد يعبَّر عنه داخل العقل الفردي الواحد تتنازعه فكرتان مثلاً أو أكثر في نقاش فكري شخصي، أو بين عقلين أو بين مجموعتين أو أكثر. إن هذه كلها تناقضات فكرية تشكّل في تناقضها سيرورة ارتقاء فكري يغني العقل ويطوّر المجتمع.

*

ونقاش الآراء هو شكل من أشكال هذا التناقض الذي دائماً ما يتّسم بالذاتية وتغلب عليه الحجج والبراهين والتوقعات والتكهنات، وهو دائماً ما يفتقد إلى الموضوعية بواقع كونه نتاج الفكر الفردي أو الجماعي.

وعلى المستوى العام، فإن هذا التناقض الأفقي يولّد تنوّعاً فكرياً واجتماعياً وثقافياً، وهو قيمة إنسانية كبرى ومحرّك تطورنا وارتقائنا الفكري. لكن في ظلّ وجود تناقض عمودي على مستوى العقل، فإن هذا التنوّع الفكري يتحوّل إلى عصبوية شديدة تحمي الفئات المستفيدة من الاستغلال وتعمي على التناقض العمودي الذي تستمدّ قوتها منه، والسياسة هي المكان الذي دائماً ما يتجسّد فيه هذا الموضوع.

فالصراعات السياسية دائماً ما تخدم الفئات المسيطرة التي تستغلّ التنوع الثقافي على سبيل المثال، أو رأياً جماعياً إزاء قضية ما لتعميق وتأبيد استغلالها وللتعمية عن الاستغلال الذي تقوم به. إن هذه الفئات المسيطرة والتي تعبّر الأحزاب والعصبويات السياسية عن مصالحها، دائماً ما تستغل قضايا الشعوب وتسعرها وتشعل نار التجييش والتحريض فيها تحت أشرف وأعظم الشعارات حتى تضمن استمرار الاستغلال الذي تقوم به. والأوطان التي دائماً ما نظن أنها تحوي وتحمي شريحة اجتماعية أو ثقافية معينة، إنما تحمي مصالح فئة معينة تستبيح جميع الفئات الأخرى ضمن هذه الرقعة من الأرض. فيستحيل ذاك التنوّع، ذاك التناقض الأفقي على مستوى الفكر الجماعي عصبوية مقيتة تحمي فئات العقل المهيمنة على المجتمع والتي لا تتورّع عن رفع أعظم الشعارات وأكثرها إشراقاً وبريقاً كالوطنية والديمقراطية والتعايش وما إلى هنالك...

إن إبطال التناقض العمودي في العقل، إبطال جميع أشكال الاستغلال أمسى ضرورة قصوى من أجل أن يقوم التنوّع الفكري والثقافي بدوره كمحرّك لتطور وارتقاء العقل الجماعي، تطوّر المجتمعات البشرية...

******

الحجج الذاتية والحجج الموضوعية

تشكّل الحجج مرتكز أي جدال مهما كان مستواه أو موضوعه، غير أن الحجج ستختلف حتماً تبعاً لطبيعة الجدال وتموضعه في أذهان أطرافه. وبطبيعة الحال فإن الحجج الذاتية ستدمغ كلّ جدال على مستوى الفكر بينما سيرتكز كلّ جدال على مستوى العقل على حجج موضوعيّة.

***

أوّلاً: الحجج الذاتية

إن مجمل الجدالات التي تتناول الخيارات الفكرية والثقافية والفنية وإلى ما هنالك هي جدالات تقع في مستوى الفكر تماماً، وبالتالي فإن مجمل الحجج التي ستظهر في هذه الجدالات ستكون حججاً ذاتية. إن هذا الجدال وهذه الحجج ضرورية تماماً لعملية التطوّر الفكري للأفراد والمجتمعات، وسترتقي بالفكر عبر سيرورة عامرة بالتراكمات والتجارب والجدالات والحجج والحجج المضادّة. ولا ريب في أن السّمة الأساسية في هذه الجدالات وهذه الحجج هي قابلية استمرار جميع الخيارات بحيث أن وجود أي خيار أو حجة لا

ينفي الخيار الآخر، لا بل يستمدّ الحياة منه والعكس صحيح؛ تناقض أفقي على مستوى الفكر.

*

كثيراً ما تغلب الجدالات والحجج الذاتية على الجدال السياسي، وفي ظلّ وجود تناقض عمودي على مستوى العقل، فإن هذه الجدالات والحجج دائماً ما ترتدي طابعاً عنيفاً لا يخلو من التحريض والعصبوية الشّديدة بواقع كون هذا التناقض الأفقي يخدم ويموّه التناقض العمودي الذي يرتكز على الاستغلال. فالفئة المسيطرة المستغِلّة دائماً ما ستعمل على تسعير نار الخلاف والجدال الفكري أو الثقافي الأفقي حتّى تحوّل الثقل عن التناقض العمودي الذي سيفضح جداله وحججه استغلالها وهيمنتها.

***

ثانياً: الحجج الموضوعية

إن السمة الأساسية للحجج والجدالات الموضوعية هي بكونها لا تحتمل خيارات بشكل أن كلّ حجة تنفي الأخرى المقابلة لها. وهي بالتالي لا تحتمل حلولاً وسطى لأن الحل الوسطي هو حالة جديدة ووضع جديد سيمحو بالضرورة الحجّتين الموضوعيّتين موضوع الجدال. بالتالي إذا كان الجدال ذو الطبيعة الذاتية سيتسع ويحتمل مجمل الخيارات الفكريّة، فإن الجدال ذا الطبيعة الموضوعية الجذرية

لا يحتمل تعايش أية خيارات بواقع أنه ليس جدالاً فكرياً بل جدالاً موضوعياً يهدف إلى تغيير أو الإبقاء على واقع معيّن...

*

في الواقع، إن التمييز بين الجدالات الموضوعية والجدالات الذاتية يبدو في غاية الصعوبة خصوصاً عندما يكون موضوع الجدال موضوعاً يرتبط بالسياسة بشكل وثيق. فالسياسة هي المكان الأصعب لتظهير الحجج والجدالات الموضوعية، إذ غالباً ما تتسيّد الجدالات السياسية الحجج الذاتية المموّهة...

إن الجدالات التي تتناول مثلاً نضالات عمودية مرتبطة بحقوق الناس على سبيل المثال وما إلى هنالك هي مثال على الجدالات الموضوعية بحيث أن الحقوق إمّا أن تكون وإما لا تكون. وبالتالي فإن أي واقع جديد يرتّب مكتسبات جزئية لعموم الناس هو واقع آخر مختلف يستوجب نضالاً عمودياً مستمراً حتى الحصول على الحقوق الكاملة للشعب. إن الحجج المقابلة لهذا النضال يفترض أن تكون حججاً موضوعية تبقي على الطابع العمودي للصراع بحيث ستحاول الحفاظ على مصالح الفئات المسيطرة على الاقتصاد والمجتمع. غير أن هذه الفئات غالباً ما تلجأ إلى حرف الجدال ووضعه في قالب سياسي فكري باستخدام حجج ذاتية لتمويه الطبيعة الطبقية العمودية الموضوعية للصراع كما أسلفنا.

إن الحجج الموضوعية في الجدال لا تحتمل ولا يمكن أن ترتكز

على فرضيّات، ولا يمكن بطبيعة الحال أن ترتكز على طبيعة ذاتية للأفراد أو المجتمعات، بل دائماً ما سترتكز على مكونات موضوعية تماماً. وبالتالي فإن استخدام الحجج الذاتية في الجدال لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة ملموسة إلا بفرض أحد أطراف الجدال حججه على الطرف الآخر الأمر الذي لن ينهي هذا الجدال عملياً. بالمقابل، فإن الحجج الموضوعية غير قابلة للنقاش، وأقصى ما يمكن أن تواجَه به هو القول بأنها غير قابلة للتحقيق، الأمر الذي لا يمكن أن ينطبق على الواقع أبداً. إذ ما من عمل أو نضال عمودي غير قابل للتحقيق. إن المنتصر بشكل حاسم في مطلق جدال سياسي هو القادر على أن يلحظ ويستخدم الحجج الموضوعية الكفيلة بخلق واقع جديد ينفي كلّ ما سبقه...

******

VI ـ من أجل عالم مختلف... عالم أفضل

1. الديكتاتورية
2. العالم اليوم
3. في تجارب التغيير
4. الطريق نحو التغيير
5. المجد للمبدعين
6. من أجل عالم أفضل

الديكتاتورية

بمجرّد ذكر كلمة «دكتاتورية»، فإن أوّل ما يتبادر إلى أذهاننا هو الشّكل البدائي التقليدي للدكتاتورية، الذي يتّسم بسلطة ذات رأس واحد يسيطر على جميع السلطات. غير أن هذا هو أحد أشكال الديكتاتوريات وليس الشّكل الوحيد بطبيعة الحال.

فجميع أشكال الحكم ديكتاتوريات مهما اختلفت أنواعها وأساليبها وثقافتها والمنهجية التي تستخدمها للاستغلال وتأبيد نظام حكمها. وفي الواقع، إن أي نظام حكم يبقي ويعمّق ويعمل على تأبيد الانقسام العمودي على مستوى العقل لهو ديكتاتورية تماماً. والديمقراطية لا يمكن أن تكون إلا في عالم لا وجود لسيطرة فئات فيه على فئات تسوده العدالة الاجتماعية والتكافؤ والمساواة والسلام، وسط وحدة تامة للعقل بحيث يختفي التناقض العمودي تماماً، ويصبح التنوّع الثقافي والتناقضات الثقافية الأفقية مصدر غنى، وقيمة تحكم تطوّر العقل لا مبعثاً للعصبوية والقتل والحروب.

وبطبيعة الحال، فإن هذه الديمقراطية الحقيقية لا يمكن أن تحصل

في بقعة معينة من الأرض بمعزل عن أخرى وإلا أصبحت ديكتاتورية، ولا يمكن أن تكون إلا في نمط اقتصادي أمميّ يسود العالم بأسره...

*

والديكتاتوريات سواء أكانت مباشرة كالأنظمة الشمولية في الدول العربية، والتي هي في طريقها إلى الزوال، ودول ما كان يسمّى بالمعسكر الاشتراكي كالاتّحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية، أو ديكتاتوريات دينية، أو ديكتاتوريات غير مباشرة كالولايات المتّحدة ودول العالم الغربي، هي في جميع الأحوال أنظمة تعبّر عن مصالح الفئة المسيطرة في المجتمع. وهي في جميع الأحوال أيضاً ديكتاتوريات تفعل المستحيل حتى تهيمن منظومتها الفكرية والثقافية على المجتمع الذي تسيطر عليه بما يخدم متطلّبات سيطرتها. وفي وقت قد يبدو هذا الأمر واضحاً في الدكتاتوريات الدينية والديكتاتوريات المباشرة، فإن الديكتاتوريات غير المباشرة، كالديكتاتورية الرأسمالية، دائماً ما تتغنّى باحترامها للتنوّع والاختلاف الثقافي. غير أن الواقع هو عكس ذلك تماماً. فالرأسمالية تُنشئ وستستمرّ بتعميم مجتمعات يغيب عنها البعد الحضاري التاريخي والثقافي والنقاش الفكري والتنوّع. مجتمعات رمادية تلبّي حاجة السوق ومتطلّبات الاقتصاد الرّاهن...

أما أساليب الحكم وإن اختلفت، فإن السّمة العامة لجميع الديكتاتوريات هي الحاجة إلى صراعات ونزاعات وتناقضات أفقية تخدم تأبيد التناقض العمودي الذي عماده الاستغلال. فالحاجة إلى عدوّ هي سمة عامة لجميع الديكتاتوريات، عدو يبلور التناقض الأفقي

الـذي يمـوّه التناقـض البنيـوي الـذي تسـتغلّه الفئـات المسـيطرة. وبالتالـي فإنّـه مـن السـهولة بمـكان أن نتبيّـن كيفيـة التناقـض مـن خـلال تحليلنـا للأطـراف المتناقضـة وعلاقتهـا بعضهـا ببعـض. فمـن الواضـح أنّ طـرف التناقـض الأفقـي غيـر البنيـوي يقـوى كلّمـا قـوي الطـرف النقيـض، بمعنـى أنّ طـرف التناقـض الأفقـي بحاجـة إلـى أن يكـون خصمـه قويّـاً حتـى يجيّـش النـاس علـى هـذا الأسـاس. بالمقابـل، فـإن أطـراف التناقـض البنيـوي العمـودي تضعـف طرفـاً كلّمـا قـوي الطـرف الآخـر. ومـن البديهـي إذن أن الشـعوب المقهـورة كلّمـا قويـت وتحـرّرت وتطـوّر مسـتواها المعرفـي، ضعفـت قبضـة السـلطة...

*

وفي وقت تعتمد الديكتاتوريات المباشرة مسمّيات تغذي العصبوية بشكل كبير كالقضيّة المركزية والمعركة المصيرية والمؤامرات وحتى العدالة الاجتماعية والاشتراكية وما إلى هنالك، تقوم الديكتاتوريات الدينية بتغذية بارانويا الاستهداف الثقافي والقيم والدين والعائلة والأخلاق وما إلى هنالك.

بالمقابل، فإن الديكتاتوريات غير المباشرة تعتمد مستويات مختلفة من التناقضات الأفقية مما يتيح لها بيكاراً أوسع للاستغلال. فهي من جهة تتيح العمل السياسي «الديمقراطي» بحيث ينشغل الشعب بالتنافس السياسي الداخلي الأفقي عوض الاشتباك العمودي مع الفئات المسيطرة المتنفّذة من كبار المتمولين الذين يحمي النظام السياسي نفوذهم وأموالهم وسلطتهم ويعبّر عنها. فما السلطة السياسية

في هذه الدول سوى تعبير عن مصالح تكتّلات اقتصادية كبرى. والساسة والقادة العالميّون هم باعة ومسوّقون يمثّلون كارتيلات اقتصادية كبيرة جلّ عملهم يكون لمصلحتها. هم يصلون إلى مناصبهم بالانتخاب، غير أن عملهم يتمحور حول عقد صفقات تجارية عالمية بين الدول كعقود النفط مثلاً أو الطاقة أو السلاح... وفيما تظهر هذه الأنظمة أنظمة ديمقراطية حقيقية، غير أن جميع من هم في السّلطة يمثّلون الأغنياء فقط، بينما الغالبية الساحقة من الشعوب غير قادرة على الوصول إلى من يمثّلها اقتصادياً في السلطة لعوامل اقتصادية وسياسية يكرّسها النمط الاقتصادي الرأسمالي.

ومن جهة أخرى، تبرز الحاجة إلى العدوّ الذي يخلق للسلطة قضيّة أفقية إضافية تبرّر التدخّل الخارجي فتتّسع مساحة الاستغلال ومداه تحت مسمّى حماية الديمقراطيّة وحماية المصالح والأمن القومي وما إلى هنالك.

وفيما تتسيّد العقول العملية المتطرّفة الحكيمة الديكتاتوريات المباشرة والدينيّة حتّى، فإنّ الديكتاتوريات غير المباشرة هي مساحة عقول أدهى وأخبث، العقول العملية الحكيمة. وما الانتقال السياسي من ديكتاتورية إلى أخرى سوى نزاع أفقي يسعى إلى استبدال فئة مسيطرة بأخرى، غير أن ذلك يبقى جزءاً من سيرورة تطوّر الشعوب ونضوجها ونضوج إيمانها بقدرتها على التغيير، جزءاً من حركة التاريخ...

******

العالم اليوم

كنت في طفولتي أمضي ساعات ألعب في حديقتنا في القرية، أراقب المئات من الفراشات والنحل والنمل واليعاسيب والكائنات المتنوعة الأشكال والألوان. كانت حديقتنا عابقة بالحياة والتنوّع عكس ما هي عليه اليوم. وحال حديقتنا حال الكثير من أصقاع الأرض التي ما فتئ يضمر تنوّعها البيولوجي ويتناقص. وإذا كان عمر هذه السيرورة التدميرية يرجع مئات السنين إلى الوراء، فإن السنوات الأخيرة قد شهدت ضموراً دراماتيكياً وملحوظاً في التنوّع البيولوجي وفي أوجه وأشكال الحياة فوق سطح الأرض.

*

لقد دأبت البشرية على مقاربة الأزمة التي تعاني منها الأرض اليوم، والتي تطال جوانب الحياة كافة، مقاربة ذاتية تُرجع أساس الأزمة إلى جوانب ذاتية متعلّقة بتصرّفات الأفراد وغياب الشعور بالمسؤوليّة تجاه الأرض والبيئة. ووسط هذه المقاربة الضئيلة، ظهرت المنظمات البيئية وأحزاب الخضر والجمعيات المناصرة للبيئة والمناهضة لعملية تدميرها المنهجي. غير أنّه أمسى من الواضح أن جميع هذه

الجهود هباء، فأزمة الأرض كارثة حقيقية، وهي النتاج الحتميّ للنمط الاقتصادي الذي يحكم العالم اليوم.

إن النمط الاقتصادي الرأسمالي، والذي هو كما أسلفنا يرتكز على تناقض عمودي مبنيّ على استغلال فئة من العقل البشري الكلّي للفئات الأخرى، سمته الأساسية السّعي غير المحدود لزيادة الربحية والتي حتماً سترتّب مزيداً من الاستغلال. وهنا أيضاً، فإن ذهننا الجماعي المتدرّب على المقاربات الذاتية لآلاف وآلاف السنين، سيُرجع دائماً السعي غير المحدود للربح لعوامل ذاتية غير موضوعية متعلّقة بالأفراد. وعبثاً سيستمرّ عمل ونشاط الأفراد والجمعيات والمنظّمات لنقد هذه الاتجاهات لدى بعض الناس، فيما الاستغلال يستمرّ ودمار الأرض يستمرّ وسط نمط اقتصادي يحفّز على السعي اللامحدود لزيادة الأرباح وتعميق الاستغلال. في الواقع إن هذه المقاربة الذّاتية بما فيها الجمعيات والمنظمات والجهود هي نفسها جزء من ثقافة هذا النمط الاقتصادي السائد، من المنظومة الثقافية والسياسية للرأسمالية لتنسف وتكون بديلاً عن أي عمل تغييري بنيوي حقيقي، عمل يرتكز على الطابع العمودي للتناقض.

*

والسعي اللامحدود إلى زيادة الأرباح وتعميق الاستغلال لا ريب سيرتّب المزيد والمزيد من الدمار في الأرض... ستقتل النمور والتماسيح من أجل بيع جلودها، والفيَلة من أجل عاجها، والحيتان

والدلافيـن... وسـتقطع الأشـجار وتحـرق الغابـات وتدمّـر. وسـتتضاعف آثـار الاحتبـاس الحـراري الـذي هـو نتـاج النمـط الاقتصـادي السـائد لا غير، وستسـتمرّ الغـازات والانبعاثـات تفتـك فـي الأرض والطبيعـة... سيسـتمرّ اسـتغلال مـوارد الأرض لإنتـاج الطاقـة عـوض اسـتخدام الطاقـات الكامنـة فـي الطبيعـة أصـلاً، فيسـتمرّ التناقـض العمـودي بيـن الإنسـان والطبيعـة ويتعمّـق...

ستتسيّد الأرض والبحار والمحيطات كائنات بدائية حقيرة كالكائنات الهلامية على شاكلة قنديل البحر، والبرغش والصراصير والجرذان وسائر الكائنات القادرة على تحمّل الظروف البيئية الصعبة والتلوّث وذلك على حساب الكائنات التي لطالما أغنت التنوّع البيولوجي في الأرض.

حتماً سيقول كثيرون إن هذه الملامح القاتمة والشديدة الكآبة للمستقبل القريب أمر مبالغ فيه، غير أن جميع المؤشرات تشير إلى ذلك تماماً...

*

وأثر السعي الدائم إلى الربح يشمل سائر جوانب الحياة التي نعرفها ونعيشها في هذا العالم، والجانب الغذائي والصحّي هو جزء منها. فالسّعي إلى الربح دائماً ما يكون على حساب جودة المنتجات الغذائية وصحيّتها، والرأسماليون أصحاب مصالح الإنتاج الغذائي من العقول العملية الحكيمة لا يتورّعون عن وضع أسوأ المكوّنات وأكثرها

ضرراً من أجل زيادة منسوب الرّبح. والأسوأ أن ذلك أمسى جزءاً من ثقافة المجتمع ومنطقه الذي يبرّر ذلك تماماً، بينما تفتك الأمراض بالناس، والأمثلة التي تعطى ضمن هذا الإطار لا تحصى ولا تعدّ. ثمّ إن الأثر السلبي على الصّحة لا يقتصر على إدراج مواد مثبت ضررها في المنتجات، بل إن حرمان المستهلك من المواد الكاملة الطبيعية له أضرار لا ريب فيها ومداها ليس بعيداً جداً كما نتخيّل. في الواقع، إن كل تجزئة لمكونات الطبيعة مما يعزّز التناقض العمودي بين الطبيعة والجسد سيرتب أثراً سلبياً على الصحة.

وبينما تستمرّ الرأسمالية بتدمير الطبيعة والأرض والصحّة، تستعر حملات التوعية ومنظمات حماية حقوق المستهلك والدعوات للرقابة وإلى ما هنالك. غير أن ما فات كلّ هذه الأنشطة والقيّمين عليها هي أن أصحاب المصالح من ذوي العقول العملية الحكيمة وفق التصنيف الذي أشرنا إليه في قسم سابق، لا يتورّعون عن أذية الناس والإسهام في تدمير صحّتهم وموتهم، وهم دائماً ما سيجدون فتاوى ستتيح لهم دائماً أن يقوموا بما يقومون به. وإذا أغلق باب من خلال الرقابة على الانتاج وما إلى هنالك، فإنهم دائماً ما سيجدون وسائل وأساليب أخرى ستفضي إلى المكان ذاته: تحقيق أقصى هامش من الأرباح بأقل تكلفة ممكنة؛ أي: استخدام مواد مضرّة أو على الأقلّ غير صحيّة في الانتاج الغذائي.

فأصحاب الأعمال الناجحون يجب أن يتصفوا بالقدرة على

الاستغلال بلا رحمة، بالقدرة على أذية الناس بأرخص المكونات التي تضمن ربحاً أوفر، بالقدرة على الإفتاء وتوفير الحجج التي تبعد الذنب، أمّا بقية المجتمع فكفيلة بأن توفّر الحجج المطلوبة كونها خاضعة للنمط الفكري السائد الذي يلائم الرأسمالية...

حقاً، إن رجال الأعمال الناجحين، رجال الأعمال الكبار والأخلاقيين في الوقت نفسه لا يتواجدون إلا في الأفلام...

*

والأمر نفسه ينسحب على الصناعة الدوائية والطب العلاجي. فبطبيعة الحال، إن جميع الشركات المصنّعة للدواء إنما تتوخّى تحقيق جزيل الأرباح بما يتضمّنه ذلك من أساليب ووسائل في التصنيع والترويج والتسويق. فضلاً عن أن الشركات المصنّعة للدواء، والنظام الرأسمالي عموماً، ما فتئت تروّج وتعمّم نظرة انهزامية تسليمية أمام «حتمية» العلاجات الدوائية المتوافرة مما يضمن لها استمرار الإنتاج وتحقيق الأرباح. كلّ هذا بالإضافة إلى النظريات التي تروِّج، والتي ترتكز على منهجية سببيّة خطّية ضئيلة، فيما يخص الصحة الجسديّة والنفسية وأساليب العلاج والعلاج الدوائي وما إلى هنالك.

*

وكذلك الأمر بالنسبة إلى العلوم التي عوض أن تخدم البشرية، وأن تبحث في تطوير إمكانية التعايش مع الطبيعة وتطوير الحياة البشرية، تُحرم من الكثير من المقدّرات التي تذهب إلى جيوب فئة تفتك بالطبيعة

وتدمّرها وتدمّر البشرية معها، وقد أخرجت الإنسانية عن طورها... وكذلك الأمر بالنسبة إلى الفنون والآداب وسائر الجوانب المشرقة في الإنسانية أمست تخضع تماماً لمؤسسات وشركات إنتاجية تمعن في تدميرها لمصلحة المكاسب المادية وغزارة الإنتاج، فيما تتدرّب العقول على سماع ومشاهدة أسوأ أنواع الفنون وأكثرها حقارة...

*

وتبرز الحروب كإحدى أبرز نتائج الرأسمالية وأكثرها وضوحاً. فالنظام الرأسمالي يبثّ العنف والدمار مع كلّ نفس من أنفاسه، وبإمكاننا أن نتخيّل الكمّ الهائل من الطاقات والموارد البشرية والطبيعية التي «تضيع» فقط على الحروب.

لقد أشرنا في السابق كيف أن الفئات المسيطرة تشجّع على العصبوية، وتغذّي التناقضات الأفقية لتمويه التناقضات العمودية المبنية على الاستغلال، فتصبح التناقضات الأفقية عنيفة مدمّرة عوض أن تلعب دورها البناء في سيرورة التطوّر الاجتماعي. إن هذا الموضوع يتبلور في جميع مفاصل العالم الرأسمالي أو أي نمط اقتصادي مبني على الاستغلال بدءاً من نشوء الدول ومفهومها، ودورها مروراً بالسياسات المبنية تماماً على مصالح كارتيلات اقتصادية كبيرة، وصولاً إلى الحروب والغايات الاقتصادية التي تقف خلفها التي تشمل أيضاً سوق السلاح وشركات تصنيعه... إن النزاعات والحروب بالإضافة إلى المنظمات الداعية للسلام كونها تجعل الحروب خياراً

ذاتياً لا نتيجة موضوعية للرأسمالية، هي جزء لا يتجزأ من المنظومة الاقتصادية للعالم الرأسمالي، من الدورة الاقتصادية الرأسمالية...

*

والتناقض العمودي القائم على مستوى العقل البشري الجماعي، العقل الكلّي، ما فتئ يتعمّق ويزداد، وتتّسع الهوّة بين الأغنياء والفقراء، وبين الشعوب في مختلف أصقاع الأرض. وإذا استمرّ هذا الفارق بالاتساع، فإن مختلف الطبقات الاقتصادية والشعوب ستتّبع سيرورة مختلفة عن الأخرى بما سيحمله ذلك من فروقات جينيّة شديدة العمق. ومن البديهيّ إذّاك أن تشهد البشريّة تفرّعاً مذهلاً بحيث ستشهد شعوباً وفئات لها عمر أطول من شعوب، وخصائص جينية أكثر تطوّراً من فئات أخرى، فيتعمّق انقسام العقل أكثر فأكثر ليتخذ منحىً أكثر جذرية مما هو عليه اليوم.

قد يبدو هذا المصير بعيداً، غير أنّه انطلاقاً من فهمنا لحركة التاريخ من المنظار الذي نبحث فيه ونحاول شرحه، فإن هذه الفرضية تبدو واقعية تماماً، والأبحاث قد تثبت وتعزّز ذلك في يوم ما قريب...

*

إن العالم اليوم يئنّ تحت وطأة الرأسمالية، والأرض تئنّ والطبيعة تأخذ أنفاسها على وقع عالم يسير بها نحو الهلاك...

فالرأسمالية قوّضت وحدة العقل البشري، وأوقفت تطوّره تماماً، فإذا به يغوص في تفاصيل تناقضه العمودي البنيوي على حساب

تناقضـه الأفقـي مـع الطبيعـة الـذي يحكـم سـيرورة تطـوّر العقـل وتطـوّر الطبيعـة. والعمـل مـن أجـل عالـم جديـد، عالـم مختلـف أمسـى ضرورة ومسـألة حتميـة وعاجلـة لا مفـرّ منهـا أبـداً...

والرأسماليون بحكم سيطرتهم على العالم اليوم وعلى جميع مفاتيح الاقتصاد ومجمل الشركات والمؤسسات المنتجة يتحكّمون تماماً بلقمة عيش الباقين من البشر، وهم يستغّلون هذا العامل لطمس أية إمكانية لنهوض أية عملية تغييرية تعارض تأبيد سيطرة الرأسمالية. فالهمّ الأساسي لمعظم البشر هو تأمين عيشهم الأمر الذي يشغلهم عن التناقض الأساسي على مستوى العقل، التناقض مع الرأسمالية. العيش الكريم حقّ لكلّ إنسان على وجه الأرض؛ إنها لمهزلة كبرى أن يصبح تأمينه همّاً على البشر. فمن الظلم أن تكون حاجات الإنسان مصدراً للثروة ونشوء الطبقات من خلال الاستغلال.

*

إن حرية التعبير هي قيمة إنسانية كبرى، غير أن الرأسمالية سخّرتها لخدمتها تماماً فأمست وسيلة تخدم الاستغلال. وحرية التعبير متنفس عظيم للمقموعين والمستغلّين، غير أنه يبطل أي تغيير حقيقي. فالرأسمالية تسعد وتروج وتدعم حرية التعبير، لا بل ربطته حصراً بالديمقراطية، والديمقراطية مفهوم أعمق وأوسع من هذا بكثير.

إن مطلـق إنسـان واقـع تحـت ضغـط كبيـر لا ريـب يشـعر بالارتيـاح إذا مـا عبـر وتكلّـم، وهـذا فعـل حريـة التعبيـر التـي تنفّـس احتقـان المسـتغلّين

لكـن لا تغيّـر شـيئاً فـي حالهـم. الواقـع أنـه لـو جـرت محاولـة صامتـة لتغييـر حقيقـي، فسـتواجه بالقـوة وتجابـه بعنـف غالبـاً مـا يبلـغ حـدّ التصفية الجسـدية مـن خـلال أجهـزة المخابـرات أو العمـلاء وتلفيـق التهـم ومـا إلـى هنالـك.

*

إن تمجيد الطوباوية مسألة أساسيّة في تكوين الثقافة التي يروّج لها الرأسماليون. والطوباوية كذلك تقتل أي طموح حقيقي بتغيير حقيقي. فترى تسويقاً وتبجيلاً لشتّى المظاهر الطوباوية، ودائما ما ترتبط بالقيم الإنسانية العليا. وذلك المشهد الذي يريك ثرياً وزع أمواله على الفقراء فقدّم مشهدية تبعث على الأمل وتروّج للتسامح والفضيلة والتعاطف مع الأثرياء. غير أن الواقع هو عكس ذلك تماماً، وهذه الأمور لا نراها إلا في الأفلام أو في حالات نادرة. والحقيقة أن هذا الثري، لو وظف أمواله لمصلحة قضايا الناس وسعى لتحقيق مصلحة العقل الجماعي، لحقّق مصلحة عليا ومنفعة حقيقية عوض تبذير ثروته بشكل لا يسمن ولا يغني عن جوع. حتى الجمعيات والأعمال الخيرية والتبرعات أمست كفّارة الرأسماليين ووسيلة دعاية وتمجيد، غير أن الواقع أنه لولا الرأسمالية لما كان هنالك من حاجة لهذه الأعمال برمّتها.

*

والدعايــة الرأســمالية إحــدى أقــوى وســائلها لتأبيــد ســلطانها علــى العالــم، وهــي متماهيــة ضمــن الثقافــة ونمــط التفكيــر الســائد بشــكل تــام

وتلقائـي تمامـاً... والدعايـة تشـتمل على الأسـاليب الدعائيـة التقليديـة، بالإضافة إلـى الأفـلام والفنـون التـي اسـتغلّها الرأسـماليون أشـد اسـتغلال. هـذه الدعايـة التــي تــروّج لتناقضــات ثانويــة، كمــا وتمجّــد مفهــوم الحريّــة. والحريــة كمــا أسـلفنا قيمـة إنسـانية كبـرى، غيـر أنهـا يجـب أن تقتـرن بالعدالـة الاجتماعيـة وبغيــاب أيــة تناقضــات علــى مســتوى العقــل. أمــا إذا أمســت تخــدم طغيــان الرأسـمالية وتسـاعد علـى تأبيـد سـيطرتها، فـإن فـي ذلـك كلامـاً آخـر.

والرأسمالية روجت لكلّ ما يناقضها، وللعالم غير الرأسمالي بملامح كئيبة تسودها الرتابة وتبعث على الإحباط، بينما الواقع هو عكس ذلك تماماً. فعالم غير رأسمالي هو عالم سيعمّ فيه السلام والعدالة الاجتماعية، بحيث يتسنى للإنسان الاستمتاع بالتنوّع والاختلاف والفن والرياضة والآداب عوض أن تخدم هذه جميعها مصالح الرأسمالية العليا.

*

ولطالما دأب الفكر الرأسمالي المسيطر على تصوير الرأسمالية كأمر واقع وحاضر يجب التسليم له، وعلى الترويج للرضوخ لهذا الواقع كنوع من الحكمة والدراية بالأمور، وأمسى هذا النفس الانهزامي مسيطراً تماماً على العقل البشري الجماعي في العالم اليوم. وفيما نمط الانتاج السائد يفتك بالأرض والطبيعة والإنسان، يظهر «الواقعيون» كجهابذة السياسة العالمين ببواطن الأمور وظواهرها. كلّ ذلك فيما

تتولّى فئة متضرّرة من النظام الاقتصادي المسيطر، فئة حقيرة إنهزامية بالتعاطي مع إمكانية التغيير باستخفاف وبنوع تغلب عليه الكوميديا...

المتخاذلون هم أفصح الناس وأقدرهم على الكلام...

*

الطبيعة الإنسانية... تلك الكذبة الكبرى التي تلصق بها شتى الخروقات الاستغلالية بحق البشر، وتشكّل كفارة المستغِلّين وعزاء المستغَلّين. والواقع أن هذه «الطبيعة الإنسانية» من حيث هي مفهوم إنّما تتناقض مع واقع العقل من حيث هو مكوّن إراديّ من مكوّنات الوجود، نقيض لتلقائية الطبيعة. وبالتالي لا يجوز وصف العقل وتحليل الأمور على هذا النحو، وانطلاقاً من مسلمات تعزّز الانهزامية وأبدية الوضع القائم؛ للإنسان عقل ووعي إراديّ حتى يتطوّر ويتحرّر.

*

لقد جعلت الرأسمالية من التعليم وسيلةً لتأبيد سيطرتها، فأمست المناهج التعليمية وسيلة لتطويع المزيد والمزيد من العقول العملية خدمةً لها، ورسّخت نمطاً فكرياً وثقافياً ينتج عقولاً تمجّد الاستغلال وتتعاطى معه كأمر واقع ومسألة بديهية حتمية.

*

إنّ الكوارث الاقتصادية هي جزء من بنية النمط الاقتصادي الرأسمالي، من تاريخه وحاضره ومستقبله... وفي الواقع، فإنّ تكدّس الثروة في أيدي قلّة من الناس تجعل من الكوارث الاقتصادية

مسألة ذات احتمالية كبيرة، أكبر بكثير جدّاً مما لو كان توزيع الثروة لا يشتمل على فروق كبيرة. وبالارتكاز على مبادئ علم الاحتمالية (Probability)، فإن تبيان ذلك يصبح مسألة بديهية تماماً. ببساطة، فإنّه كلّما زاد عدد العيّنات المتماثلة أو المتقاربة، جنحت احتماليّة الوقوع في كوارث أو أحداث استثنائية إلى التضاؤل والتعديل والتوازن. بالمقابل، فإنّ الاحتمالات تزيد وتتضاعف كلّما تركّزت الثروة في أيدي قلّة من الناس بحيث يخضع الاقتصاد العالمي برمّته، والذي أمسى مترابطاً بشكل كبير عبر تركّز الأعمال ضمن شبكة تربط كبرى الشركات الاقتصادية والمصارف، يخضع لأداء هذه القلّة وأعمالها ومغامراتها وأهوائها.

ترى الذين يتعاطون مع الرأسمالية كأمر واقع ويرونها مصيراً سيرزح العقل البشري تحت وطأته إلى الأبد، والذين يدافعون عن النمط الاقتصادي الرأسمالي، تراهم يقولون إنّ هذا الموضوع عاديٌّ تماماً، أمرٌ واقع يجب أن نتعايش معه. غير أنّه حين نتمعّن في نتائج الكوارث الاقتصادية، نرى أن الغالبية الكاسحة من الناس، تلك الفئات الفقيرة التي تئن تحت وطأة الاستغلال في زمن الرّخاء هي نفسها التي تدفع الثمن في الكوارث، هي التي تخسر وظائفها وتعاني من الغلاء ومن أعباء الأزمات الاقتصادية...

*

أخيراً، العالم الحرّ... حيث الحرّية الوحيدة المتوافرة هي حرّية

استغلال الآخرين، بينما بقية الحرّيات هي ديكورات، زينة تخفّف من مرارة الواقع وتعمي الأبصار عن الواقع الحقيقي... ففي «العالم الحرّ» الإنسان أسير قيود الاقتصاد وهموم العيش والحياة، لا يتمتّع بأبسط حقوقه في العيش الكريم...

*

إنّ سائر الأزمات التي يعيشها العالم، كما أسلفنا، إنّما هي تعبيرٌ عن ذلك التناقض العمودي، التناقض على مستوى العقل الذي يرتكز على الاستغلال. وإذا كان هذا الواقع المتردّي للإنسانية والأرض الذي نعيشه هو أوج ما عرفته البشرية حتّى يومنا، غير أنّ الشكل الحالي من الاستغلال ليس الشكل الوحيد، وقد عرف العالم أشكالاً متنوّعة من الاستغلال منذ ما قبل العالم الرأسمالي. غير أنّ الواقع اليوم لا ريب بلغ مستوىً غير مسبوق من الابتعاد عن الإحساس بالطبيعة، عن الإحساس بأنّنا جزء من الوجود...

*

لقد كان إحساس الإنسان بالطبيعة وبتناغمه معها قوياً، يتجسّد في كل عمل يقوم به وفي تنقّله وفي حياته اليوميّة وفي طبيعة همومه... أحاسيس لا نعرفها نحن اليوم اللهم إلا في شذرات من حياتنا، لربّما في تنشّقنا لهواء الليل المنعش أو في استماعنا لسكونه، أو في تمتّعنا بيوم في الطبيعة. فنمط الحياة وفق النمط الاقتصادي السّائد إنّما تجعل من الحياة همّاً يوميّاً بشكل يبعدنا عن تناغمنا مع الوجود، وتتراكم ممارساتنا اليومية حتى ننسى تماماً ذلك الشعور وتلك الأحاسيس...

الأطفال يعرفون ذلك الإحساس بالطبيعة ويشعرون بتلك العلاقة الوثيقة بالوجود، يشعرون بأنّهم جزء منه، يستشفّونه بوعيهم، ففكرهم أعجز وأكثر ضآلة من أن يقدر على جذب وعيهم وحرفه عن الانسجام مع الوجود. غير أنّ ذلك الإحساس العميق بالأشياء وبمظاهر الطبيعة يتضاءل تدريجاً، وتستجدّ أمور دخيلة على الحياة لتحتلّ حيّزاً هائلاً من فكرنا إذ نكبر... أمور تجعل الفرح مرتبطاً بإنجازات دخيلة أيضاً كالأعمال وما إلى هنالك، فنبتعد أكثر فأكثر عن تناغمنا مع الطبيعة وإحساسنا العميق بالوجود، حتى ننسى تماماً ذلك الشعور بالسعادة والسلام والفرح النقيّ... ننسى أنّه موجود أصلاً، ونستمرّ في سعينا إلى البحث عنه في مكان لا يتواجد فيه، في مكان لا يمكن أن يتواجد فيه، في تلك الأمور الدخيلة المستجدّة على الحياة الإنسانيّة...

******

في تجارب التغيير

الحركات من أجل التغيير

إن الحركات المناضلة من أجل التغيير عمرها من عمر الاستغلال. ولطالما كان عمادها جيوش المستغَلين والمتعاطفين معهم من مثقفين ومفكرين وما إلى هنالك من فئات إما متضرّرة بشكل غير مباشر من الاستغلال، وإما من المناصرين لنضال الفئات الكادحة المستغَلّة التي تتحمّل وزر التناقض العمودي على أكتافها...

ولقد نشأت تيارات وتوجهات عديدة تحمل لواء النضال ضدّ الرأسمالية والاستغلال ولواء العدالة الاجتماعية تحت مسميات رنّانة كالشيوعية والاشتراكية والثورية وما إلى هنالك من اتجاهات وأحزاب، الاتجاهات «اليسارية» عموماً...

ولعلّ أحد أبرز النقاشات التي كان يتمّ التدول بها هي كيفية إنجاز التغيير وطبيعة النظام الجديد وما إلى هنالك من الطروحات التي لطالما احتلّت الجزء اليسير من نقاشات «القوى التغييريّة». هذا فضلاً عن القوى والأحزاب والمنظّمات التي تقع في المنطقة الوسطى بين اليسار واليمين على مقياس الانحياز وفق منظور خطّي ضئيل.

ودائماً ما كانت القوى «الثورية»، ولاتزال، تعيّر القوى «الإصلاحية» بأن الأخيرة في خضمّ خوضها غمار الاتجاه الإصلاحي دائماً ما تنخرط في النظام السائد بآلياته وأساليبه لتصبح جزءاً منه. إن في ذلك الكثير من الصحّة، غير أن هذا أيضاً ينطبق تماماً على القوى «الثورية» نفسها...

*

إنّ جميع الأنظمة المبنية على الاستغلال إنّما تسعى دائماً بتلقائية مطلقة، ووفق منظومة عملها للحفاظ على بنيتها وتأبيد نفسها، تسعى إلى تمويه التناقض العمودي المرتكز على الاستغلال من خلال تغذية التناقضات الأفقية وتعزيزها. وبالتالي فإن العصبويات والحزبية وسائر التسميات والأدبيات حتى، تدخل تماماً في صلب هذه المنظومة الفكرية والثقافية والسياسية، هذا البناء الفوقي للنظام الرأسمالي كما يسمّيه ماركس، مهما بلغت ثورية طروحاتها. وبالتالي، فإن النضال عوض أن يكون عمودياً بين المستغَلّين والمستغِلّين، بين الفقراء والأغنياء، بين من هم تحت في التناقض البنيوي العمودي للعقل ومن هم فوق، يصبح بين يسار ويمين، بين شيوعيين وغير شيوعيين، بين طرح سياسي وآخر، مما يفرغ كلّ نضالات الشعوب المقهورة من مضمونها تماماً بحيث أنه لا يبقي ولا يصون الطابع العمودي للنضال...

إن سائر القوى «التغييرية» قامت بتطبيق ما تريده الرأسمالية تماماً، وانخرطت في المنظومة الفكرية للنظام الرأسمالي متخذة تسميات وأدبيات ومصرّة عليها. فالعصبوية والتصنيفات هي جزء من ثقافة

نمـط الإنتـاج المسـيطر، وجـزء مـن آلياتـه للحفـاظ علـى التناقـض العمـودي عبـر تحويـل الصـراع إلـى صـراع أفقـي مبنـي علـى التصنيفـات السياسـية والحزبيّـة والعصبويّـات...

***

الصّراع ضدّ الإمبرياليّة

لطالما سيطر الصّراع ضدّ الإمبريالية على خطاب القوى والأنظمة التي دائماً ما أحبّت أن تطلق على نفسها صفة: المناهضة للإمبريالية، وتسيّد هذا «الصراع» سائر أدبياتها. غير إنّ جلّ ما قامت به هذه الأنظمة والقوى، في الواقع، هو بالضبط ما لم تحلم به القوى الإمبريالية حتّى.

فباسم القضية نفسها قمعت الشّعوب، وديس على كرامتها، وأسكت رأيها وسخّر الأمن والأمان والخيرات والأموال وكلّ كلّ شيء لخدمة «القضيّة» إلى أن أمست «قضية الكفاح ضدّ الإمبرياليّة» وسائر القضايا العادلة، كنضالات الشعوب ضدّ الاستغلال والاستعمار المباشر وغير المباشر عبئاً كبيراً على كاهل الشّعوب فرفضتها وكفرت بها... إنّ هذا مثال يرينا التحالف غير المباشر بين المستغِلّين لتدمير القضايا المحقّة للشّعوب، لتعميق الانقسام العمودي على مستوى العقل والإبقاء عليه.

*

لقـد كانـت التجربـة «الاشـتراكية» فـي الاتحـاد السـوفييتي ودول مـا كان يسـمّى بالمعسـكر الاشـتراكي خيـر مثـال علـى مـا نحـاول تسـليط الضـوء

عليـه. فالاتّحـاد السـوفييتي مثـلاً، وبمجـرّد مـا التـزم الطروحـات السـتالينية مـن خـلال بنـاء «الاشـتراكية» فـي بلـد واحـد، إنمـا قـام ببنـاء دكتاتوريـة مباشـرة قمعيـة ونظـام بوليسـي مخابراتـي غيـر مسـبوق فـي إجرامـه. نظـام تسـيطر عليـه فئـة نافـذة، فئـة مسـتغِلّة، فئـة «عمليـة متطرّفـة» مـن العقـل تقبـض علـى جميـع مقاليـد السـلطة والدولـة والاقتصـاد. ثـمّ إنهـا بذلـك جعلـت الصـراع عـوض أن يكـون عموديـاً بيـن المسـتغِلّين والمسـتغَلّين، أمسـى أفقيـاً سياسـياً بيـن المعسـكر الغربـي ودول المعسـكر الاشـتراكي وحلفائـه، صراعـاً امبرياليـاً علـى النفـوذ فـي العالـم، ممـا أفـرغ النضـال المشـروع للطبقـات والشـعوب الفقيـرة مـن مضمونـه...

باختصار، لا يمكن بناء الاشتراكية في بلد واحد في نظام عالمي رأسمالي لأن مطلق صراع بين هذا البلد ودول أخرى سيكون صراعاً أفقياً سياسياً ضمن المنظومة السياسية والفكرية والثقافية للنمط الاقتصادي الرأسمالي...

لم تزد الشيوعيين العصبويّين رؤية «النموذج» يسقط إلا إصـراراً على مبادئهم وعقيدتهم ومنطلقاتهم، عوض تعديل خطابهم وممارساتهم لتصحّح فشلها في الوصول إلى الشّعوب، وذلك ليس بغريب عن أية عصبويّة بين سائر عصبويّات النمط الفكري السائد. فالشيوعيّون العصبويون يعتقدون أنّهم قيمون على الناس، وأنّهم هم قادة التغيير المنشود. إنّ الشعوب هي التي تصنع التغيير، أما قوى التغيير فتعدّل خطابها وبرنامجها وممارساتها وفقاً لمتطلّبات الشعوب

وليس العكس. فأي فكر تغييري يجب أن يكون منفتحاً مرناً قادراً على مجاراة حركة التاريخ.

*

والنظريات التي قالت بالتغيير وحملت لواءه، وفي خضمّ تحليلها للعوامل الموضوعية وحتمية التغيير، قد أهملت العقل تماماً. إن ذلك قد رسّخ انطباعاً مفاده أن الموضوعية هي كلّ ما ليس للإنسان أو للإرادة البشرية دور فيه، أي للعقل. وبالتالي فإنها فصلت العقل عن الوجود. والعقل ليس انعكاساً للوجود في الإنسان فحسب، بل الفكر هو كذلك... إن هذا التغييب للعقل ودوره عن الوجود وعن حركة التاريخ سيطرت على ملامح المشاريع المناهضة للرأسمالية فجاءت ملامحها كئيبة خالية من الحياة، بينما مجّدت الرأسمالية العقل والإنسان والإبداع فربح معركة العقل.

إن العقل هو جزء من الوجود، أما الموضوعية فهي المقاربة الموضوعيّة للتغيير، وإرادة التغيير التي تستند إلى فهم موضوعي للمجتمع، وليس الانطباع السائد ، والذي فشلت الفلسفات التغييرية في تغييره، بل أسهمت في ترسيخه وتبنّته عبر التعصّب لمقولة الصراع الطبقي «الموضوعي» وإهمال دور العقل في خضمّ نقضها للاتجاهات الذاتية.

وفي الواقع فإننا نرى في ذلك ذاتية مفرطة واعتراضاً لحركة التاريخ...

******

الطريق نحو التغيير

دائماً ما كانت «الحركات التغييرية»، وفي خضمّ التسميات والعصبوية، تعبّر عن نفسها في أحزاب سياسيّة...

لربّما قبل عقود من الآن، كانت هناك نخبة مثقّفة، نخبة كانت كثيراً ما تشكّل عماد الأحزاب السياسية... أما اليوم، وفي ظلّ سرعة انتقال المعلومات وسرعة الاتصال والإنتاج الفكري والدفق الإعلامي الهائل، لم تعد الثقافة والاطلاع حكراً على فئات دون فئات، على مجموعات دون أخرى... أمست سعة الاطلاع متوافرة لمعظم الشعوب في جميع أصقاع الأرض وإن بنسب متفاوتة...

لقد ولّى زمن الأحزاب وجاء زمن الشعوب، والشعوب هي التي ستصنع التغيير. الشعوب التي كانت ولاتزال وستبقى وقود حركة التاريخ المجتمعي...

إنه عالم جديد بنمط اقتصادي جديد ومختلف، نمط لا استغلال فيه تسوده العدالة الاجتماعية والمساواة، هو نتاج سيرورة نضالية تخوضها الشعوب المستغَلّة بالتحالف مع سائر الفئات والشرائح المتعاطفة معها... والعالم الجديد لا يمكن أن نعرف كيف سيكون شكله تماماً، إنما هو نتاج نضال الشعوب وحدها، نتاج تراكم التجارب،

نتاج حركة التاريخ، وبالتالي فإنه لا يمكن أن يفرض فرضاً، وفرض السعادة سيحوّلها حتماً إلى تعاسة...

*

لقد كانت جميع الحركات التي تحمل لواء التغيير تدّعي أنها تقبض على الحقيقة، وتملك التصوّر الواضح الكامل عن النظام البديل. غير أن هذا كلّه هراء، فالبديل نستشفّ معالمه في خضمّ السيرورة التغييرية ولا يمكن أن نتصوّر ملامحه اليوم شأنه شأن أي سيرورة في هذا الوجود. ببساطة، لا يمكن لأحد أن يعلم كيف سيكون وضع العقل البشري الكلّي بعد زمن بعيد من الآن.

التغيير نتاج سيرورة لا تنتهي، ثورة عالمية دائمة تخوضها الشعوب من أجل حقوقها وضدّ الاستغلال، ثورة لا تسميات فيها، ولا عصبوية ولا حزبية. ثورة دائمة مستمرّة تحافظ وتصون الطابع العمودي للنضال وتحميه من التسييس. فالشعوب هي التي ستصنع تاريخها، وهذا هو عصرها، عصر الشعوب التي لا تحتاج نخبة تقودها وتملي عليها ما ستصنع وكيف تفكّر، وما هو الخطأ وما هو الصّواب.

*

ومطلق حركة تغييرية، حركة تغييرية حقيقية، ستكون جزءاً من حركة الشعوب تبعث فيها النشاطية وتصون الطابع العمودي للنضال الذي سيستمرّ دائماً وأبداً حتى تنتفي جميع أشكال الاستغلال وجميع التناقضات العمودية على مستوى العقل الكلّي...

وبالتالي، فإنّ مطلق حركة تغييريّة حقيقيّة لا يمكن أن تكون حزباً

جماهيرياً لأنـه حتمـاً سـيتحوّل إلـى عصبويّـة فـي مـكان معيّـن، فيحـرف حركـة التغييـر. إنّ الحـزب الجماهيـري سـيتحوّل إلـى طـرف فـي تناقضـات أفقيـة جذّابـة لصـراع سياسـي أفقـي يحـرف النضـال العمـودي المحـقّ ضـد الاسـتغلال. ولعـلّ مجموعـات صغيـرة تعمـل علـى هـدف واحـد وتناضـل مـع الشـعب عموديّـاً أفضـل وأفعـل وأأمـن بكثيـر مـن حركـة واحـدة واسـعة تواجـه إمّـا خطـر التحـوّل إلـى عصبويـة، وإمـا خطـر التفتيـت خصوصـاً إذا مـا كانـت تحـوي تكتّـلات فـي داخلهـا... وعمـل هـذه المجموعـات الصغيـرة سـيخلق نقاشـاً دائمـاً يطـوّر خطـاب ووعـي وقـدرة وفاعليـة حركـة التغييـر. وبطبيعـة الحـال، فـإنّ النضـال ضـدّ الرأسـمالية لا يمكـن أن يتّخـذ منحـى أو طابعـاً عقائديـاً، أو أن يضـع نصـب عينيـه وأمـام شـعوب العالـم أجمـع نظامـاً جديـداً بديـلاً. فـإنّ ذلـك سـيدخل العمـل مـن أجـل التغييـر فـي مفاضلـة أفقيـة مـع الرأسـمالية تفـرغ النضـال العمـودي مـن مضمونـه.

*

لطالما كان الوصول إلى السّلطة مطباً دأبت «حركات التغيير» على الوقوع فيه مراراً وتكراراً. إنّ السلطة هي المكان الوحيد الذي سيفصل الحركة التغييرية عن الشعب، فتتحوّل من حليف للشعب ونضاله من أجل قضاياه المحقّة إلى طرف في صراع عمودي جديد مقابل الشعب. مهما ادّعت «حركة التغيير» التي وصلت إلى السلطة، سواء قبل أو أثناء أو بعد وصولها، بأنّها ستطبّق معايير وإجراءات تضمن العدالة الاجتماعية والمساواة الكاملة، غير أن الضمانة الوحيدة لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة الكاملة هي النضال العمودي

ضدّ السّلطة وليس من موقع السّلطة. بالتالي فإنّ موقع مطلق حركة تغييرية حقيقية هو دائماً في صفوف الشعب، في صفوف ثورة مستمرّة، ثورة دائمة من أجل انتفاء الاستغلال... فليأت إلى السلطة أهل السّلطة، ولتبق حركات التغيير حليفاً دائماً للشعب، جزءاً منه، يضرم النار في حركة التاريخ...

*

ولعلّ أصعب مهمّة تواجه مطلق حركة تغييرية هي الاستقطاب الأفقي الذي تمارسه قوى السلطة والنظام المهيمن سواء فيما بينها أو ضدّ طرف أو عدوّ خارجي اجترحته وستجترح غيره إذا ما سقط هذا العدوّ. إنّ هذا الاستقطاب الأفقي، التناقض الأفقي الذي كما ذكرنا إنّما يهدف إلى تمويه التناقض العمودي، هو استقطاب غير موضوعي ولا يعبّر عن حقيقة التناقض بطبيعة الحال. فالتناقض الحقيقي هو ذاك البنيوي العمودي بين جميع قوى السلطة المتنافسة من جهة، والشعوب من جهة أخرى. وبالتالي، فإن التموضع الصحيح لمطلق حركة تغييرية حقيقية هو التحالف مع الشعوب والشعوب فقط دون التقاطع ولا بأي شكل من الأوجه والأشكال مع القوى السياسية الموجودة.

وعلى ذكر الاستقطاب الأفقي والعصبويات، فإنّه من الواضح أنّ الاستقطابات الأفقية كثيراً ما ترتكز على مواضيع لا خيار للإنسان فيها، مواضيع تستند إلى العنصر بشكل أساسي مما يسهم في تسعير نار العنف في الدفاع عن هذه الانتماءات. إنّ النضال ضدّ وجود هذه الأشكال من العصبويات مسألة أساسية وركيزة لأي نضال من أجل

المساواة والعدالة الاجتماعية. إذ لا يجوز أن تعبّر الأحزاب السياسية عن انتماءات جندرية أو طائفية أو عرقيّة أو قومية كون صراعاتها دائماً ما ستولّد عنفاً شديداً ليتحوّل صراعها إلى صراع وجودي؛ فهذه الأحزاب تعبّر عن وضع اجتماعي لا خيار للإنسان فيه.

*

إن سيرورة التغيير تتضمّن مراحل، وإن ملامح مرحلة مستقبلية سوف لن تتوضّح قبل إنجاز المرحلة السابقة لها... لربّما النضالات العمودية من أجل حدّ مقبول من العدالة الاجتماعية والمساواة تشكّل المرحلة الأولى من سيرورة التغيير حتى يعمّ هذا المستوى جميع أصقاع الأرض. وهذه النضالات تشمل حقّ العمل والضرائب التصاعدية وإنهاء جميع أشكال التمييز العرقي والجندري والعنصري وما إلى هنالك.

ولعلّ النضال من أجل إيجاد وتطوير وحماية مؤسسات تعاونية بإدارة عمّالية منتخبة يدخل في صلب سيرورة التغيير تلك. مؤسّسات تعاونية تدخل في منافسة مباشرة مع الشركات الرأسمالية ذات النمط الاستغلالي، يتطوّر إثرها العمل التعاوني بقدراته وآلياته وثقافته ومعرفته. سيكون امتداداً للنضال العمودي ضدّ الاستغلال، جزءاً منه، وستكون هذه المؤسّسات التعاونية الصغيرة المعبّرة عن مصالح طبقة مسحوقة من الشّعب، جزءاً من هذه المصالح. ولعلّها تكون الشكل البدائي لما سيؤول إليه النمط الاقتصادي في المستقبل... من يعلم؟

******

المجد للمبدعين

إن المبدعين سيكونون دائماً جزءاً من جميع حركات التغيير في العالم. المبدعون، وهم أولئك المتضرّرون مما آل إليه العالم... تلك العقول العاطفية التي لطالما أغنت البشرية بنتاجها وأعطت للمجتمع البشري جماله وجاذبيته وتنوّعه...

قد أفهم أن يُرفّه المبدع، والمبدعون كثر... فمنهم الفنانون والشعراء والكتّاب والمفكرون، ومنهم العلماء والأطباء والمهندسون والقانونيون، ومنهم الأساتذة الذين يربّون الأجيال الصاعدة ويثقفون الناس. قد أفهم أن يُرفّه هؤلاء، وأن يتمتّعوا بما يضمن استمرار إغداقهم على البشرية، فبهم يتطوّر العقل ومن خلالهم يتنوّر الفكر...

لكنّي لا أفهم كيف يحقّ لفئة من العقول أن تستغلّ البشر لترقى بنفسها، وأن تصعد وتتطوّر على أكتاف الباقين من البشر...

فالمجد للمبدعين!!

ولا حلّ إلا بتطهير المجتمع البشري من شائبته الأساسية، الاستغلال. عند ذاك فقط يمكن للوعي الفردي والجماعي أن يسمو. وبذلك، يتضاءل ضغط الحياة على العقول، وتخف اضطراباته، وتنتهي

الويـلات والحـروب. عنـد ذلـك سيتسـنى للعقـل البشـري الاسـتمتاع الحقيقـي بالحيـاة، بالفكـر، وبالاختـلاف...

فالفكر هو المتعة، ويجب أن يرتكز على العلم والفن والآداب والرياضة عوض أن يرتكز على كيفية تأمين العيش، فهذه الأمور حقّ لكلّ فرد ويجب أن تكون بديهية...

******

من أجل عالم أفضل

من أجل عالم تسوده العدالة الاجتماعية والمساواة، عالم بلا حروب بلا نزاعات...

من أجل عالم واحد بتنوّع فكريّ وثقافي لا يولّد الاقتتال، عالم بتيارات وخيارات فكريّة تتناقض من أجل الشعوب ولا تمثّل مصالح تكتّلات اقتصادية...

من أجل كوكب سليم وبيئة سليمة لا تدمّرها الأطماع وتستنزف ثرواتها لمصلحة قلّة متنفّذة. من أجل قطاع صحّي يهدف إلى شفاء الناس لا إلى مراكمة الثروات، ومن أجل غذاء سليم لا يفسده السعي إلى الربح فيغتالنا ببطء...

من أجل عالم بلا أحزان، بلا تعاسة، بلا هموم؛ من أجل أن نستمتع بالفنّ بالرياضة بالآداب والثقافة بعيداً عن الربحيّة وعالم المال...

إن كلّ ذلك يستوجب منّا جميعاً، شعوب المتضرّرين من النّمط الاقتصادي السائد، نضالاً يومياً كي نتمكّن من الحصول على حقوقنا التي تنتزعها منّا أقلّية مسيطرة على مقدّرات العالم بأسره. نضال من أجل ضرائب تصاعديّة جدّاً تقلّل الفروق بين الناس، ومن أجل الحقّ في العمل للجميع وبالتعليم المجّاني والطبابة المجّانية وسائر الضّمانات

الاجتماعيـة! نضـال مـن أجـل قوانيـن وإجراءات تضمـن الفصل التام مـا بين عالم المال والشـركات وما بين السياسـة والسـلطة!

نضال من أجل عالم مختلف... عالم أفضل...

******

لكلّ إنسان دور في هذا العالم.

والدور يختاره المرء لنفسه كما يريد وكما يتصوّر ويظن...

أولئك البؤساء هم الذين لا يعرفون بعد دورهم في الحياة. والدور ليس بالضرورة أن يكون برّاقاً فأبسط الأدوار أعظمها، والحياة توازن أبدي وتكامل لا هوادة فيه...

ماهر أبو شقرا

قائمة المراجع

(Bibliography)

Anxiety BC. (2007). What is cbt?. Anxiety BC. Retrieved from http://www.anxietybc.com/what-cbt

Beck, J. S. (2011). Cognitive behavior therapy: Basics and beyond. (2nd ed.). New York: The Guilford Press.

Berecz, J. M. (1976). Towards a monistic philosophy of man. Andrews University Seminary Studies, 14(2), 279-288.

Bernstein, P., Schild, R., Saniga, M., Pracna , P., Neslušan, L., & Perkins, K. (2011). Non-locality, cognition, and cosmic structures. Journal of Cosmology, 14, 601-4615.

Bitbol, M., & Luisi, P. (2011). Science and the self-referentiality of consciousness. Journal of Cosmology, 14, 4728-4742.

Blenkiron, P. (2010). Cognitive behavioural therapy (cbt). The Royal College of Psychiatrists.

Bogoda, R. (1994). A simple guide to life. Kandy, Sri Lanka: Buddhist Publication Society.

Brewin, C. R. (2006). Understanding cognitive behaviour therapy: A retrieval competition account. Behaviour Research and Therapy, 44, 765-784.

Bullock, A. (1993). Hitler and Stalin: Parallel lives. New York: Random House, Inc.

Burgess, M., & Chalder, T. (2004). Manual for therapists: Cognitive behaviour therapy for cfs/me. PACE Trial Management Group.

Byrne, A., & Hilbert, D. R. (2000). Colour vision, philosophical issues about. In A. Byrne (Ed.), Encyclopedia Of Cognitive Science. New York: Macmillan Reference Ltd.

Cabanac, M., Cabanac, R., & Hammel, H. T. (2011). Consciousness: The fifth influence. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Calef, S. (2005, June 9). Dualism and mind. Retrieved from http://www.iep.utm.edu/dualism/

Cardeña, E. (2011). Altered consciousness is a many splendored thing. Journal of Cosmology, 14, 4781-4791.

Carter, B.(2011). Classical anthropic everett model: indeterminacy in a preordained multiverse. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Castillo, M. (2011, March 26). 12-year-old genius expands einstein's theory of relativity, thinks he can prove it wrong. Retrieved from http://newsfeed.time.com/2011/03/26/12-year-old-genius-expands-einsteins-theory-of-relativity/

Chah, A. (1995). A taste of freedom. Berkeley: DharmaNet International.

Christensen, W. J. (2011). Does the universe have cosmological memory? does this imply cosmic consciousness?. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Clarke, C. J. S. (2011). What consciousness does: a quantum cosmology of mind. Journal of Cosmology, 14, 4536-4541.

CliffsNotes.com. (2012). Gender Development. <http://www.cliffsnotes.com/studyguide/topicArticleId-26831,articleId-26770.html>.

Compton, S. N., March, J. S., Brent, D., Albano, A. M., Weersing, V. R., & Curry, J. (2004). Cognitive-

behavioral psychotherapy for anxiety and depressive disorders in children and adolescents: An evidence-based medicine review. J. Am. Acad. Child Adolesc. Psychiatry, 43(8), 930-959.

Darwin, C. (1859). On the origin of species.

Davies, P. (1989). The cosmic blueprint. London: Unwin Hyman Limited.

Davydov, V. V. (1990). Soviet studies in mathematics education (Translated by Joan Teller). (Vol. 2). Reston Virginia: National Council of Teachers of Mathematics.

De Léon, D. (1995). The limits of thought and the mind–body problem. Lund University Cognitive Studies, 42.

Descartes, R. (1649). Passions of the soul: Animals are machines. Journal of Cosmology, 14, (2011), Retrieved from http://journalofcosmology.com

Dobson, K. S. (2010). Handbook of cognitive-behavioral therapies. (3rd ed.). New York: Guilford Publications, Inc.

Dobyns, Y. H. (2011). Consciousness and quantum measurement: new empirical data. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Dossey, L., Greyson, B., Sturrock, P. A., & Tucker, J. B. (2011). Consciousness -- what is it?. Journal of Cosmology, 14, 4697-4711.

Dowden, B. (2001, August 11). Time. Retrieved from http://www.iep.utm.edu/time/

Dowden, B. (2002, December 9). Time supplement. Retrieved from http://www.iep.utm.edu/time-sup/

Dowden, B. (2010, June 8). What science requires of time. Retrieved from http://www.iep.utm.edu/requires/

Einstein, A. (1961). Relativity: The special and general theory. New York: Crown Publishers.

El'Konin, D. B. (2000). Toward the problem of stages in the mental development of children (Translated by Nikolai Veresov). Psychology and Marxism Internet Archive. Retrieved from http://www.marxists.org

Ellegala, H. L. B. (2009). the way to happiness. Kandy, Sri Lanka: Buddhist Publication Society.

Elliot, A. J. (2007). Color and psychological functioning: The effect of red on performance attainment. Journal of Experimental Psychology: General, 136(1), 154-168.

Fodor, J. A. (1981). The mind-body problem. Scientific American, Inc.

Freeman, W., & Vitiello, G. (2011). The dissipative brain and non-equilibrium thermodynamics. Journal of Cosmology, 14, 4461-4468.

Friedman, E. S., Thase, M. E., & Wright, J. H. (2008). Cognitive and behavioral therapies. In A. Tasman, J. Kay, J. A. Lieberman, M. B. First & M. Maj (Eds.), Psychiatry (3 ed., pp. 1920-1947). New York: John Wiley & Sons, Ltd.

Friesen, J. G. (2005). Monism, dualism, nondualism: A problem with vollenhoven's problem-historical method.

Fromm, E. (1958). Trotzky's diary in exile - 1935. Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press.

Fromm, E. (1960). Foreword to a.s. neill: Summerhill - a radical approach to child rearing.

Fromm, E. (1992). The influence of social factors in child development. Yearbook of the International Erich Fromm Society, 3, 163-165.

Fromm, E. (1998). Character and social process: An appendix to fear of freedom (Transcribed by Andy Blunden). ValueofKnowledge.

Fromm, E. (1998). Individual and social origins of neurosis. Tübingen: The Literary Estate of Erich Fromm.

Fromm, E. (2000). Human nature and social theory. Tübingen: The Literary Estate of Erich Fromm.

Ganssle, G. E. (2007, April 30). God and time. Retrieved from http://www.iep.utm.edu/god-time/

Gao, S. (2011). A quantum physical effect of consciousness.Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Gatzke, H. W. (1973). Hitler and psychohistory. The American Historical Review, 78(2), 394-401.

Globus, G. (2011). Consciousness and quantum physics: a deconstruction of the topic. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Govinda, L. A. (1973). Drugs or meditation?: Consciousness expansion and disintegration versus concentration and spiritual regeneration. Kandy, Sri Lanka: Buddhist Publication Society.

Greyson, B. (2011). Cosmological implications of near-death experiences. Journal of Cosmology, 14, 4684-4696.

Guardian-Text. (2008). From the ancient greeks: Know-thy-self. Retrieved from http://www.guardiantext.org/

Hanna, R., & Thompson, E. (2003). The mind-body-body problem. Theoria et Historia Scientiarum: International Journal for Interdisciplinary Studies, 7(1), 23-42.

Hardo, T. (2008). 30 most convincing cases of reincarnation. Mumbai: Jaico Publishing House.

Harris, E. J. (1994). A journey into buddhism. Kandy, Sri Lanka: Buddhist Publication Society.

Harvey, D. (2010). The enigma of capital and the crisis of capitalism. Oxford: Oxford University Press.

Heidelberger, M. (2003). The mind-body problem in the origin of logical empiricism: Herbert feigl and psychophysical parallelism. Logical Empiricism: Historical and Contemporary Perspectives, 233-262.

Hoffman, D. D. (2008). Conscious realism and the mind-body problem. Mind & Matter, 6(1), 87-121.

Holster, A. (2003, August 1). Proper time, coordinate systems, lorentz transformations. Retrieved from http://www.iep.utm.edu/proper-t/

Hyland, P., Boduszek, D., & Kielkiewicz, K. (2011). A

psycho-historical analysis of Adolf Hitler: The role of personality, psychopathology, and development.Psychology & Society, 4(2), 58-63.

Ibison, M., & Hathaway, G. (2011). Seti by entanglement.Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Ilyenkov, E. V. (1977). Problems of dialectical materialism: The concept of the ideal . Moskow: Progress Publishers.

Ilyenkov, E. V. (1982). Leninist dialectics and the metaphysics of positivism. London: New Park Publications.

Ilyenkov, E. V. (1991). Activity and knowledge (translated by peter moxhay 2002). Retrieved from http://www.marxists.org

Ilyenkov, E.V. (1977). Dialectical logic (English translation 1977 by H. Campbell Creighton). Moskow: Progress Publishers.

Ilyenkov, E.V. (1982). Dialectics of the abstract & the concrete in Marx's Capital (English translation 1982 by Sergei Kuzyakov). Moskow: Progress Publishers.

Jackson, P. T. (2008). Foregrounding ontology: dualism, monism, and ir theory. Review of International Studies, 34, 129-153 doi: 10.1017/S0260210508007948

James, W. (2011). Does "consciousness" exist?. Journal of Cosmology, 14, 4484-4495.

James, W. (2011). The consciousness of self. Journal of Cosmology, 14, 4633-4683.

James, W. (2011). The stream of consciousness. Journal of Cosmology, 14, 4496-4508.

James, W. (2011). The stream of thought. Journal of Cosmology, 14, 4542-4576.

Janew, C. (2006). How consciousness creates reality. Translated from German by Nathalie Sequeira

Joseph, R. (2011). Dreams and hallucinations: lifting the veil to multiple perceptual realities. Journal of Cosmology, 14, 4800-4830.

Joseph, R. (2011). Evolution of consciousness in the ancient corners of the cosmos. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Joseph, R. (2011). Evolution of paleolithic cosmology and spiritual consciousness, and the temporal and frontal lobes. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com/Consciousness155.html/

Joseph, R. (2011). Origins of thought: Consciousness, language, egocentric speech and the multiplicity of mind. Journal of Cosmology, 14, 4577-4600.

Joseph, R. (2011). The neuroanatomy of free will loss of will, against the will, «alien hand». Journal of Cosmology,14, 4441-4460.

Joseph, R. (2011). The split brain: Two brains - two minds.Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com/ Consciousness163.html

Jourdan, J. (2011). Near death experiences and the 5th dimensional spatio-temporal perspective. Journal of Cosmology, 14, 4743-4762.

Kafatos, M., Tanzi, R. E., & Chopra, D. (2011). How consciousness becomes the physical universe.Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http:// journalofcosmology.com

Keil, J. (1991). New cases in Burma, Thailand, and Turkey: A limited field study replication of some aspects of ian stevenson's research. Journal of Scientific Exploration, 5(1), 27-59.

Kelly, M. R. (2008, August 5). Phenomenology and time-consciousness. Retrieved from http://www.iep.utm.edu/phe-time/

Kershaw, I. (1985). The Hitler myth.

King, C. (2011). Cosmological foundations of

consciousness. Journal of Cosmology, 14, 3706- 3725. Retrieved from http://journalofcosmology.com

Klima, G. (2007). Thomistic "monism" vs. cartesian "dualism". Munster: Mentis Verlag.

Koocher, G. (n.d.). Discussing death with children. Retrieved from http://www.kspope.com/therapistas/death.php

Kripalu, S. (1977). The science of meditation. (1st ed.). Bombay: Sri Dahyabhai Hirabhai Patel.

Kuttner, F., & Rosenblum, B. (2011). The conscious observer in the quantum experiment. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Langer, A. (2011). A mindful alternative to the mind/body problem. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com/Consciousness111.html

Langer, W. C. (2001). A psychological analysis of Adolph Hitler his life and legend. Retrieved from http://www.nizkor.org/hweb/people/h/hitler-adolf/oss-papers/text/profile-index.html

Leahy, R. L. (1996). Cognitive-behavioral therapy: Basic

principles and applications. (Chapter 2). Jason Aronson Publishers.

Lektorsky, V. A. (1980). Subject object cognition. Retrieved from http://www.marxists.org

Leontev, A. N. (1977). Activity and consciousness (Translated from the Russian by Robert Daglish). In Philosophy in the USSR, Problems of Dialectical Materialism (pp. 180-202). Moskow: Progress Publishers.

Leontev, A. N. (1978). Activity, consciousness, and personality. New Jersey: Prentice-Hall.

Levitin, K. (1982). One is not born a personality: Profiles of soviet educational psychologists (Translated from the Russian by Yevgeni Filippov). Moskow: Progress Publishers.

Liljenström, H. (2011). Intention and attention in consciousness dynamics and evolution. Journal of Cosmology, 14, 4848-4858. Retrieved from http://journalofcosmology.com

Lockley, M. (2011). The evolution of human consciousness: reflections on the discovery of mind and the implications for the materialist darwinian paradigm.Journal of Cosmology, 14, 4869-4875. Retrieved from http://journalofcosmology.com

Lombardo, T. (2011). The ecological cosmology of consciousness. Journal of Cosmology, 14, 4859-4868. Retrieved from http://journalofcosmology.com

Lorenz, E. N. (1972, December 29). Predictability: Does the flap of a butterfl'ys wings in brasil set off a tornado in texas. American Association for the Advancement of Science, 139th Meeting,

Lorkowski, C. M. (2010, November 7). David Hume: Causation. Retrieved from http://www.iep.utm.edu/hume-cau/

Luria, A. R. (1976). The problem (Translated by Martin Lopez-Morillas & Lynn Solotaroff). In Cognitive Development Its Cultural and Social Foundations. Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press.

Luria, A. R., & Vygotsky, L. S. (1992). Ape, primitive man, and child: Essays in the history of behaviour. New York: Harvester Wheatsheaf.

MacLennan, B. J. (2011). Protophenomena and their physical correlates. Journal of Cosmology, 14, 4516-4525.

Mahathera, N. (1995). Fundamentals of buddhism four lectures. Berkeley: DharmaNet International.

Manzotti, R. (2011). The spread mind: seven steps to situated consciousness. Journal of Cosmology, 14, 4526-4535.

Maunder, L., & Cameron, L. (2003). Depression - a self help guide. Belfast: Northern Ireland Association for Mental Health.

McGinn, C. (1989). Can we solve the mind-body problem?.Mind, New Series, 98(391), 349-366. Retrieved from http://www.jstor.org/stable/2254848

Mensky, M. B. (2011). Logic of quantum mechanics and phenomenon of consciousness. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Meshcheryakov, A. (1979). Awakening to life: On the education of deaf-blind children in the Soviet Union (Translated by Andy Blunden for marxists.org 2007). Moskow: Progress Publishers. Retrieved from http://www.marxists.org/

Mikhailov, F. (1980). The riddle of the self. Moskow: Progress Publishers.

Milkman, H., & Wanberg, K. (2007). Cognitive-behavioral treatment: A review and discussion for corrections professionals. Washington, DC: U.S. Department of Justice National Institute of Corrections.

Mills, A., Haraldsson, E., & Keil, H. H. J. (1994). Replication studies of cases suggestive of reincarnation by three independent investigators. The journal of the American society of psychical research, 88, 207-219.

Mitchell, E. D., & Staretz, R. (2011). The quantum hologram and the nature of consciousness. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http:// journalofcosmology.com

Mitra, A. N., & Mitra-Delmotte, G. (2011). Consciousness: A direct link to life"s origins?. Journal of Cosmology, 14, 4792-4799. Retrieved from http:// journalofcosmology.com

Morsella, E., & Jantz, T. (2011). Conscious states are a crosstalk mechanism for only a subset of brain processes. Journal of Cosmology, 14, 4469-4471.

Murray, H. A. (1943). Analysis of the personality of Adolph Hitler: With predictions of his future behavior and suggestions for dealing with him now and after Germany's surrender.

Nagasawa, Y. (2011, June). John hick's pan(en)theistic monism. International Conference in Philosophy of Religion Philosophy of

religion in the 21st century, Krakow - Poland.

Nagel, T. (1998). Conceiving the impossible and the mind-body problem. Philosophy, 73(285), 337-352.

Nanamoli, B. (2006). The three refugees. Kandy, Sri Lanka: Buddhist Publication Society.

Nani, A., & Cavanna, A. E. (2011). Brain, consciousness, and causality. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com/Consciousness128.html

Nauenberg, M. (2011). Does quantum mechanics require a conscious observer?. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Nelson, K. R. (2011). Do other species experience spirituality? Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Nelson, K. R. (2011). In the borderlands of consciousness and dreams: spirituality rising from consciousness in crisis.Journal of Cosmology, 14, 4763-4780.

Nelson, R. (2011). Detecting mass consciousness: effects of globally shared attention and emotion. Journal of Cosmology, 14, 4616-4632.

Nietzsche, F. (1968). The will to power: A new translation by Walter Kaufman and R. J. Hollingdale; edited with commentary by Walter Kaufman. New York: Vintage Books.

Nijenhuis, E. R. S. (2011). Consciousness, dissociation and self-consciousness. Journal of Cosmology, 14, 4712-4727.

Ornstein, R., & Ehrlich, P. (2000). New world new mind: Moving toward conscious evolution. Los Altos: ISHK.

Park, A. (2012, May 25). Why genetic tests don"t help doctors predict your risk of disease. Retrieved from http://healthland.time.com/2012/05/25/why-genetic-tests-dont-help-doctors-predict-your-risk-of-disease/

Pásztor, E. (2011). Prehistoric astronomers? ancient knowledge created by modern myth. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Payutto, P. (1992). Buddhist economics. Bangkok: Buddhadhamma Foundation.

Peale, N. V. (1956). The power of positive thinking. New York: Prentice-Hall.

Perera, T. H. (1966). Detachment. Kandy, Sri Lanka: Buddhist Publication Society.

Pino, S., & Di Mauro, E. (2011). Gaia universalis. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com

Politzer, G. (1994). Critique of the foundations of psychology (Translated by Maurice Apprey). Pittsburgh: Duqesne University Press.

Prince, L. (1995). Radical buddhism. Berkeley: DharmaNet International.

Radovic, F. (1998). Towards a proper monism. Toward a Science of Consciousness, Tucson III,

Rao, P. M. (1975). Meditation- first steps to control of the senses. Kandy, Sri Lanka: Buddhist Publication Society.

Repovis, G. (2004). Cognitive neuroscience and the «mind-body» problem. Horizons of Psychology, 13(2), 9-16.

Rivas, T. (2003). Three cases of the reincarnation type in the Netherlands. Journal of Scientific Exploration, 17(3), 527-532.

Rossi, K. L., & Rossi, E. L. (2011). Decoding the chalmers hard problem of consciousness: qualia of the

molecular biology of creativity and thought. 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com/Consciousness126.html

Rubenstein, E. M. (2006, October 18). Sellars" philosophy of mind. Retrieved from http://www.iep.utm.edu/sellars/

Sellars, W. (1956). Empiricism and the philosophy of mind. Minnesota Studies in the Philosophy of Science, 1, 253-329.

Seneviratne, H. L. (1995). Buddhism as a practical teaching. Berkeley: DharmaNet International.

Sève, L. (1978). Man in marxist theory and the psychology of personality (Translated by John Mcgreal). New York: The Harvester Press.

Shevrin, H. (2011). What does consciousness do?. Journal of Cosmology, 14, Retrieved from http://journalofcosmology.com/Consciousness157.html

Shirer, W. L. (1960). The rise and fall of the third reich a history of Nazi Germany.

Skirry, J. (2006, May 3). René Descartes: The mind-body distinction. Retrieved from http://www.iep.utm.edu/descmind/

Smith, L., Nathan, P., Juniper, U., Kingsep, P., & Lim, L. (2003). Cognitive behavioural therapy for psychotic symptoms: A therapist's manual. Perth: Centre for Clinical Interventions: Psychotherapy, Research, and Training.

Somers, J., & Querée, M. (2007). Cognitive behavioral therapy: Core information document . Vancouver: Centre for Applied Research in Mental Health and Addiction, Faculty of Health Sciences, Simon Fraser University.

Sorem, E. (2010). Searle, materialism, and the mind-body problem. Perspectives: International Postgraduate Journal of Philosophy, 3, 30-54.

Sri Dhammananda, K. (1987). Practical buddhism. Berkeley: DharmaNet International.

Sri Dhammananda, K. (1995). Life is uncertain - death is certain. Kuala Lumpur, Malaysia: uddhist Missionary Society.

Storey, J. A. (2009). Meditation-the inward journey and inner thoughts and outward results. Kandy, Sri Lanka: Buddhist Publication Society.

Story, F. (1986). Buddhist meditation. Kandy, Sri Lanka: Buddhist Publication Society.

Sunim, M. S. (1993). Heart sutra: Ancient buddhist wisdom in the light of quantum reality. Berkeley: DharmaNet International.

Taleb, N. N. (2008). The black swan: The impact of the highly improbable. New York: Random House.

Tattersall, I. (2011). Evolution of modern human consciousness. Journal of Cosmology, 14, 4831-4838. Retrieved from http://journalofcosmology.com

Thera, N. (1973). Mindfulness and awareness. Kandy, Sri Lanka: Buddhist Publication Society.

Thomas, E. (2012, January 27). John mctaggart ellis mctaggart (1866-1925). Retrieved from http://www.iep.utm.edu/mctaggar/

Tolle, E. (1997). The power of now: A guide to spiritual enlightment. (1st ed.). Vancouver: Namaste Publishing.

Tolle, E. (2005). A new earth: Awakening to your life's purpose. New York: Penguin Group.

Trehub, A. (2011). Evolution's gift: subjectivity and the phenomenal world. Journal of Cosmology, 14, 4839-4847. Retrieved from http://journalofcosmology.com

Tucker, J. B. (2008). Ian stevenson and cases of the reincarnation type. Journal of Scientific Exploration, 22(1), 36-43.

U Ba Khin, S. (1951, September). What buddhism is. The religion in life forum, Methodist English Church of Signal Pagoda Road, Rangoon.

University of California - Los Angeles Health Sciences. (2008, October 8). Ucla researchers discover that the sleeping brain behaves as if it's remembering something. Retrieved from http://www.sciencenewsline.com/articles/2012100813150007.html

Vermeersch, E. (2011). Consciousness: Solvable and unsolvable problems. Journal of Cosmology, 14, 4509-4515.

Vivyan, C. (2009). An introductory self-help course in cognitive behaviour therapy.

Voloshinov, V. N. (1973). Marxism and the philosophy of language. In Seminar Press, in liaison with the Harvard Univerity Press and the Academic Press Inc.

Von Bertalanffy, L. (1964). The mind-body problem: A new view. Psychosomatic Medicine, 26(1), 24-45.

Retrieved from http://www.psychosomaticmedicine.org

Vygotsky, L. (1932). On the problem of the psychology of the actor's creative work. In The Collected Works of L.S. Vygotsky (Vol. 6).

Vygotsky, L. (1962). Thinking and speaking (Edited and translated by Eugenia Hanfmann and Gertrude Vakar). Cambridge, Massachusetts: The MIT Press.

Vygotsky, L. (1971). The psychology of art (Translated by Scripta Technica Inc.). Cambridge, Massachusetts: MIT Press.

Vygotsky, L. (1987). The historical meaning of the crisis in psychology: A methodological investigation (translated Rene van der Veer). New York: Plenum Press.

Vygotsky, L. (1992). Educational psychology (Translated by Robert Silverman). Florida: St. Lucie Press.

Vygotsky, L. (1993). The fundamental problems of defectology. In A. Blunder (Ed.), Collected Works of L. S. Vygotsky (Vol. 2). New York: Plenum Press.

Vygotsky, L. (1994). The problem of the cultural development of the child. In Vygotsky Reader. Oxford: Blackwell.

Vygotsky, L. (1994). Adolescent pedagogy (edited by rené van der veer and jaan valsiner). Oxford: Blackwell.

Vygotsky, L. (1994). The socialist alteration of man (Edited by René van der Veer and Jaan Valsiner). Oxford: Blackwell.

Vygotsky, L. (1999). Consciousness as a problem in the psychology of behavior (Translated by Nikolai Veresov). New York: Peter Lan Publishing. Retrieved from http://www.marxists.org

Vygotsky, L. (2002). Play and its role in the mental development of the child (Catherine Mulholland). Psychology and Marxism Internet Archive. Retrieved from http://www.marxists.org

Wallon, H. (1984). Genetic psychology (Translated by Donald Nicholson-Smith). Lanham, MaryLand, United States of America: Jason Aaronson.

Wallon, H. (1984). Psychology and dialectical materialism (Translated by Michael Vale). Lanham, MaryLand, United States of America: Jason Aaronson.

Wallon, H. (1984). The origins of thought in the child (Translated by Michael Vale). Lanham, MaryLand, United States of America: Jason Aaronson.

Wallon, H. (1984). The origins of thought in the child (Translated by Michael Vale). Lanham, MaryLand, United States of America: Jason Aaronson.

Wallon, H. (1984). The psychological and sociological study of the child (Translated by Donald Nicholson-Smith). Lanham, MaryLand, United States of America: Jason Aaronson.

Wallon, H. (1984). The psychological development of the child (translated by Michael Vale). Lanham, MaryLand, United States of America: Jason Aaronson.

Wallon, H. (1984). The role of the other in the consciousness of the ego (Translated by Donald Nicholson-Smith). Lanham, MaryLand, United States of America: Jason Aaronson.

Wenzel, A., Brown, G. K., & Karlin, B. E. (2011).Cognitive behavioral therapy for depression in veterans and military servicemembers. Washington, DC: U.S. Department of Veterans Affairs.

Wilson, R. (2006). The anxiety disorder game. Psychotherapy in Australia, 12(2), 36-45.

Wilson, R. (n.d.). Fear of flying. Retrieved from http://www.anxieties.com

Wilson, R. (n.d.). Generalized anxiety disorder. Retrieved from http://www.anxieties.com

Wilson, R. (n.d.). Obsessive-compulsive disorder. Retrieved from http://www.anxieties.com

Wilson, R. (n.d.). Panic attacks. Retrieved from http://www.anxieties.com

Wilson, R. (n.d.). Post-Traumatic stress disorder. Retrieved from http://www.anxieties.com

Wilson, R. (n.d.). Simple phobias. Retrieved from http://www.anxieties.com

Wilson, R. (n.d.). Social anxieties & phobias. Retrieved from http://www.anxieties.com

Wilson, R. (n.d.). The use of medication. Retrieved from http://www.anxieties.com

Zukav, G. (1982). The dancing wu li masters: An overview of the new physics. (2nd ed.). London: Fontana Paperbacks.

الجابري، صلاح فليفل، خارقية الإنسان: الباراسيكولوجي من المنظور العلمي، دمشق: الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، 2004.

الجابري، صلاح فليفل، فلسفة العقل: التكامل العلمي والميتافيزيقي. بيروت: دار الفارابي، 2012.

القرآن الكريم

الكتاب المقدّس

المسكيني، أم الزين بن شيخة، كانط راهناً: أو الإنسان في حدود مجرّد العقل، الدار البيضاء؛ بيروت: المركز الثقافي العربي، 2006.

انجلس، فريديريك، ديالكتيك الطبيعة ، نقله إلى العربية وقدّم له توفيق سلوم، بيروت: دار الفارابي، 1989.

أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، القاهرة: سينا للنشر، 1992.

بارجوني ـ هورو، مارسيل، ديكارت، نقله إلى العربية جوزيف سماحة، بيروت: دار الفارابي، 1974.

بودوستنيك؛ وياخوت، عرض موجز للمادية الديالكتيكية، موسكو: دار التقدم.

تامر، عارف، الحاكم بأمر الله، بيروت: دار الجيل، 1980.

جنبلاط، كمال، الحياة والنور، ط.2، المختارة: الدار التقدّمية، 1987.

جنبلاط، كمال، السلام: أناندا، ط.2، المختارة: الدار التقدّمية، 1987.

جنبلاط، كمال، ثورة في عالم الإنسان. المختارة: الدار التقدّمية، 1987.

جنبلاط، كمال، فيما يتعدى الحرف، ط.3، المختارة: الدار التقدّمية، 1987.

دونكر، هرمان، مدخل إلى الماركسية، بيروت: دار الفارابي، 1979.

زكريا، فؤاد، سبينوزا، ط. 2، بيروت: دار التنوير، 1983.

سلوم، توفيق، ماركس: مخطوطات 1844 الفلسفية الاقتصادية، بيروت: دار الفارابي، 1982.

طليع، أمين، التقمّص، بيروت: دار عويدات، 1980.

عامل، مهدي، هل القلب للشرق والعقل للغرب: ماركس في استشراق إدوارد سعيد، ط.2، بيروت: دار الفارابي، 1986.

عامل، مهدي، بحث في أسباب الحرب الأهلية في لبنان، بيروت: دار الفارابي، 1979.

غالب، مصطفى، الشخصية الناجحة. في سبيل موسوعة نفسية ، ج. 14، بيروت: دار مكتبة الهلال، 1980.

غرانجه، جيل كاستون، العقل، ترجمة هنري زغيب، ط.2، بيروت: المنشورات العربية، 1989.

غيلنر، إرنست، ما بعد الحداثة والعقل والدين، ترجمة معين الإمام، دمشق: دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2001.

كانت، عمانوئيل، نقد العقل المجرد، نقله إلى العربية أحمد الشيباني، بيروت: دار اليقظة العربية، 1965.

كانت، عمانوئيل، نقد ملكة الحكم، ترجمة غانم هنا، بيروت: المنظمة العربية للترجمة: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005.

كانت، عمانوئيل، نقد العقل العملي، ترجمة غانم هنا، بيروت: المنظمة العربية للترجمة: مركز دراسات الوحدة العربية، 2008.

لينين، فلاديمير، عن الماركسية (1918)، موسكو: وكالة أنباء نوفوستي، 1970.

لينين، فلاديمير، دفاتر عن الديالكتيك، ترجمة الياس مرقص، بيروت: دار الحقيقة، 1971.

لينين، فلاديمير، المادية والمذهب النقدي التجريبي. موسكو: دار التقدم.

مارتن، بول، العقل الممرض: العقل والسلوك والمناعة والمرض، ترجمة عبد الإله النعيمي، أبوظبي: المجمع الثقافي، 2000.

ماركس، كارل، رأس المال: نقد الإقتصاد السياسي، ط.2، بيروت: مكتبة المعارف، 1976.

ماركس، كارل، بؤس الفلسفة: ردّ على فلسفة البؤس لبرودون ، نقله إلى العربية محمد مستجير مصطفى، بيروت: دار الفارابي، 1979.

نعوموف، فلاديمير؛ كوريوف، ليونيد، وصية لينين، ترجمة يوسف عطالله، بيروت: دار الفارابي، 1989.

هابرد، ل. رون، الداينتكس: قدرة العقل على الجسد. الدانمرك: نيو إيرا، 2006.

هاينز، مايكل، القوى العقلية: الحواس الخمس، ترجمة عبد الرحمن الطيب، عمان، بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 2009.

هتلر، أدولف، كفاحي، ترجمة لويس الحاج، ط.2، بيروت: بيسان، 1995.

هيلي، باتريك، صور المعرفة: مقدمة لفلسفة العلم المعاصرة، ترجمة نور الدين شيخ عبيد؛ مراجعة حيدر حاج اسماعيل، بيروت: المنظمة العربية للترجمة: مركز دراسات الوحدة العربية، 2008.

يعقوب، غسان، معرفة الذات والآخر: بحث في الكشف عن أسرار نفسك من خلال وجهك وأحلامك. بيروت: دار النهار للنشر، 1978.

المحتويات



... إنّ العقل البشري الجماعي لم يتطوّر مهما تطوّر أو تغيّر شكل المعرفة، ومهما تغيّر من يقبض على مفاصل تلك المعرفة ومن يتكلّم بصفته «قيّمًا» عليها. وتهم الهرطقة وشتّى أنواع «التكفير» وإطلاق الحرم على مساءلة كلّ ما هو «مقدّس» لا تزال هيَ هيَ. والمنطق الذي كان سائدًا أيام كان الإكليروس يقبضون على «الحقيقة» وعلى الحقّ بادعاء امتلاك المعرفة لا يزال هو نفسه وإن تغيّرت ملامحه...

... لقد كانت «الحقيقة» ولا تزال حلمًا يدغدع عقول المفكّرين والفلاسفة والعلماء. وفي خضمّ سيرورة البحث عن «الحقيقة» شهد المنهج المعرفي، الذي كما سنرى يرتكز دائمًا على التفاصيل، الكثير من التفرّع وزادت تقسيماته على حساب المنظور الوحدوي للوجود ولفهم الواقع. وهذه إشكاليّة أساسية من الإشكاليات التي نحاول طرحها من خلال هذا الكتاب...

(من المقدمة)

ماهر أبوشقرا، لبناني من مواليد بيروت 1981.

- **باحث واستشاريّ في مجال الدراسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية واستطلاعات الرأي.**
- **يعمل كمستشار للأبحاث مع عدة مؤسّسات ومنظمات لبنانية وإقليميّة.**
- **ناشط في مجال النضال من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة وحقوق الإنسان.**

ISBN 978-9953-71-965-8
9 789953 719658